حكايا لأولادنا

رمضان مصطفى سليمان

أداء الأمانة

حين يكون الله خير شاهد وخير وكيل

في مدينةٍ بعداد العريقة ، كانت الأسواق تستيقظ مع أول خيطٍ للفجر ، فتختلط أصوات الباعة برائحة الخبز الساخن وعبق التوابل ، وكان الناس يعرفون رجلاً لا تسبقه شهرته في التجارة ، بل يسبقه خُلقه ، فإذا ذُكر اسمه ، قالوا: ذلك الرجل الذي لا يبيع إلا بصدق ، ولا يشتري إلا بأمانة ،

لم يكن أغنى تجار المدينة ، لكنه كان أغناهم ثقةً في قلوب الناس ، و كان يقول دائمًا : قد يخسر التاجر ماله ، ولكن إذا خسر أمانته فقد خسر نفسه ،

ومع مرور السنوات ، بارك الله في رزقه ، حتى أصبح من كبار التجار ، ظن بعض الناس أن سر نجاحه ذكاؤه في البيع والشراء ، لكن الحكماء كانوا يقولون : إن الرزق يحب الأيدي الأمينة ، والقلوب الصادقة ،

غير أن الدنيا لا تدوم على حال ، والله تعالى يبتلي عباده ليختبر صدق إيمانهم وصبرهم ، ففي يوم من الأيام دخل التاجر صفقةً تجاريةً كبيرة ، وكان يظن أنها ستزيد تجارته ازدهارًا ، لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن ، خسر تجارته كلها في لحظات ، حتى لم يبق في بيته إلا القليل من الطعام ،

مرت عليه أيام ثقيلة ، كان يجلس في بيته يفكر ، ويراقب أطفاله وهم يحاولون إخفاء جوعهم بابتسامة بريئة ، شعر بضيق شديد ، لكنه لم يسمح لليأس أن يدخل قلبه ،

وقف أمام نافذته في صباحٍ هادئ وقال لنفسه :

أأنا رجل عرفته الحياة بالكفاح ، فأستسلم اليوم؟ إن المؤمن لا يقف عند أول عثرة ، بل يجعلها بداية طريق جديد ،

نهض ، توضأ ، صلى ركعتين ، ودعا الله أن يفتح له بابًا من فضله ، ثم خرج إلى السوق ،

كان السوق كما عرفه دائمًا ؛ مزدحمًا بالحركة ، لكن هذه المرة كان هو الذي يحتاج إلى يدٍ تمتد إليه ،

التقى أحد أصدقائه القدامى ، وهو رجل عرفه منذ سنوات طويلة ، وكان يعرف صدقه وأمانته ،

ابتسم الصديق وقال: ما الذي جاء بك اليوم يا أبا فلان ؟

تنهد التاجر وقال بهدوء : خسرت مالي كله ، وأريد أن أبدأ من جديد ، هل تقرضني ألف دينار؟

نظر إليه صديقه مليًا ، ثم قال : والله ما شككت يومًا في صدقك ، ولكن المال أمانة ، ومن حق صاحبه أن يطمئن ، فمن يشهد بيننا؟

رفع التاجر رأسه إلى السماء ، وقال بثقة هادئة : الله يشهد بيننا ،

ساد صمت قصير ، ثم امتلأت عينا الصديق بالطمأنينة ، وقال : إذا كان الله شاهدًا ، فلا أبحث عن شاهد غيره ،

أخرج كيسًا صغيرًا فيه ألف دينار ، وسلمه إليه ، واتفقا على أن يعيد المال بعد شهر ،

خرج التاجر وقلبه مملوء بالأمل ، كان يعلم أن هذه الدنانير ليست مجرد مال ، بل ثقة عظيمة يجب أن يحافظ عليها ،

في صباح اليوم التالي ، سافر إلى إحدى الجزر القريبة ، حيث كانت التجارة مزدهرة ، ركب سفينة صغيرة ، وبعد رحلة استمرت ساعات ، وصل إلى الجزيرة ،

اشترى بضاعة يحتاجها الناس ، وجال بها في الأسواق ، لم يكن يغش في الميزان ، ولم يرفع الأسعار طمعًا ، بل كان يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه ،

شيئًا فشيئًا ، بدأ رزقه يزداد ، حتى عوض الله خسارته وربح ربحًا حسنًا ،

وكان كلما عد نقوده ، تذكر الدين الذي في عنقه ، فيقول :هذا المال ليس كله لي ، ففيه حق لصاحبي ،

اقترب موعد الوفاء ، فجمع ألف الدينار ، واستعد للعودة ،

لكن المفاجأة كانت قاسية ،

وصل إلى الميناء ، فلم يجد سفينةً متجهة إلى مدينته ، انتظر يومًا ، ثم يومين ، ثم ثلاثة أيام ، لكن البحر كان هائجًا ، والسفن متوقفة ،

وقف على الشاطئ ، وقلبه يمتلئ بالحزن ،

قال في نفسه : كيف أوفي بوعدي ؟ لقد شهد الله بيننا ، ولا أريد أن ألقى ربي وقد قصرت في أداء الأمانة ،

ظل يفكر طويلًا ، ثم وقعت عيناه على جذع شجرة كبير حملته الأمواج إلى الساحل ،

اقترب منه ، وصنع في داخله تجويفًا صغيرًا ، ووضع فيه ألف الدينار ، وكتب رسالة قصيرة جاء فيها : إلى صديقي الكريم ، ، ، حاولت العودة في الموعد ، ولكن لم أجد سفينة تقلني ، وهذه أمانتك أرسلها مع البحر ، وأسأل الله الذي كان شاهدًا بيننا أن يبلغها إليك ، فاعذرني على التأخير ،

لف الرسالة مع المال داخل كيس ، وأحكم إغلاق التجويف ، ثم أغلقه جيدًا ، وحمل الجذع بكل ما يملك من قوة ، ورماه في البحر ،

وقف طويلًا ينظر إلى الأمواج وهي تبتعد بالجذع شيئًا فشيئًا ، لم يكن واثقًا من وصوله ، لكنه كان واثقًا من ربه ،

عاد إلى الجزيرة ، وقلبه بين الخوف والرجاء ، ودموعه تنساب وهو يردد : اللهم إنك تعلم أني لم أفرط في الأمانة ،

وفي المدينة ، كان الصديق يذهب كل يوم إلى الشاطئ ،

لم يكن ينتظر المال ، بل كان ينتظر صديقه ،

كان يقول : أسأل الله أن يكون بخير ،

وذات صباح ، لمح جذعًا ضخمًا يطفو قريبًا من الساحل ،

قال في نفسه : سآخذه لأستعمله حطبًا ،

حمله إلى بيته ، وأخذ يقطعه ، فإذا بكيس صغير يسقط من داخله ،

تعجب ، وفتحه ، فوجد ألف الدينار ، ومعها الرسالة ،

قرأها مرة ، ثم أعاد قراءتها مرات عديدة ، حتى اغرورقت عيناه بالدموع ،

قال : سبحان الله! ما أعظم أمانة هذا الرجل ، وما أعظم توكله على الله ،

احتفظ بالمال ، وهو يحمد الله على هذه القصة التي لن ينساها ما عاش ،

وبعد أيام هدأت الرياح ، وعادت السفن إلى الإبحار ،

ركب التاجر أول سفينة ، وما إن وصل إلى مدينته حتى لم يذهب إلى بيته ، ولم يلق أهله ، بل حمل ألف دينار أخرى ، وأسرع إلى بيت صديقه ،

طرق الباب ، فتح الصديق وهو يبتسم ،

قال التاجر وهو يقدم الكيس : اعذرني على التأخير ، وهذه ألف الدينار التي اقترضتها منك ،

ابتسم الصديق ابتسامة واسعة وقال : لقد وصلتني أمانتك منذ أيام ،

تعجب التاجر وقال : كيف ؟

فحكى له قصة الجذع والرسالة والمال ،

وقف التاجر صامتًا ، ثم انفجرت عيناه بالدموع ،

رفع يديه إلى السماء وقال : الحمد لله الذي لم يضيع الأمانة ، والحمد لله الذي كان نعم الوكيل ،

اقترب الصديقان من بعضهما ، وتعانقا طويلًا ، ولم تكن دموعهما دموع حزن ، بل دموع شكر ووفاء ،

ومنذ ذلك اليوم ، أصبحت قصتهما تُروى في المجالس ، لا لأنها قصة مال ، بل لأنها قصة ضمير حي ،

لقد علمت الناس أن الأمانة ليست كلمات تُقال ، بل مواقف تُثبتها الأفعال ، وأن الصدق يبني جسور الثقة بين الناس ، وأن من جعل الله شاهدًا على معاملاته ، حفظه الله في دنياه وآخرته ،

وفي حياتنا اليوم ، قد لا يرسل أحد ماله داخل جذع شجرة ، لكن صور الأمانة ما تزال كثيرة ، فالطالب الأمين لا يغش في الامتحان ، والموظف الأمين يحافظ على وقت عمله ، والطبيب الأمين يخلص في علاج مرضاه ، والتاجر الأمين لا يخدع زبائنه ، والعامل الأمين

يؤدي عمله بإتقان ، لأن الأمانة ليست مرتبطة بالمهن ، بل هي خُلُق يسكن القلب ويظهر في كل تصرف ،

ولهذا ، فإن المجتمعات التي تنتشر فيها الأمانة تنعم بالثقة والاستقرار ، وتزدهر فيها التجارة ، وتقل فيها الخصومات ، ويشعر أفرادها بالأمان في تعاملاتهم ، أما إذا ضاعت الأمانة ، ضاعت معها الثقة ، وانتشر الظلم والخداع ، وضعفت الروابط بين الناس ،

لقد أراد الإسلام أن يكون الإنسان أمينًا حتى في غياب الرقيب ، لأن أعظم رقيب هو الله سبحانه وتعالى ، فالأمانة ليست خوفًا من الناس ، وإنما مراقبة لله ، وإيمان بأن الخير الذي يزرعه الإنسان سيعود إليه يومًا ما ،

وهكذا بقيت قصة ذلك التاجر شاهدًا حيًا على أن المال قد يضيع ثم يعود ، أما الأمانة فإذا استقرت في القلب ، فإنها ترفع صاحبها في أعين الناس ، وتبارك له في رزقه ، وتجعله مطمئن النفس ، كريم الذكر ، حسن الأثر ،

العبرة :

الأمانة تاج الأخلاق ، والصدق مفتاح الثقة ، ومن حفظ حقوق الناس حفظ الله حقوقه ، ومن جعل الله شاهدًا على أعماله ، كفاه الله ما أهمه ، وفتح له من أبواب الخير ما لا يحتسب ،

الطفلة الضائعة

حين يضيع الإنسان عن نفسه قبل أن يضيع عن الطريق

ليست كل طفلة ضائعة تحمل دمية تبحث عنها بين الأزقة ، فبعض الأطفال يكبرون ، وتكبر معهم ملامحهم وشهاداتهم وأحلامهم ، لكنهم يظلون في أعماقهم أطفالًا يبحثون عن أنفسهم ، قد يعيش الإنسان بين الناس ، ينجح في عمله ، ويؤسس أسرة ، ويحقق ما يراه الآخرون نجاحًا ، لكنه يشعر في لحظة صادقة بأنه لا يعرف من يكون ، ولا إلى أين يمضي ،

هذه هي الحكاية التي ترسمها الكاتبة إيلينا فيرانتي في الجزء الأخير من رباعية **صديقتي المذهلة** ، لكنها ليست حكاية امرأة واحدة ، بل حكاية كثير من البشر الذين يقودهم التيار بدل أن يقودوا حياتهم ،

تبدأ القصة عندما تترك إيلينا حياتها المستقرة في فلورنسا ، وتغادر بيتها وزوجها وبناتها ، لتلحق بحبها القديم نينو ، يبدو القرار في ظاهره انتصارًا للقلب ، لكنه في حقيقته بداية رحلة جديدة من الضياع ، لقد هدمت بيديها ما بنته عبر سنوات طويلة من الدراسة والعمل والصبر ، وعادت إلى نابولي ، المدينة التي تركتها قديمًا ، لتلتقي من جديد بصديقتها ليلا ، تلك الشخصية الغامضة التي تشبه النار ؛ تمنح الدفء أحيانًا وتحرق كل من يقترب منها أحيانًا أخرى ،

منذ الصفحات الأولى يدرك القارئ أن الضياع الحقيقي ليس ضياع المكان ، بل ضياع الهوية ، فإيلينا لم تكن تبحث عن مدينة ، بل كانت تبحث عن نفسها ،

كانت إيلينا فتاة ذكية ومجتهدة ، لكن ذكاءها لم يكن كافيًا ليجعلها صاحبة قرار ، كانت تستجيب لما يريده المجتمع منها أكثر مما تستجيب لصوتها الداخلي ، درست لأنها أرادت الهروب من الفقر ، ولم تدرس

لأن المعرفة كانت شغفها الأول ، أصبحت كاتبة لأن النجاح بدا لها طريقًا للنجاة ، ولأنها كانت تخشى أن تسبقها ليلا إلى المجد الأدبي ، تزوجت لأن الزواج كان الخطوة الطبيعية التالية ، وأنجبت لأن الجميع يفعل ذلك ، وعاشت سنوات طويلة وهي تؤدي أدوارًا رسمها الآخرون لها ،

ليست شخصية شريرة ، ولا ضعيفة تمامًا ، بل إنسانة عادية تحمل التناقضات التي يحملها كثير من الناس ، وهذا ما يجعلها قريبة من القارئ ، فكم من طالب اختار تخصصه لأن أسرته أرادته طبيبًا أو مهندسًا ، ثم اكتشف بعد سنوات أن قلبه كان معلمًا أو فنانًا أو حرفيًا ماهرًا ؟ وكم من شاب أو فتاة دخلا طريقًا لا يشبههما ، فقط لأن المجتمع اعتبره الطريق الصحيح ؟

إن التربية لا تعني أن نحسن تربية الأبناء على الطاعة وحدها ، بل أن نساعدهم على اكتشاف ذواتهم ، فالإنسان الذي لا يعرف نفسه يسهل على الظروف أن تقوده حيث تشاء ،

أما ليلا ، فهي الوجه الآخر للحكاية ، تبدو منذ البداية قوية ، جريئة ، متمردة ، لا تخاف الناس ولا تخضع لقوانينهم ، لكنها في أعماقها تحمل جراحًا لا تقل ألمًا عن جراح صديقتها ، كانت تمتلك ذكاءً استثنائيًا ، وقدرة على الإبداع ، وطاقة هائلة على الإنجاز ، لكنها لم تستطع أن تمنح حياتها اتجاهًا ثابتًا ،

كلما اشتعل داخلها شغف جديد ، تركت ما بين يديها ، وبدأت من الصفر ، كانت تؤمن بما تحب في تلك اللحظة ، ثم تهجره عندما يتغير مزاجها أو تتبدل رؤيتها ، ولهذا بقيت تدور في حلقات متكررة من البداية والانقطاع ، حتى ضاع منها كثير من العمر ،

في حياتنا الواقعية نرى نماذج تشبه ليلا كثيرًا ، شاب يتعلم البرمجة ، ثم يتركها ليفتتح مشروعًا تجاريًا ، ثم يغلقه ليدرس التصوير ، ثم يترك التصوير ليدخل مجالًا آخر ، لا لأنه فشل ، بل لأنه لم يمنح نفسه فرصة كافية للنمو والاستمرار ، التنوع جميل ، لكن النجاح يحتاج إلى صبر ، وإلى رؤية واضحة ، وإلى الإيمان بأن الثمار لا تنضج في يوم واحد ،

ومن منظور تربوي ، فإن الطموح وحده لا يكفي ، كما أن الذكاء وحده لا يصنع النجاح ، فالشخصية المتوازنة تحتاج إلى ثلاثة أركان : معرفة النفس ، وتحديد الهدف ، والصبر على الطريق ،

العلاقة بين إيلينا وليلا ليست مجرد صداقة ، بل هي مرآة نفسية معقدة ، كانت كل واحدة ترى في الأخرى ما تفتقده في نفسها ، إيلينا كانت تغار من جرأة ليلا واستقلالها ، وليلا كانت تدرك أن إيلينا استطاعت الوصول إلى أماكن عجزت هي عن بلوغها ، ولذلك بقيت كل واحدة أسيرة مقارنة لا تنتهي ،

وهنا تكمن واحدة من أخطر المشكلات التربوية في عصرنا ؛ المقارنة المستمرة ، فوسائل التواصل الاجتماعي جعلت كثيرًا من الناس يقيسون سعادتهم بما يملكه الآخرون ، يرى أحدهم نجاح صديقه ، فينسى إنجازاته ، وتنظر فتاة إلى حياة غيرها فتظن أن حياتها ناقصة ، مع أن لكل إنسان طريقه وظروفه واختباراته ،

التربية الحكيمة تعلم أبناءها أن المنافسة الحقيقية ليست مع الآخرين ، بل مع النفس ، فمن كان أفضل اليوم مما كان عليه بالأمس ، فقد ربح ،

ومن أعمق ما تكشفه الرواية أن الإنسان قد يهرب من مكانه ، لكنه لا يستطيع الهروب من ذاته ، فقد عادت إيلينا إلى نابولي وهي تظن أنها ستجد السعادة ، لكنها حملت معها أسئلتها القديمة ، وخوفها القديم ، وحيرتها القديمة ، فالمشكلة لم تكن في المدينة ، ولا في الزوج ، ولا في الحبيب ، بل في داخلها ،

وهذه حقيقة يؤكدها علم النفس التربوي ؛ فالقرارات التي تُبنى على الهروب لا تمنح سلامًا دائمًا ، السلام يبدأ عندما يتصالح الإنسان مع نفسه ، ويعرف قيمته ، ويتحمل مسؤولية اختياراته ،

وتبرع الكاتبة في توظيف التحليل النفسي دون أن تقدم محاضرات مباشرة ، فهي تجعل الشخصيات تتحدث وتخطئ وتندم ، فيستنتج القارئ الدروس بنفسه ، وهذه من أجمل وسائل التربية؛ فالقصة الصادقة تترك أثرًا أعمق من الموعظة المباشرة ، لأنها تجعل القارئ يعيش التجربة لا يسمع عنها فقط ،

ولعل أجمل ما في الرواية أنها لا تقدم أبطالًا كاملين ، بل بشرًا يخطئون ويصيبون ، ينجحون ويفشلون ، يحبون ويكرهون ، ثم

يواصلون السير ، وهذا يزرع في النفس قيمة مهمة ، وهي أن الخطأ لا يلغي الإنسان ، لكنه يصبح فرصة للتعلم إذا امتلك الشجاعة للاعتراف به ،

ومن واقع الحياة نرى كثيرًا من الآباء يضغطون على أبنائهم ليكونوا نسخًا مكررة منهم ، فيكبر الأبناء وهم يحققون أحلام غيرهم ، وبعد سنوات قد يكتشف أحدهم أنه عاش عمرًا كاملًا بعيدًا عن ذاته ، لذلك فإن التربية الحديثة تدعو إلى الحوار مع الأبناء ، والاستماع إلى ميولهم ، وتنمية شخصياتهم ، بدل فرض مسارات جاهزة عليهم ،

كما تؤكد الرواية قيمة الصديق الحقيقي ، فالصديق ليس من يصفق لكل قراراتنا ، بل من يساعدنا على رؤية أنفسنا بوضوح ، وقد تكون الصداقة أحيانًا سببًا في النمو ، وقد تتحول إلى قيد إذا قامت على الغيرة أو التبعية أو المقارنة المستمرة ،

وفي النهاية ، تبدو الطفلة الضائعة رمزًا لكل إنسان فقد الطريق إلى نفسه ، ليست طفلة تبحث عن بيتها ، بل روح تبحث عن معناها ، وقد تنجح في الدراسة والعمل ، لكنها لا تشعر بالاكتمال ما دامت تعيش وفق رغبات الآخرين أو وفق نزواتها المتقلبة ،

إن الرسالة التربوية التي تحملها هذه الحكاية عميقة وبسيطة في آن واحد : اعرف نفسك قبل أن تختار طريقك ، ولا تجعل الآخرين يرسمون مستقبلك ، ولا تتبع كل رغبة عابرة ، فالحياة ليست سباقًا مع الناس ، بل رحلة لبناء الذات ،

فالإنسان الذي يعرف قيمه ، ويحدد أهدافه ، ويصبر على تحقيقها ، ويوازن بين العقل والقلب ، يستطيع أن يعبر تقلبات الحياة بثبات ، أما من يعيش أسير المقارنة أو التردد أو الهروب ، فقد يبقى تائهًا مهما تغيرت المدن والوجوه ،

وهكذا تنتهي الحكاية ، لكنها تترك سؤالًا مفتوحًا في قلب كل قارئ : هل نحن نسير في الطريق الذي اخترناه حقًا ، أم أننا ما زلنا ، مثل الطفلة الضائعة ، نبحث عن أنفسنا بين طرق رسمها الآخرون لنا ؟

وربما يكون الجواب بداية رحلة جديدة ، لا نحو مدينة أخرى ، بل نحو الذات؛ فهناك فقط يجد الإنسان الطمأنينة ، ويكتشف أن أعظم انتصار ليس أن يصل إلى مكان بعيد ، بل أن يصل إلى نفسه ،

نورٌ لا تفرّقه الأسماء

كان المساء يهبط على القرية ببطء ، كأن الشمس تتردد في وداعها الأخير ، وكانت نوافذ البيت العتيق تتوهج بضوء ذهبي خافت ، بينما وقفت أشجار التوت في الحديقة صامتة ، كأنها تشهد لحظة لن تتكرر ،

في إحدى الغرف ، كان رجلٌ عجوز يرقد على فراش المرض ، لم يكن الناس يعرفونه بثروته الكبيرة فحسب ، بل عرفوه قبل ذلك بطيب قلبه ، وكرم يده ، وعدله بين الناس ، فما من محتاج طرق بابه إلا خرج منه مبتسماً ، ولا مريض قصد مجلسه إلا وجد كلمة تواسيه قبل أن يجد ما يعينه ،

كان العجوز يؤمن بأن المال يفنى ، أما الأخلاق فتبقى ، وأن الثروة التي لا تصنع خيراً تتحول إلى عبء على أصحابها ،

نظر إلى أبنائه الثلاثة الذين جلسوا حوله في صمت ، كانوا مختلفين في الطباع ، لكنهم اجتمعوا على محبة أبيهم ،

قال لهم بصوت هادئ : يا أبنائي ، ، ، لقد اقترب موعد رحيلي ، ولا أريد أن أترك لكم مالاً قبل أن أعرف من منكم يدرك معنى المسؤولية ، فالمال لا يحتاج إلى يدٍ قوية ، بل إلى عقل حكيم وقلب رحيم ،

أخرج من تحت وسادته ثلاثة دنانير ، وأعطى كل واحد منهم ديناراً واحداً ،

ثم قال : اذهبوا إلى السوق ، وليشترِ كل واحد منكم شيئاً يستطيع به أن يملأ هذه الغرفة كلها ،

تعجب الأبناء من الطلب ، لكنهم لم يسألوا ، وانطلق كل واحد يفكر بطريقته ،

X

خرج الابن الأكبر مسرعاً ، وهو يردد في نفسه :

الأمر بسيط ، ، ، المطلوب أن تمتلئ الغرفة بأي شيء ،

وبعد ساعات عاد يحمل وسادة كبيرة من القطن ،

وقف أمام أبيه بثقة ، ثم شق الوسادة ، وأخذ ينثر القطن في الهواء ، وينفخ فيه حتى انتشر في كل أرجاء الغرفة ،

بدت الغرفة للحظات وكأنها غيمة بيضاء ،

ابتسم الابن معتقداً أنه نجح ،

لكن ما هي إلا دقائق حتى بدأ القطن يتساقط ببطء ، ثم استقر على الأرض ، وعادت الغرفة كما كانت ،

تنهد الأب وقال في نفسه :

الفكرة التي لا تقوم على أساس متين لا تبقى طويلاً ،

X

ثم تقدم الابن الثاني ،

قال بثقة : أنا فكرت بطريقة أفضل ،

وأخرج وسادة مليئة بريش الطيور ، مزقها ، وترك الريش يتطاير في الهواء ، امتلأت الغرفة بالريش الخفيف ، وتحرك مع كل نسمة ،

لكن المشهد لم يختلف كثيراً ،

فبعد قليل بدأ الريش يتهاوى ، واستقر فوق الأثاث والأرض ،

نظر الأب إليه بحزن ، وقال : يا بني ، ، ، ليس كل ما يملأ العين يملأ الحياة ،

أطرق الابن رأسه ، فقد أدرك أن كثرة الحركة ليست دليلاً على الحكمة ،

X

وبقي الابن الأصغر ،

كان هادئاً ، لا يحمل كيساً كبيراً ، ولا تبدو عليه علامات القلق ،

ابتسم لأبيه وقال : يا والدي ، ، ، قبل أن أشتري شيئاً ، فكرت في معنى سؤالك ،

رفع الأب رأسه باهتمام ،

قال الابن : احتفظت بنصف الدينار ، لأن الإنسان لا يعلم ما تخبئه الأيام ، ومن الحكمة أن يدخر شيئاً لوقت الحاجة ،

ثم تابع : وأعطيت جزءاً من المال لأسرة فقيرة لم تجد خبزاً ليومها ،

وأضاف : وساعدت مريضاً لم يكن يملك ثمن دوائه ،

ثم قال : وقدمت جزءاً آخر لمن يسهرون على حماية الناس ، لأن الأمن نعمة لا يشعر بها إلا من فقدها ،

وأخرج من جيبه شمعة صغيرة ،

قال : أما ما بقي ، فقد اشتريت به هذه الشمعة ،

أشعلها ،

وفي لحظة واحدة ، انسكب نورها في كل زاوية من زوايا الغرفة ،

لم يحتج الضوء إلى أن يُدفع ، ولم يسقط على الأرض كما سقط القطن والريش ، بل بقي يبدد الظلام ، ويمنح المكان دفئاً وسكينة ،

ساد الصمت ،

اغرورقت عينا الأب بالدموع ،

وقال بصوت امتزجت فيه الحكمة بالحب : الآن ، ، ، اطمأن قلبي ،

وأضاف : لقد ملأت الغرفة بما هو أعظم من الضوء ، ، ، ملأتها بالرحمة ، والحكمة ، والإحسان ،

ثم أمسك بيد ابنه وقال : الثروة ليست فيما نملك ، بل فيما نصنع بها ،

X

رحل الأب بعد أيام ، لكن وصيته بقيت حية في قلوب أبنائه ،

ومع مرور السنوات ، أصبح الابن الأصغر معروفاً بين الناس ،

لم يكن أغنى أهل البلدة ، لكنه كان أكثرهم احتراماً ،

كان يفتح أبوابه للفقراء ، ويزور المرضى ، ويصلح بين المتخاصمين ، ويقول دائماً : الإنسان لا يكبر بما يجمع ، بل بما يمنح ،

X

وذات مساء ، اجتمع أحفاده حوله كما كانوا يجتمعون قديماً حول جدهم الكبير ،

سأله أحد الأطفال : يا جدي ، ، ، لماذا اختار جدنا شمعة ولم يختر شيئاً أكبر ؟

ابتسم الشيخ وقال : لأن النور لا يقاس بحجمه ، بل بأثره ،

ثم أضاف : قد تشعل شمعة واحدة ألف شمعة أخرى ، دون أن ينقص نورها ،

صمت قليلاً ، ثم أخذ يرسم بعصاه خطوطاً على التراب ،

قال : انظروا إلى هذه الأغصان ،

جمع ثلاثة أغصان منفصلة ،

كسر الأول بسهولة ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، بعدها ربطها معاً بحبل صغير ، وحاول كسرها ، فلم يستطع ،

ابتسم الأطفال ،

فقال : هكذا يكون الناس ،

إذا تفرقوا ، ضعفوا ، وإذا اجتمعوا ، صاروا أقوى من الريح ،

X

وفي أحد الأيام ، اختلف ثلاثة شبان من أبناء القرية ،
كان كل واحد منهم يعتز باسمه وانتمائه أكثر من اعتزازه بجيرانه
،

تحول الحوار إلى خصومة ، وكادت الكلمات تصبح جروحاً ،
استدعاهم الشيخ ، ووضع أمامهم مرآة كبيرة ،
قال : ماذا ترون ؟
قال الأول : أرى نفسي ،
وقال الثاني : وأنا أيضاً ،
وقال الثالث : وأنا ،

ابتسم الشيخ ، ثم غطى المرآة بقطعة قماش ، وأشعل شمعة ، فأضاء نورها وجوههم جميعاً في الوقت نفسه ،

وقال :
المرآة تُظهر كل واحد وحده ، أما النور فيجمع الجميع ،
ثم أردف :

الأسماء قد تختلف ، واللهجات قد تتنوع ، والعادات قد تتغير ، لكن الأخلاق الصادقة تجمع القلوب كما يجمع الضوء أركان الغرفة ،

X

كانت القرية تمر بسنوات صعبة ، ازدادت التحديات ، وضاقت الأحوال ،

لكن أهلها تعلموا أن مواجهة الشدائد لا تكون بالخصومات ، بل بالتعاون ، فأسسوا صندوقاً لمساعدة المحتاجين ، وتناوبوا على خدمة المرضى ، وأعادوا ترميم المدرسة بأيديهم ، وزرعوا الأشجار في الطرقات ،

وكان الأطفال يرون الكبار يعملون معاً ، فيتعلمون أن الوطن لا يبنى بالشعارات وحدها ، بل بالأفعال ،

كان الشيخ يردد دائماً : لا تسمحوا للخلاف أن يسرق منكم ما جمعته المحبة ،

ويقول : إن البيت الذي يتخاصم أهله يسهل هدمه ، أما البيت الذي يجتمع على الخير فيصعب كسره ،

وكان يضرب لهم أمثلة من حياتهم اليومية ،

فيقول : هل تستطيع عجلة العربة أن تسير بإطار واحد ؟

فيجيب الأطفال : لا ،

فيقول : وكذلك المجتمع ،

ويقول : هل يستطيع الفلاح أن يحصد دون أن يزرع ؟

فيقولون : لا ،

فيبتسم: وكذلك من يريد مستقبلاً مشرقاً دون أن يزرع المحبة والاحترام ،

X

مرت الأعوام ، وكبر الأطفال ،

صار منهم الطبيب ، والمعلم ، والمهندس ، والمزارع ، والجندي ، والحرفي ،

وكانوا كلما اختلفوا في رأي ، تذكروا الشمعة ، لم تكن مجرد شمعة ، كانت رمزاً للفكرة التي تنير العقول ، وللخير الذي ينتشر دون ضجيج ، وللإنسان الذي يترك أثراً طيباً بعد رحيله ،

لقد أدركوا أن القوة ليست في كثرة المال ، ولا في ارتفاع الأصوات ، بل في صدق النية ، وحسن العمل ، ووحدة القلوب ،

X

وفي مساء يشبه ذلك المساء البعيد ، وقف حفيد الشيخ في البيت نفسه ، يحمل شمعة صغيرة ،

أشعلها ، فامتلأت الغرفة بالنور ،

ثم قال لأطفاله : هذه ليست شمعة جدي فقط ، ، ، إنها رسالة ،

سأله أحدهم : وما رسالتها ؟

ابتسم وقال : أن الإنسان يستطيع أن يبدد ظلاماً كبيراً بفعل خير صغير ،

وأضاف : وأن المجتمع الذي يتقاسم الرحمة ، ويحفظ كرامة الإنسان ، ويصون وحدته ، لا تفرقه الأسماء ولا تضعفه الخلافات ،

رفع الأطفال أبصارهم إلى الضوء المتوهج ،

وفي تلك اللحظة ، أدركوا أن أعظم ميراث يتركه الآباء ليس الذهب ولا العقارات ، بل القيم التي تضيء الطريق جيلاً بعد جيل ،

وهكذا بقي نور الشمعة مشتعلاً في القلوب ، يذكر الجميع بأن الحكمة أبقى من المال ، وأن العطاء أعظم من الامتلاك ، وأن الإنسان حين يجعل الخير طريقه ، يصبح هو نفسه نوراً يهتدي به الآخرون ،

امرأةٌ ربَّت ثعبانًا
حين يصبح الدفء طريقًا إلى الفناء

في شتاءٍ قارسٍ من شتاءات قريةٍ صغيرةٍ تستلقي على أطراف غابةٍ كثيفة ، حيث كانت الرياح تعصف بين الأشجار العتيقة كأنها أنينُ أرواحٍ نسيتها الحياة ، عاشت امرأة تُدعى **سلمى** في بيتٍ خشبيٍّ متواضع ، يطل على جدول ماءٍ صافٍ ، وتحيط به أشجار الزيتون والسرو ،

كانت سلمى في منتصف الثلاثين من عمرها ، هادئة القسمات ، واسعة العينين ، يكسو وجهها صفاءٌ يشبه ضوء الفجر بعد ليلةٍ ممطرة ، عاشت وحدها منذ وفاة زوجها ، فلم يبق لها من الدنيا سوى قلبٍ اعتاد أن يمنح الرحمة لكل كائنٍ يطرق بابه ، حتى غدت ترى في الإحسان رسالةً لا تستحق المقابل ،

كانت تؤمن أن الخير قادرٌ على ترويض أكثر القلوب قسوة ، وأن الحنان يبدّل الطباع مهما بلغت وحشيتها ، ولم تكن تدري أن للحياة وجهاً آخر ، لا تعالجه الرحمة وحدها ،

في صباحٍ شاحب ، خرجت تجمع الحطب قبل أن يشتد البرد ، وبين الأعشاب اليابسة ، لمحت جسداً صغيراً ملتفاً على نفسه ، يكاد الجليد يبتلع أنفاسه الأخيرة ،

اقتربت بحذر ،

كان ثعبانًا صغيرًا ، هزيلاً ، ترتجف حراشفه من قسوة الصقيع ، وعيناه اللامعتان تخفيان خوفًا غريزيًا أكثر مما تحملان عدوانًا ،

وقفت لحظةً تخاطب نفسها : أأتركه للموت لأنه ثعبان ؟ أم أن الرحمة لا تميّز بين مخلوقٍ وآخر ؟ إذا كان الله قد بث فيه الروح ، فمن أنا حتى أقرر نهايتها ؟

تغلّب قلبها على حذرها ،

لفّته بوشاحها الصوفي ، وحملته إلى بيتها ، وأشعلت المدفأة ، ووضعته في صندوقٍ صغيرٍ قرب النار حتى عاد الدفء يسري في جسده شيئًا فشيئًا ،

في الأيام التالية راحت تطعمه قطعًا صغيرةً من الطعام ، وتراقبه بصبرٍ وأمومةٍ غريبة ، حتى استعاد قوته شيئًا فشيئًا ،

ومنذ ذلك اليوم ، لم يغادر الثعبان منزلها ،

X

مرّت الأسابيع ، ثم الشهور ، ثم الأعوام ، كبر الثعبان ، وكبر معه تعلّق المرأة به ،

كانت تراه يزحف خلفها كلما انتقلت من غرفةٍ إلى أخرى ، فيقف عند قدميها إذا جلست ، ويستلقي قرب المدفأة حين تعمل ، فإذا أقبل الليل ، صعد إلى فراشها والتف حول ساقيها أو بمحاذاة جسدها ، باحثًا عن الدفء ،

وكانت تبتسم كلما رأته ،

تقول في سرها : حتى هذا الكائن الذي يخشاه الناس عرف معنى الألفة ، ما أوسع قدرة الرحمة على تغيير النفوس !

وأحيانًا كانت تحدثه كأنه طفل : لو رآك أهل القرية الآن ، لما صدقوا أنك صرت أليفًا ،

فيقابل صوتها بصمتٍ طويل ، وعينين ساكنتين لا يمكن قراءة ما يختبئ خلفهما ،

لكنها لم تكن تسأل نفسها يومًا : هل يعني الاعتياد أن الطبيعة قد تبدلت؟

X

أما أهل القرية ، فكانوا ينظرون إليها بعين القلق ،

قالت لها عجوزٌ ذات مساء : يا ابنتي ، ، ، الثعبان لا ينسى طبيعته ،

ابتسمت سلمى بثقةٍ هادئة ،

ليس كل ما يُقال صحيحًا ، لقد عاش معي سنوات ، ولم يؤذني قط ،

هزّت العجوز رأسها بأسى ،

هناك طباعٌ لا تمحوها الأيام ،

لكن سلمى كانت ترى في كلماتهم خوفًا موروثًا ، لا حقيقة ،

كانت تؤمن بما تراه بعينيها ، لا بما يردده الناس ،

X

ومضت السنوات ،

صار الثعبان ضخمًا ، طويل الجسد ، قوي العضلات ، تلمع حراشفه السوداء تحت ضوء المصباح كأنها معدنٌ مصقول ،

ورغم هيبته ، لم يتغير سلوكه الظاهر ، كان ما يزال يلتف حولها عند النوم ، ويلازمها في أنحاء البيت ،

حتى جاء اليوم الذي تبدل فيه كل شيء ، فجأةً ، امتنع عن الطعام ،

قدّمت له فريسته المعتادة ،

لم يقترب ، غيّرت الطعام ، رفض ، مرّ أسبوع ، ثم أسبوعان ، ثم ثلاثة ، كانت تزداد قلقًا ،

راحت تجلس أمامه ساعات ،

ما بك ؟ أأنت مريض ؟ هل يؤلمك شيء ؟

كان يحدق فيها بصمت ، ثم يرفع رأسه ببطء ، قبل أن يعود فيستلقي بجوارها كعادته ،

لكن شيئًا آخر تغيّر ، صار كل ليلة يمد جسده بمحاذاة جسدها كاملًا ، من رأسها حتى قدميها ، ثم يلتف حولها ببطء ، ويظل ساكنًا حتى الفجر ،

شعرت بغرابة الأمر ، إلا أنها فسّرته على أنه بحثٌ عن الدفء أو شعورٌ بالأمان ،

أما قلبها ، فكان يحاول أن يطمئن نفسه قبل أن يطمئنها ، لا تخافي ، ، ، إنه رفيق سنوات ، ، ، لو أراد أذاك لفعل منذ زمن ،

غير أن صوتًا خافتًا كان يجيبها من أعماقها : وهل تعرفين حقًا ما يدور في غريزةٍ لم تُخلق لتشبهك ؟

X

وفي صباحٍ غائم ، حملت همّها وذهبت إلى الطبيب البيطري في البلدة المجاورة ،

استقبلها الطبيب ، وهو رجلٌ تجاوز الستين ، تبدو على وجهه ملامح الخبرة الطويلة ،

استمع إليها بصمت ،

ثم سألها فجأة : هل ينام بجانبك كل ليلة ؟

أجابت : نعم ،

سأل ثانية : هل يمد جسده بمحاذاة جسمك كاملًا ؟

بدأ القلق يتسلل إلى قلبها ،

نعم ، ، ، يفعل ذلك دائمًا ،

تغيّرت ملامح الطبيب ،

ثم قال بهدوءٍ أثقل من الصراخ : وهل يلتف حولك ؟

تجمدت الكلمات في حلقها ،

نعم ، ، ،

ساد صمتٌ طويل ،

ثم تنهد الطبيب وقال : ثعبانك ليس مريضًا ،

ابتسمت في ارتياح ، لكن ابتسامتها ذبلت قبل أن تكتمل ،

أردف الطبيب : إنه يمتنع عن الطعام عمدًا ،

اتسعت عيناها ،

لماذا ؟

نظر إليها نظرةً امتزج فيها الأسف بالحقيقة ،

لأنه يستعد لابتلاع فريسةٍ كبيرة ،

ارتعش صوتها ،

أي فريسة ؟

قال بصوتٍ خافت : أنتِ ،

شعرت وكأن الأرض انسحبت من تحت قدميها ،

تابع الطبيب :

الثعابين الكبيرة قد تصوم أيامًا أو أسابيع قبل ابتلاع فريسة ضخمة ، أما استلقاؤه بمحاذاة جسدك ، فليس حبًا كما ظننتِ ، بل هو يقيس طولك ، ويتأكد كل ليلة من أن حجمه أصبح كافيًا لابتلاعك كاملة ،

ساد الصمت ،

لم تسمع بعد ذلك سوى دقات قلبها ،

كل الذكريات مرّت أمامها دفعةً واحدة ، الوشاح الذي لفّته به ، النار التي دفأته ، الطعام الذي قدّمته ، الليالي التي نام فيها بجوارها ، الكلمات التي همست بها له ، والثقة التي منحتها إياه ،

كل ذلك لم يكن قادرًا على تغيير ما أودعته الطبيعة في أعماقه ،

X

خرجت من العيادة بخطواتٍ ثقيلة ،

كان المطر قد بدأ يهطل ، بدت الأشجار أكثر وحشةً من ذي قبل ، وكأن الغابة نفسها كانت تعرف الحقيقة منذ البداية ،

وفي طريق العودة ، لم يكن يؤلمها احتمال الموت بقدر ما كانت تؤلمها الخديعة ،

قالت في نفسها : كم أخطأت حين ظننت أن الإحسان يمحو الفطرة ! لم يكن يخدعني ، ، ، بل كنت أنا أخدع نفسي ، كنت أرى فيه الصورة التي تمنيتها ، لا الحقيقة التي كان عليها ،

وأضافت وهي تنظر إلى السماء الرمادية : ليست كل الألفة محبة ، وليست كل الصحبة أمانًا ، هناك قربٌ تصنعه الحاجة ، لا الوفاء ،

X

حين بلغت بيتها ، كان الثعبان ينتظر عند الباب ، رفع رأسه نحوها ، بقي ساكنًا ، أما هي ، فحدقت فيه طويلًا ، رأت فيه الكائن نفسه الذي أنقذته يومًا ، ورأت فيه ، في الوقت نفسه ، الغريزة التي لم تمت ، ولم تتغير ، ولم تنسَ حقيقتها لحظةً واحدة ،

في تلك الليلة ، لم تنم في البيت ،

غادرته قبل حلول الظلام ، ثم استعانت بأهل القرية والجهات المختصة لنقل الثعبان إلى بيئةٍ بريةٍ مناسبة ، بعيدًا عن البشر ، حيث يعيش وفق طبيعته دون أن يكون خطرًا على من أحسن إليه ،

وقفت عند باب المنزل ، تتأمل المكان الذي جمعهما سنواتٍ طويلة ،

لم تبكِ ، لكن شيئًا في داخلها مات بصمت ، لقد أدركت أن الرحمة فضيلة ، لكنها تحتاج إلى بصيرة ، وأن القلب إذا سار وحده ، دون حكمة ، قد يقوده إلى الهاوية ،

X

ومرت الأيام ،

صارت سلمى أكثر نضجًا ، لم تتخلَّ عن طيبتها ، لكنها تعلمت أن الرحمة لا تعني تعطيل العقل ، وأن الثقة لا تُمنح لمجرد الاعتياد ، وأن بعض الطبائع لا يغيّرها الزمن مهما طال ،

كانت كلما سألها أحد عن تلك الحادثة ، تبتسم ابتسامةً حزينة وتقول : أخطأت حين ظننت أن المحبة وحدها قادرة على إعادة كتابة الفطرة ، فليست كل المخلوقات تخون ، ولكن لكل مخلوقٍ طبيعةٌ لا يجوز أن نتجاهلها ،

وهكذا بقيت قصتها تتناقلها الألسن ، لا باعتبارها حكايةً عن امرأةٍ وثعبان ، بل بوصفها مرآةً للعلاقات الإنسانية ؛ ففي الحياة من يتقن ارتداء قناع الألفة ، بينما يخفي وراءه مصلحةً أو غدرًا أو طبعًا لا يتبدل ،

إن الإنسان الحكيم لا يكره الرحمة ، ولا يندم على الإحسان ، لكنه يعرف أن الحكمة حارسة الرحمة ، وأن الثقة ينبغي أن تُبنى على المعرفة ، لا على التمني ،

فليس كل من اقترب منك صار منك ، وليس كل من اعتاد دفءَ قلبك استحق أن تسكنه ، لأن بعض الطباع ، مهما غمرتها المحبة ، تظل تعود إلى أصلها ، ويظل الطبع ، في كثيرٍ من الأحوال ، أغلب من التطبّع ،

حين صار الرصيف أبًا

حكاية أحمد واليد التي كانت تستحق كتابًا لا صدقة

كان ذلك في شتاءٍ ثقيل من شتاءات مدينةٍ عربيةٍ مزدحمة ، في مطلع شهر يناير ، حين كانت السماء تكتسي بلون الرماد ، وتغسل الأرصفة بمطرٍ باردٍ لا يوقظ إلا مزيدًا من الوحدة ، بين الأزقة الضيقة ، حيث البيوت المتواضعة تتكئ على بعضها كأنها تخشى السقوط ، عاش أحمد ، طفلًا لم يتجاوز العاشرة من عمره ، بعينين واسعتين تشعّان ببراءة لم تلوثها الأيام بعد ، وبابتسامة صغيرة كانت تكفي لتبدد تعب أبيه بعد يومٍ طويل من العمل ،

كان أبوه عاملًا بسيطًا ، يخرج مع الفجر ويعود مع الغروب ، يحمل على كتفيه هموم الحياة ، وفي قلبه حلمًا واحدًا: أن يرى ابنه يكبر بين دفاتر المدرسة لا بين غبار الشوارع ، أما أمه فكانت امرأةً هادئة ، تنسج بالصبر ما تعجز النقود عن شرائه ، وتخفي دموعها خلف ابتسامة دافئة كي يبقى البيت عامرًا بالأمل ،

في مساءٍ بارد ، تبدل كل شيء ،

خرج الأب كعادته ، ولم يعد ،

جاء الخبر كالصاعقة ؛ حادثٌ مفاجئ اختطفه من الحياة ، تاركًا خلفه بيتًا صغيرًا ، وزوجةً مكلومة ، وطفلًا لم يكن يعرف أن الموت يستطيع أن يسرق المستقبل دفعةً واحدة ،

وقف أحمد يوم الجنازة صامتًا ، يراقب الرجال يحملون النعش ، غير مصدق أن اليد التي كانت تمسك بيده في الطريق إلى المدرسة قد اختفت إلى الأبد ، كان يريد أن يسأل أباه سؤالًا واحدًا:

من سيوقظني غدًا للمدرسة ؟

لكن الصمت كان أثقل من كل الكلمات ،

X

بدأت الأيام تتشابه كأنها صفحات باهتة لا تحمل سوى مزيدٍ من الفقد ، انتهى ما كان يدخره الأب من مال في أسابيع قليلة ، وأصبحت الأم عاجزة عن توفير أبسط احتياجات المنزل ، كانت تنظر إلى ابنها كل مساء بعينين ينهشهما القلق ، وتحاول أن تخفي جوعها كي يأكل هو آخر قطعة خبز ،

لكن الجوع لا يعرف الرحمة ،

وفي صباحٍ شاحب ، وضعت الأم يدها على كتف أحمد وقالت بصوتٍ مكسور : يا بني ، ، ، لن نستطيع دفع مصروف المدرسة هذا العام ،

لم يفهم أحمد معنى الجملة في البداية ،

ذهب إلى غرفته ، احتضن حقيبته المدرسية ، وراح يمرر أصابعه فوق دفاتره ، كأنها أصدقاء يودعهم دون موعد للقاء ،

قال في سره : هل يمكن للكتب أن تشتاق إلى أصحابها ؟ وهل ستسأل المقاعد عن الطفل الذي كان يجلس هنا ؟

في اليوم التالي ، شاهد زملاءه يسيرون نحو المدرسة ، بينما كان هو يسير في الاتجاه المعاكس ،

كانت تلك أول مرة يشعر فيها أن العالم يبتعد عنه ،

X

لم يطل الأمر حتى أصبحت الحاجة أقوى من الكبرياء ،

اقترح أحد الجيران على الأم أن يخرج أحمد إلى الشارع ليطلب المال من المارة ،

رفضت بشدة ، كانت تعرف أن مد اليد ليس مجرد وسيلة لكسب لقمة العيش ، بل بداية طريقٍ قد لا يعود منه الطفل كما خرج ،

لكن الجوع ظل يطرق الباب كل ليلة ،

وحين يبكي طفل من شدة الجوع ، تصبح المبادئ أحيانًا عاجزة أمام قسوة الواقع ،

خرج أحمد ، كانت خطواته الأولى على الرصيف مرتجفة ، كأن الأرض ترفض استقباله ، وقف عند إشارة المرور ، ينظر إلى السيارات الفاخرة وهي تمر أمامه ، ثم رفع يده الصغيرة بخجل ،

لم يكن يعرف ماذا يقول ، كان يشعر أن الكلمات تخونه ،

اقترب من رجلٍ أنيق ، لكنه أبعده بإشارة ضجر ، واقترب من امرأةٍ تحمل أكياس التسوق ، فابتعدت عنه خوفًا ، أما بعضهم ، فلم يره أصلًا ،

كأن الفقر يجعل الإنسان غير مرئي ،

X

مع مرور الأيام ، صار الرصيف يعرف أحمد أكثر مما تعرفه المدرسة ،

حفظ وجوه الباعة ، وروائح المطاعم ، وصوت إشارات المرور ، وأوقات ازدحام الناس ، لكنه نسي شيئًا فشيئًا جدول الضرب ، وقواعد الإملاء ، وأسماء العواصم ،

كان التعليم ينسحب من ذاكرته ببطء ، كما تنسحب المياه من نهرٍ جف ،

وفي كل مساء ، كان يحمل ما جمعه من نقود قليلة إلى أمه ،

فتبتسم وهي تبكي ، وكان يبكي وهو يبتسم ،

X

لكن الشارع لم يكن مجرد مكانٍ للفقر ، كان عالمًا آخر ، عالمًا لا يحمي فيه أحدٌ أحدًا ،

في الليلة الأولى التي اضطر فيها للبقاء خارج المنزل حتى ساعة متأخرة ، اكتشف أن البرد ليس مجرد انخفاض في درجة الحرارة ، بل مخلوقٌ يلتهم العظام ،

جلس على الرصيف يضم ركبتيه إلى صدره ،

قال في نفسه : لماذا يبدو الليل طويلًا هكذا ؟ لماذا يصبح الشارع مخيفًا عندما تغيب الشمس ؟ أين يذهب الأطفال في هذا الوقت ؟ ولماذا بقيت أنا هنا ؟

كان يسمع وقع الأقدام ، وصفير الريح ، ونباح الكلاب ، فيشعر أن العالم كله أكبر منه بكثير ،

X

ثم ظهر أولئك الذين يتغذون على ضعف الأطفال ، رجالٌ لا يعرفون الرحمة ، يجوبون الشوارع بحثًا عن الصغار الذين أنهكتهم الحاجة ،

اقترب أحدهم من أحمد بابتسامة مصطنعة ،

قال : إذا عملت معنا ، ستجمع مالًا أكثر ،

لم يكن أحمد يدرك أنه يقف على حافة هاوية ،

أخذوه إلى مجموعة من الأطفال ، قسموا بينهم الشوارع ، حددوا لكل واحدٍ مكانه ،

وفي نهاية اليوم ، كان عليهم أن يسلموا كل ما جمعوه ، ومن يخالف ، ، ، يعرف العقاب ،

هناك ، لم يعد الطفل يملك حتى النقود التي جمعها بدموعه ،

كان مجرد وسيلة ، رقمًا صغيرًا في حسابات الكبار ،

كلما عاد المبلغ قليلًا ، انهالت عليه الشتائم والتهديدات ،

وكان قلبه الصغير ينكمش أكثر فأكثر ،

X

في داخله ، كانت معركة صامتة تدور كل يوم ،

كان يحدث نفسه : أأنا سيئ لأنني أمد يدي ؟ أم أن الجوع هو الذي يدفعها ؟ لو كان أبي حيًا ، هل كنت سأقف هنا ؟ لماذا ينظر إلي الناس كأنني اخترت هذا الطريق ؟ هل يعرفون أنني كنت أحلم أن أصبح طبيبًا ؟ هل يمكن للحلم أن يموت قبل صاحبه ؟

ثم يصمت ، ويخفض رأسه ، ويواصل الوقوف ،

X

بدأ الخوف يسكنه حتى في نومه ،

كان يستيقظ مذعورًا من كوابيس يرى فيها أباه يناديه من بعيد ، بينما يقف هو خلف سورٍ مرتفع لا يستطيع تجاوزه ،

صار يخشى الرجال ، ويخشى الليل ، ويخشى الأصوات المرتفعة ، بل صار يخشى المستقبل نفسه ،

شعر بالدونية كلما رأى أطفالًا يرتدون زي المدرسة ، كان يخفي وجهه عنهم ، ليس خجلًا منهم ، بل خجلًا من الحياة ،

X

وفي أحد الأيام ، بينما كان يقف عند أحد التقاطعات ، لمح طفلًا يحمل حقيبة مدرسية زرقاء تشبه حقيبته القديمة ،

تجمد في مكانه ، تذكر رائحة الكتب الجديدة ، وصوت الجرس ، وضجيج الفصل ، وضوء الشمس الذي كان يدخل من نافذة المدرسة ،

همس لنفسه : كم كنت غنيًا ، ، ، ولم أكن أعلم ،

X

مرت السنوات بطيئة ، لكنها تركت آثارها سريعًا على ملامحه ، اختفت البراءة تدريجيًا من عينيه ، وحل محلها حذرٌ دائم ، كأن العالم علمه ألا يثق بأحد ،

لم يكن الفقر وحده من سرق طفولته ، بل الإهمال ، والصمت ،

وغضّ الطرف عن مأساة تتكرر كل يوم ، لم يكن أحمد حالةً استثنائية ،

بل كان وجهًا من وجوه آلاف الأطفال الذين دفعتهم الظروف القاسية إلى الشوارع ، حيث تتحول البراءة إلى سلعة ، ويصبح الطفل مشروع ربحٍ في أيدي المستغلين ،

إن أخطر ما في التسول ليس اليد الممدودة ، بل اليد التي تدفع الطفل إلى أن يمدها ،

فخلف كل طفلٍ يقف عند إشارة مرور ، قصة ربما بدأت بموت أب ، أو مرض أم ، أو فقرٍ مدقع ، أو أسرةٍ انهارت تحت ثقل الحياة ،

X

وفي صباحٍ مختلف ، مرّت بالقرب من أحمد سيارة تابعة لإحدى الجهات المعنية بحماية الأطفال ، لاحظ أحد الأخصائيين الاجتماعيين ارتباكه ، ونظرات الخوف التي تسكن عينيه ، وآثار الإرهاق التي لا تليق بطفل في مثل عمره ،

اقترب منه بهدوء ، لم يقدم له نقودًا ، بل قدم له سؤالًا :

ما اسمك يا بُني ؟

ارتبك أحمد ،

لم يسأله أحد عن اسمه منذ زمن ،

قال بصوتٍ خافت : أحمد ،

ابتسم الرجل ، ثم جلس إلى جواره ، استمع إليه طويلًا ،

لأول مرة ، شعر أحمد أن أحدًا يسمع قصته ، لا لأنه يشفق عليه ، بل لأنه يريد أن ينقذه ،

بدأت رحلة جديدة ، أُبعد عن أيدي المستغلين ، وتولت الجهات المختصة التحقيق في الشبكة التي كانت تستغل الأطفال ، تطبيقًا للقوانين التي تجرّم الاتجار بالبشر واستغلال القُصّر ، وأُلحقت أسرته ببرامج دعمٍ اجتماعي ، وعادت أمه تتلقى المساندة التي تمكنها من إعالة بيتها بكرامة ،

أما أحمد ، فعاد إلى مقاعد الدراسة متأخرًا ، لكنه عاد بقلبٍ أكثر نضجًا ،

كانت الحروف تبدو غريبة في البداية ، غير أنه كان يقرأها بشغف من وجد طريقه بعد ضياع ،

X

وفي إحدى الحصص ، طلب المعلم من التلاميذ أن يكتبوا موضوعًا بعنوان: ماذا أريد أن أصبح ؟

أمسك أحمد قلمه طويلًا ،

ثم كتب : أريد أن أصبح إنسانًا يستطيع أن يمسك يد طفلٍ قبل أن تصل إلى الشارع ،

قرأ المعلم الجملة ، فسكت ، وسكت الفصل كله ، لأن بعض الجمل لا تحتاج إلى شرح ،

X

لم تكن نهاية قصة أحمد نهايةً لمعاناة الأطفال الذين يعيشون المصير نفسه ، لكنها كانت بداية أمل ، فقد أدرك المجتمع المحيط به أن حماية الطفولة ليست عملًا خيريًا عابرًا ، بل مسؤولية إنسانية وقانونية وأخلاقية مشتركة؛ تبدأ بدعم الأسرة الفقيرة ، وتوفير التعليم المجاني والرعاية النفسية ، وتمتد إلى تطبيق القوانين بحزم على كل من يستغل الأطفال أو يتاجر ببراءتهم ،

فالطفل الذي يقف اليوم على الرصيف ، كان بالأمس يجلس على مقعدٍ دراسي ، ويحمل حلمًا صغيرًا يشبه أحلام جميع الأطفال ، وما يزال في داخله ذلك الطفل الذي ينتظر من يمد إليه يدًا تعيده إلى الحياة ، لا إلى التسول ،

وهكذا بقي أحمد كلما مرّ بإشارة المرور ، ينظر إلى الأطفال الواقفين هناك بعينٍ مختلفة ، لم يعد يرى فيهم متسولين ، بل دفاتر لم تُفتح ، وأحلامًا لم تجد من يحرسها ، وطفولةً تستغيث بصمت ،

وكان يؤمن ، في أعماقه ، أن المجتمعات لا تُقاس بعدد أبراجها ولا اتساع طرقها ، بل بعدد الأطفال الذين ينامون آمنين ، ويستيقظون على صوت المدرسة ، لا على ضجيج السيارات وإشارات المرور ،

وهكذا انتهت حكاية أحمد ، لكنها تركت سؤالًا مفتوحًا في ضمير كل قارئ: كم طفلًا آخر ينتظر أن يجد من يعيده إلى مقعد الدراسة قبل أن يبتلعه الرصيف ؟

حين عاد الاسم إلى صاحبته

حكاية مستوحاة من واقعة حقيقية

المكان :القاهرة ، مصر ، بين الأزقة الشعبية المزدحمة ، وإحدى ضواحي المدينة ، ثم مقر الجهات المختصة ، وأخيرًا منزل طال انتظاره ،

الزمان :من صيف عام 2014 إلى ربيع أبريل/نيسان 2026 ،

كانت القاهرة في ذلك الصيف تبدو كمدينة لا تنام ؛ شوارعها تضج بالحياة ، وأسواقها تفيض بالأصوات ، ووجوه الناس تعبر مسرعة بين حلم صغير وهمٍّ كبير ، وبين آلاف الحكايات التي ابتلعتها المدينة ، كانت هناك حكاية صغيرة بدأت بدمعة أم ، ثم تحولت إلى اثني عشر عامًا من الانتظار ،

في صباح قائظ من عام 2014 ، خرجت الطفلة **ندى** برفقة أسرتها ، ولم يكن أحد يتخيل أن دقائق معدودة ستفصل بين حياة كاملة وأخرى مجهولة ، كانت في الرابعة من عمرها ، بعينين واسعتين تشبهان صباحًا ربيعيًا ، وجديلتين تتراقصان كلما ركضت خلف فراشة أو ضحكة ،

وفي لحظة خاطفة ، اختفت ، لم يكن الاختفاء مجرد غياب طفل عن نظر والديه ؛ بل كان انهيار عالم بأكمله ،

بدأت رحلة البحث ، وانتشرت الصور ، وطُرقت أبواب أقسام الشرطة ، وسُئل الغرباء ، وعُلقت الآمال على كل هاتف يرن ، لكن الأيام كانت تمضي بلا أثر ،

أما ندى ، فقد كانت قد دخلت عالمًا آخر ،

كانت المرأة التي خطفتها تعمل عاملة نظافة ، لم تكن تملك إلا قلبًا قاسيًا ، رأى في براءة طفلة وسيلة للكسب لا روحًا تستحق الرحمة ،

منذ اللحظة الأولى ، نزعت عنها اسمها كما تُنتزع الوردة من غصنها ،

قالت لها بلهجة حاسمة : من اليوم ، اسمك فاطمة ،

ترددت الطفلة بصوت مرتجف : لكن ، ، ، أنا ندى ،

صفعتها الكلمات قبل أن تصفعها اليد ،

انسَي هذا الاسم ،

وهكذا بدأ اغتيال الهوية ،

لم تكتفِ الخاطفة بسرقة طفلة ، بل سرقت تاريخها أيضًا ، زورت أوراقًا رسمية ، وادعت أن زوجها قد توفي ، لتبدو الطفلة يتيمة لا يسأل عنها أحد ، ثم نسجت حولها قصة مزيفة حتى أصبحت الأوراق تصرخ بالكذب بينما الحقيقة صامتة ،

كبرت ندى وهي تحمل اسمًا لا يشبهها ، وحياة لا تعرف أصلها ،

كانت تقف ساعات طويلة في الشوارع ، تمد يدًا صغيرة إلى المارة ، بينما عيناها تبحثان عن شيء لا تعرف اسمه ،

ربما كانت تبحث عن حضن ، وربما عن ذاكرة ،

X

مرت السنوات ثقيلة ،

كبر الجسد ، لكن الطفلة في داخلها بقيت معلقة عند لحظة الفقد ، وفي كثير من الليالي ، كانت تستيقظ مذعورة من حلم يتكرر ، ترى امرأة تحتضنها ، ورجلًا يضحك وهو يحملها ، ثم تستيقظ ،

تسأل نفسها في صمت : من هؤلاء ؟ ولماذا أشعر أنني أعرفهم أكثر مما أعرف نفسي ؟

كانت الخاطفة توبخها كلما سألت عن الماضي ،

لا تسألي كثيرًا ،

لكن القلب لا يكف عن السؤال ،

X

أما الأسرة الحقيقية ، فلم تتوقف عن الانتظار ،

مرت الأعياد ، كبر إخوتها ، تغيرت ملامح البيت ،

لكن صورة ندى بقيت معلقة على الجدار كما هي ، لا يغطيها الغبار ولا يطويها الزمن ،

كانت أمها كلما رأت طفلة في الطريق ، يسبقها قلبها قبل خطواتها ،

ربما تكون هي ، ربما ، ، ، ثم تعود بخيبة جديدة ،

أما الأب ، فكان يخفي دموعه خلف صمته ،

كان يقول لنفسه : إن كانت حية ، فلا بد أن الله سيقودها إلينا يومًا ، وإن كانت بعيدة ، فإن الدعاء يعرف الطريق أكثر منا ،

كان الإيمان وحده يمنع اليأس من الانتصار ،

X

وفي بيت الخاطفة ، كانت فتاة أخرى تكبر ، إنها ابنتها ، لم تكن تعلم أن الحقيقة تعيش معها تحت السقف نفسه ،

وفي إحدى أمسيات عام 2026 ، جلست تشاهد مسلسلًا دراميًا يتناول قضية اختطاف الأطفال ،

كل مشهد كان يوقظ سؤالًا قديمًا ، كل كلمة كانت تفتح نافذة في ذاكرتها ،

بدأت تربط بين ما رأته وما عاشته ، تذكرت همسات سمعتها وهي صغيرة ،

وتذكرت خوف أمها كلما سألت عن فاطمة ، وتذكرت أن أوراقها لم تكن تشبه قصتها ،

قالت في نفسها : ماذا لو كانت الحقيقة أسوأ مما أتخيل ؟ ماذا لو كانت هذه الفتاة ليست أختي أصلًا ؟ هل أصمت لأن الخاطئة أمي ؟ أم أتكلم لأن الضحية إنسانة ؟

كان الصراع يمزقها ، بين الوفاء للأم ، ، ، والوفاء للحق ،

طوال الليل لم تنم ، كانت تسمع صوت ضميرها يهمس : الرحمة لا تكون بحماية الجريمة ، بل بإنقاذ المظلوم ،

وحين أشرق الصباح ، اتخذت القرار الأصعب ، أبلغت الجهات المعنية ،

X

في البداية ، بدا الأمر مجرد شك ، لكن الشك كان بداية الحقيقة ،

وصلت المعلومات إلى صفحة متخصصة في البحث عن الأطفال المفقودين ،

قورنت الصور القديمة بصور الفتاة الحالية عبر تقنيات التعرف على الوجوه ، كانت الملامح قد تغيرت ، لكن العينين بقيتا كما هما ، والابتسامة أيضًا ،

أظهرت النتائج نسبة تطابق مرتفعة ، ومع ذلك ، بقي الدليل الحاسم ينتظر ، أُجري تحليل البصمة الوراثية ،

كانت الساعات ثقيلة ، كل دقيقة تحمل عمرًا كاملًا من الانتظار ،

وحين ظهرت النتيجة ، ، ، صمت الجميع ، ثم انهمرت الدموع ،

لقد عادت ندى ،

لم يكن الأمر احتمالًا ، بل حقيقة علمية لا تقبل الشك ،

X

دخلت ندى الغرفة بخطوات مترددة ،

كانت ترى رجلًا وامرأة ينظران إليها كما لو أنهما عثرا على الحياة بعد موت طويل ،

أما الأم ، فلم تستطع الوقوف ، ركضت نحوها ، احتضنتها ، وبكت ، لم تكن دموعها تشبه أي دموع ،

كانت اثني عشر عامًا تذوب في لحظة واحدة ،

أما ندى ، فشعرت أن قلبها يعرف هذا الحضن قبل عقلها ، همست بصوت يكاد لا يسمع : أمي ؟

لم تجبها الأم بالكلمات ، بل ضمتها بقوة أكبر ، و أغرقت وجهها بالقبلات الحانية ،

كأنها تخشى أن يسرقها الزمن مرة أخرى ،

وقف الأب بعيدًا ، يحاول أن يتمالك نفسه ، لكنه أخيرًا اقترب ، وضع يده على رأسها ،

و قال : الحمد لله ، ، ، لقد عدتِ ،

كانت جملة قصيرة ، لكنها حملت عمرًا كاملًا من الصبر ،

X

وفي الجهة الأخرى ، كانت الخاطفة تواجه الحقيقة التي حاولت الهرب منها سنوات طويلة ،

ألقت الأجهزة الأمنية القبض عليها ، وأحيلت إلى التحقيق والقضاء ، انكشفت الأوراق المزورة ، وسقطت الأكاذيب واحدًا تلو الآخر ، لم يعد هناك اسم مستعار يختبئ خلفه الظلم ، ولا شهادة مزيفة تستطيع إخفاء الحقيقة ،

فالحق قد يتأخر ، ، ، لكنه لا يضيع ،

X

بدأت ندى رحلة جديدة ، كانت أصعب من العودة نفسها ،

فالإنسان لا يستعيد سنواته الضائعة ، لكنه يستطيع أن يبني ما بقي من عمره ،

تعلمت من جديد معنى الأسرة ، تعرفت إلى إخوتها الحقيقيين ، جلست أمام صور طفولتها ، واكتشفت أن ملامحها القديمة لم تمت ، بل كانت تنتظرها ،

وفي بعض الليالي ، كانت تقف أمام المرآة ، وتنظر طويلًا إلى وجهها ،

ثم تقول في حديث داخلي عميق : من أنا ؟ هل أنا الطفلة التي سُرقت ؟ أم الفتاة التي نجت ؟ هل يمكن للإنسان أن يحمل اسمين وحياتين وقلبًا واحدًا ؟

ثم يجيبها صوت آخر من أعماقها : أنا ندى ، ، ، لم يسرقني الزمن ، بل أخفاني قليلًا ، وما دام اسمي عاد إليّ ، فسأتعلم كيف أعود إلى نفسي أيضًا ،

وأدركت أن الهوية ليست بطاقةً رسمية فحسب ، بل ذاكرة ، ومحبة ، وانتماء ، وجذور تمتد في القلب قبل الأرض ،

X

لم يكن شفاء الأسرة سريعًا ، فالسنوات لا تُمحى بسهولة ،

لكن الحب كان يعالج ما كسره الزمن ،

كل يوم جديد كان يعيد خيطًا من النسيج الذي تمزق ،

وكل ابتسامة كانت تعوض دمعة قديمة ،

أما ابنة الخاطفة ، فقد بقيت تحمل في قلبها وجعًا خاصًا ،

لقد خسرت أمها للقانون ، لكنها ربحت احترام ضميرها ، وأيقنت أن الحقيقة قد تؤلم ، لكنها وحدها تمنح الإنسان سلامه الداخلي ،

X

ليست كل النهايات السعيدة خالية من الألم ، فبعضها يولد من رحم المعاناة الطويلة ،

لقد عادت ندى إلى اسمها ، وإلى أسرتها ، وإلى وطنها الصغير الذي يبدأ من حضن أم وينتهي عند دعاء أب ،

أما السنوات التي سُرقت ، فلن تعود ، لكنها ستبقى شاهدًا على أن العدالة قد تتأخر ، غير أنها لا تنسى ، وأن الحقيقة قد تختبئ طويلًا ، لكنها لا تموت ،

العبرة:

قد ينجح الباطل في إخفاء الحقيقة سنوات ، لكنه يعجز عن دفنها إلى الأبد ، فالضمير الحي قد يكون مفتاح العدالة ، والعلم قادر على إعادة الحقوق إلى أصحابها ، والصبر حين يقترن بالإيمان يصنع معجزات تبدو مستحيلة ، إن حماية الأطفال مسؤولية المجتمع كله ، والرحمة الحقيقية ليست في التستر على الجريمة ، بل في نصرة المظلوم وإعادة الأمان إلى من سُلبت طفولته ،

الصياد والسلحفاة

حين تصبح الرحمة جسرًا بين الإنسان والزمن

كان البحر في ذلك الصباح هادئًا على غير عادته ، كأنه يخبئ سرًا في أعماقه ، كانت الأمواج تلامس الشاطئ برفق ، وترسم على الرمال خطوطًا تختفي ثم تعود من جديد ، وكأنها تكتب حكاية لا يقرأها إلا أصحاب القلوب الرحيمة ،

وقف الصياد الشاب **أوراشيما** يتأمل الأفق الواسع ، كان يحب البحر كما يحب الطفل حضن أمه ؛ يعرف أصوات أمواجه ، ويحفظ مواسمه ، ويؤمن أن البحر لا يمنح خيره إلا لمن يحترمه ، وكان والده يردد دائمًا : الرحمة التي تقدمها اليوم ، قد تعود إليك غدًا بطريقة لا تتوقعها ،

لم يكن أوراشيما يعلم أن هذه الكلمات ستغيّر حياته إلى الأبد ،

وبينما كان يسير على الشاطئ ، سمع ضحكات مرتفعة يختلط بها صوت ارتطام شيء بالرمال ، اقترب بخطوات سريعة ، فإذا بمجموعة من الأطفال يحيطون بسلحفاة بحرية ضخمة ، يدفعونها بالعصي ويرشقونها بالحجارة ، وهم يضحكون غير مدركين حجم الألم الذي تشعر به ،

توقف أوراشيما أمامهم وقال بهدوء : لماذا تؤذون مخلوقًا لم يؤذكم ؟

قال أحد الأطفال ساخرًا : إنها مجرد سلحفاة بطيئة ، ، ، نحن نلعب!

ابتسم أوراشيما ابتسامة حزينة ، وأخرج بعض العملات من جيبه ، ثم قال : خذوا هذه واشتروا بها ما تحبون ، واتركوا السلحفاة تعود إلى بيتها ،

نظر الأطفال إلى العملات ، ثم انصرفوا ، بينما انحنى أوراشيما برفق ، وحمل السلحفاة بكل عناية ، وساعدها حتى وصلت إلى الماء ، وما إن لامست الأمواج جسدها ، حتى التفتت إليه بنظرة بدت وكأنها تحمل امتنانًا لا تستطيع الكلمات وصفه ، ثم اختفت في أعماق البحر ،

عاد الصياد إلى منزله وهو يشعر براحة غريبة ، فقد كان يؤمن أن الخير لا يحتاج إلى جمهور ، وأن العمل الصالح الحقيقي هو ما يفعله الإنسان دون انتظار مقابل ،

X

في صباح اليوم التالي ، خرج أوراشيما للصيد كعادته ، كانت الشمس ترسل خيوطها الذهبية فوق صفحة البحر ، وفجأة سمع صوتًا يناديه باسمه ،

التفت حوله ، فلم يرَ أحدًا ، ثم جاءه الصوت مرة أخرى : أوراشيما ، ، ،

نظر إلى الماء ، فإذا بالسلحفاة نفسها تطل برأسها ، ولكنها هذه المرة كانت تتحدث بصوت هادئ مليء بالوقار ،

قالت : لقد أنقذت حياتي بالأمس ، وأنا رسول من مملكة البحر ، ملكة البحار ترغب في شكرك بنفسها ،

دهش الصياد ، لكنه شعر بطمأنينة غريبة ، اقترب من السلحفاة ، فقالت : تمسّك بصدفتي ، ولا تخف ،

ما إن فعل ذلك حتى بدأت السلحفاة تغوص به في أعماق البحر ، فإذا بالعالم الذي تحت الماء يفوق كل خيال ،

كانت الشعاب المرجانية تشبه حدائق ملونة ، والأسماك تسبح في أسراب لامعة كأنها نجوم تتحرك في السماء ، أما النباتات البحرية فكانت تتمايل مع التيار كأنها ترقص على أنغام موسيقى لا يسمعها إلا البحر ،

وفي قلب الأعماق ظهر قصر عظيم ، بني من المرجان الأبيض واللؤلؤ والأصداف ، تتلألأ جدرانه بألوان لم يرها أوراشيما من قبل ،

استقبلته ملكة البحار بابتسامة دافئة ، وقالت : الرحمة عملة نادرة في هذا العالم ، وأنت دفعت ثمنها من قلبك ، لذلك أردنا أن نكافئك ،

أقام الصياد في القصر ، وكانت الأيام تمضي في سعادة وهدوء ، تعلم من أهل البحر أن القوة ليست في السيطرة ، بل في الحكمة ، وأن الطبيعة تمنح أسرارها لمن يحترمها ،

لكن قلبه ظل متعلقًا بوالديه ، كان يتساءل كل ليلة : هل تناولا طعامهما ؟ هل هما بخير؟ هل ينتظران عودتي ؟

لاحظت الملكة حزنه ، فقالت : أعلم أن القلب لا يستطيع نسيان أهله ، لذلك سأسمح لك بالعودة ،

ثم قدمت إليه صندوقًا صغيرًا مزخرفًا بأصداف البحر ، وقالت بجدية : احتفظ بهذا الصندوق ، لكن تذكر ، ، ، مهما حدث ، لا تفتحه أبدًا ،

وعدها أوراشيما بذلك ، وشكرها ، ثم عاد مع السلحفاة إلى سطح البحر ،

لكن ما إن وصل إلى اليابسة حتى شعر أن شيئًا ليس على ما يرام ، كانت الأشجار أكبر ، والطريق مختلفًا ، والمنازل لا تشبه ما يعرفه ، حتى وجوه الناس كانت غريبة ،

أسرع نحو منزله ، فلم يجد إلا أرضًا خالية ، وكأن البيت لم يوجد يومًا ،

سأل أحد المارة : أين منزل عائلة أوراشيما ؟

نظر الرجل إليه باستغراب وقال : هذا الاسم موجود في كتب التاريخ ،

تسارعت دقات قلبه ،

ذهب إلى شيخ كبير في القرية ، فأخرج الشيخ سجلًا قديمًا ، وقلب صفحاته ، ثم قال : تقول الروايات إن صيادًا شابًا اسمه أوراشيما خرج إلى البحر ولم يعد أبدًا ، ، ، وكان ذلك منذ مئات السنين ،

شعر أوراشيما أن الأرض تميد تحت قدميه ،

قال بصوت مرتجف : لكنني غبت ثلاثة أيام فقط!

ابتسم الشيخ بحزن وقال : ليس كل مكان يقيس الزمن بالطريقة نفسها ،

جلس أوراشيما على صخرة قرب البحر ، يتأمل الأمواج التي كانت تعرفه يومًا ، لكنها أصبحت الآن غريبة عنه ،

لم يعد يجد بيتًا ، ولا أهلًا ، ولا أصدقاء ، حتى الأشجار التي كان يلعب تحتها اختفت ، وحلت مكانها طرق جديدة وبيوت مختلفة ،

شعر بوحدة لم يعرفها من قبل ، حينها تذكر الصندوق ، أخرجه من حقيبته ، وتأمل زخارفه الجميلة ،

تردد طويلًا ، قال في نفسه : ربما يخفي هذا الصندوق سرًا يعيد لي حياتي ،

لكنه تذكر أيضًا وصية ملكة البحار ،

ظل الصراع يدور في داخله بين الصبر والفضول ، وفي لحظة ضعف ، غلبه الفضول ،

فتح الصندوق ، خرج منه ضباب أبيض رقيق ، ارتفع ببطء نحو السماء ، ثم عاد يحيط بجسد أوراشيما ،

بدأ يشعر بثقل في أطرافه ، ارتجفت يداه ، وشاهد شعره يتحول إلى اللون الأبيض ، وظهره ينحني ، وجلده يتجعد شيئًا فشيئًا ،

أدرك الحقيقة المؤلمة ،

لم يكن الصندوق يحمل لعنة ، بل كان يحتفظ بالسنوات التي لم يعشها على الأرض ، فلما فتحه عادت إليه كلها في لحظة واحدة ،

وقف ينظر إلى البحر للمرة الأخيرة ،

ابتسم ابتسامة هادئة وقال : الرحمة لا أندم عليها أبدًا ، ، ، لكن الإنسان يحتاج أيضًا إلى الصبر ، والثقة ، واحترام الحكمة ،

ثم أغمض عينيه ، وأسلم روحه بهدوء ، بينما كانت الأمواج تلامس قدميه كأنها تودعه ،

X

الدروس التربوية المستفادة

تعلمنا هذه القصة أن الرحمة لا تضيع أبدًا ، وأن الإحسان إلى الإنسان أو الحيوان يعود خيرًا على صاحبه ، وإن تأخر أثره ، كما تؤكد أن الفضول غير المنضبط قد يقود إلى نتائج مؤلمة ، وأن الاستماع إلى النصيحة واحترام الخبرة من صفات الإنسان الحكيم ،

وتوضح أيضًا أن الزمن نعمة لا يشعر بقيمتها إلا من فقدها ، وأن الأسرة والوطن والذكريات كنوز لا يعوضها أي قصر أو ثراء أو متعة ،

ومن منظور تربوي ، يحتاج الأطفال إلى تعلم مهارة **تأجيل الرغبات** ؛ فليس كل ما نريد معرفته ينبغي أن نكشفه في اللحظة نفسها ، فالصبر يمنح الإنسان رؤية أوضح ، بينما يدفعه التسرع أحيانًا إلى الندم ،

X

أمثلة من واقع الحياة

- قد يحذر الوالدان أبناءهم من مشاركة كلمات المرور أو المعلومات الشخصية مع الغرباء على الإنترنت ، فيظن بعض الأبناء أن هذا التحذير مبالغ فيه ، لكن الالتزام بالنصيحة يحميهم من مشكلات كبيرة قد يصعب إصلاحها لاحقًا ،
- قد ينقذ طفل قطة جريحة أو يضع الماء للعصافير في يوم شديد الحر ، فيتعلم من هذا السلوك قيمة الرحمة ، ويصبح أكثر لطفًا مع الناس والكائنات جميعًا ،
- قد يتسرع طالب في اتخاذ قرار يغيّر مستقبله دون استشارة معلميه أو والديه ، ثم يكتشف أن التروي كان سيقوده إلى اختيار أفضل ، لذلك فإن التفكير الهادئ والاستماع إلى أهل الخبرة من علامات النضج ،

X •

تبقى أسطورة **الصياد والسلحفاة** أكثر من مجرد حكاية عن البحر والزمن ؛ إنها رسالة إنسانية عميقة تؤكد أن القيم الجميلة هي التي تمنح الحياة معناها الحقيقي ، فالرحمة تفتح الأبواب المغلقة ، والصبر يحفظ الإنسان من الندم ، واحترام النصيحة يجنبه كثيرًا من الأخطاء ، أما

الزمن ، فهو أغلى ما يملكه الإنسان ، فلا يعود إذا مضى ، ولا يمكن تعويض لحظاته مهما امتلك الإنسان من كنوز الدنيا ، وهكذا تظل رحلة أوراشيما تذكرنا بأن القلب الرحيم يترك أثرًا خالدًا ، وأن الحكمة هي البوصلة التي تقود الإنسان إلى حياة مليئة بالخير والطمأنينة ،

حكاية البخيل والثعبان

حين فتح الخير بابًا أغلقه البخل طويلًا

كانت القرية تستيقظ كل صباح على صوت الديكة ، ورائحة الخبز الساخن ، وضحكات الأطفال وهم يركضون بين الحقول الخضراء ، كانت البيوت متقاربة ، والقلوب متآلفة ، فإذا مرض أحدهم وجد الجميع عند بابه ، وإذا فرح امتلأت الساحات بالابتسامات والدعوات ،

غير أن بيتًا واحدًا كان يقف صامتًا كأنه جزيرة معزولة وسط بحر من المودة ، كان بيتًا كبيرًا تحيط به الأسوار العالية والأبواب الثقيلة ، يملكه رجل ثري يُدعى **مرزوق** ، لم يكن أحد ينكر ثراءه ؛ فقد كانت مخازنه تمتلئ بالحبوب ، وصناديقه تفيض بالذهب والفضة ، وحقوله تمتد حتى تكاد تلامس الأفق ، لكن كل ذلك الثراء لم يمنح صاحبه قلبًا واسعًا ،

كان مرزوق مشهورًا بالبخل أكثر من شهرته بالغنى ، كان يعدّ حبات الأرز كما يعدّ التاجر دنانيره ، ويغلق أبوابه بإحكام كلما سمع أن فقيرًا يطرقها ، وإذا رأى يتيمًا أو أرملة ، أشاح بوجهه كأن الفقر ذنب أصحابه ، لا امتحان من الله لهم ،

وكان أهل القرية يقولون فيما بينهم : الغنى الحقيقي ليس فيما تملكه اليد ، بل فيما يمنحه القلب ،

لكن مرزوق لم يكن يصغي إلى أحد ، كان يظن أن المال إذا خرج من يده فلن يعود ، وأن العطاء ينقص الثروة ، ولم يكن يدرك أن الكرم يزيدها بركة ، وأن الخير يعود إلى صاحبه قبل أن يصل إلى غيره ،

أما زوجته ، فكانت على النقيض منه تمامًا ، كانت امرأة هادئة ، رقيقة القلب ، تؤمن أن السعادة لا تُشترى بالذهب ، بل تُصنع بالرحمة والمحبة ، كانت تتألم كلما رأت محتاجًا يغادر بيتها خائبًا ، لكنها كانت تحترم زوجها ولا تخالف أوامره ،

X •

وذات صباح ، اضطر مرزوق إلى السفر إلى العاصمة **هان يانغ** لإنجاز بعض أعماله التجارية ،

وقبل أن يغادر ، أخرج من جيبه مفتاحًا كبيرًا مصنوعًا من النحاس ، ظل سنوات لا يفارقه ليلًا ولا نهارًا ،

ناول المفتاح زوجته ، وقال بلهجة صارمة : هذا مفتاح المخزن ، ، ، إياك أن تسمحي لأحد بالدخول إليه ، احفظيه كما تحفظين روحك ،

ثم كرر وصيته مرة بعد أخرى ، حتى ظنت زوجته أن المفتاح أثمن عنده من حياته نفسها ،

وما إن غادر حتى بقيت المرأة تنظر إلى المفتاح طويلًا ،

لم يكن فضولها هو الذي دفعها إلى فتح المخزن ، بل سؤال ظل يطرق قلبها سنوات : **لماذا يخفي زوجي هذا المكان عن الجميع ؟**

وفي المساء ، جمعت شجاعتها ، وتقدمت نحو الباب المغلق ، أدخلت المفتاح ، ، ، دار القفل ببطء ، ، ، وانفتح الباب ،

ما إن دخلت حتى توقفت مدهوشة ،

صفوف طويلة من أجولة الأرز والقمح والشعير ، مكدسة حتى لامست السقف ، وكأنها جبال صغيرة من الخير النائم ،

وقفت تنظر إليها في صمت ،

ثم تذكرت وجوه الأطفال الذين ينامون جائعين ، والعجائز الذين يقتسمون كسرة خبز ، والأرامل اللواتي يخفين دموعهن حتى لا يراها أبناؤهن ،

تنهدت وقالت : يا للعجب ، ، ، كل هذا الخير حبيس الجدران ، بينما القلوب حولنا يرهقها الجوع !

جلست تفكر طويلًا ، كان داخلها صوتان ،

أحدهما يقول : أطيعي زوجك ، فهو صاحب المال ،

والآخر يهمس : المال أمانة ، والله يحب المحسنين ،

وبعد صراع طويل ، نهضت وقد حسمت أمرها ،

قالت بثقة : لن ينقص هذا المخزن إذا خرج منه بعض الخير ، لكن قلوبًا كثيرة ستمتلئ بالأمل ،

X •

في صباح اليوم التالي ، بدأت توزع الأرز سرًا على الأسر الفقيرة ،

لم تعطِ أحدًا أكثر من حاجته ، ولم تحرم أحدًا من نصيبه ،

كانت تطرق الأبواب ، وتبتسم في حياء ، ثم تمضي قبل أن تسمع كلمات الشكر ،

وسرعان ما انتشر الخبر في القرية كلها ،

كل بيت فقير وجد عند بابه جوالًا كبيرًا من الأرز ،

احتار الناس ، من فعل ذلك ؟

وحين عرفوا أن العطاء جاء من بيت مرزوق ، لم يصدقوا ،

قال شيخ القرية مبتسمًا : سبحان مغير القلوب ،

وقالت امرأة عجوز : ربما استيقظ الخير أخيرًا في قلب الرجل ،

لكن أحدًا لم يكن يعلم أن الخير جاء من قلب زوجته ، لا من جيوبه ،

X •

وفي تلك الأثناء ، كان مرزوق يعبر النهر في طريقه إلى العاصمة ، كان الماء هادئًا ، والسماء صافية ، حتى خُيل للركاب أن الرحلة ستكون قصيرة وآمنة ،

وفجأة ، ، ، ارتفعت أمواج النهر ، وخرج من أعماق الماء مخلوق ضخم أسود اللون ، التف جسده فوق سطح الماء ، وارتفع رأسه عاليًا ، وكانت عيناه تلمعان كجمرتين في الليل ،

ساد الصمت ،

وتراجع الركاب مذعورين ، أما مرزوق ، فتجمد مكانه ،

قال المخلوق بصوت هز أرجاء النهر : أنا ثعبانٌ عشت ألف عام ،

ارتجف مرزوق ، ولم ينطق بكلمة ،

واصل الثعبان : في كل عام كنت ألتهم إنسانًا امتلأ قلبه بالشر والطمع ، حتى أتحول يومًا إلى تنين ، ولم يبق أمامي سوى شخص واحد ، ، ،

ثم نظر إليه مباشرة ،

، وأنت هو ،

شعر مرزوق أن الأرض تميد تحت قدميه ،

قال بصوت مرتجف : أنا ؟ ! ولماذا أنا ؟

أجاب الثعبان : لأنك جمعت المال ومنعت الخير ، ورأيت المحتاجين فلم ترق لهم ، وملأت مخازنك بينما امتلأت بطون الأطفال بالجوع ،

لم يجد مرزوق ما يرد به ، كانت الكلمات تصيب قلبه كالسهم ،

ركع على ركبتيه وهو يبكي ،

قال : لقد أخطأت ، ، ، كنت أظن أن المال يحميني ، أرجوك ، ، ، امنحني فرصة أخرى ،

ساد الصمت ،

ثم تغيرت ملامح الثعبان ، واختفى الغضب من صوته ،

وقال : لقد كنت سأفعل ما جئت من أجله ، ، ، لكن شيئًا عظيمًا حدث هذا الصباح ،

رفع مرزوق رأسه في دهشة ،

قال الثعبان : زوجتك فتحت باب الرحمة ، وأطعمت الجائعين من مالك ، لقد غلب خيرها شرَّك ، ورحمة قلبها قسوة قلبك ،

ثم أضاف : حين يصل الخير إلى المحتاج ، تتغير موازين كثيرة لا يراها الناس ،

وتابع بصوت هادئ : لقد أنقذت حياتك ، ، ، لا لأنها كسرت أمرك ، بل لأنها أطاعت ضميرها ، واختارت الرحمة ،

ثم غاص الثعبان في الماء ، وعاد النهر ساكنًا كأنه لم يشهد شيئًا ،

X •

ظل مرزوق واقفًا طويلًا ، كانت كلمات الثعبان تتردد في أذنيه ، لأول مرة شعر أن أكثر ما كان يخشاه لم يكن الفقر ، ، ، بل فراغ قلبه ،

أوقف رحلته ، وعاد مسرعًا إلى قريته ،

X •

في البيت ، كانت زوجته تنتظره بقلق شديد ، كانت تعرف أن السر لن يظل مخفيًا طويلًا ،

وما إن دخل حتى قالت والدموع في عينيها : لقد أخطأت في حقك ، ، ، فتحت المخزن ، ، ، ووزعت بعض الأرز على الفقراء ، إن شئت فاغضب ، وإن شئت فعاقبني ، لكنني لم أحتمل رؤية الجوع حولنا ،

انتظرت أن يصرخ ،

أن يغضب ، أن يلومها ،

لكنها فوجئت بابتسامة هادئة ترتسم على وجهه ،

قال وهو يمسك بيديها : بل أنتِ من أنقذتني ،

ثم حكى لها ما جرى عند النهر ،

أخذت تستمع في دهشة ، حتى امتلأت عيناها بالدموع ،

قالت برفق : أرأيت ؟ الخير لا يضيع أبدًا ،

أومأ برأسه ، وقال : كنت أحرس المخزن بالمفتاح ، ، ، ولم أدرك أن القلوب تُفتح بمفتاح آخر ،

X •

ومنذ ذلك اليوم ، تبدلت حياة مرزوق ،

فتح مخازنه ، وصار يخصص جزءًا من محصوله للفقراء كل موسم ، وبنى مستودعًا صغيرًا يُحفظ فيه الطعام للمحتاجين في أوقات القحط ، وساعد الأرامل على العمل ، وكفل الأيتام ، وأصلح بيوتًا تهدمت بفعل الأمطار ،

ولم يعد أهل القرية يذكرونه بالبخل ، بل صاروا يذكرونه بالتوبة والكرم ،

وكان إذا سأله أحد عن سبب تغيره ، ابتسم وقال : كنت أظن أن الثروة هي ما أملك ، ، ، ثم تعلمت أن الثروة الحقيقية هي ما أقدمه ،

X •

ومرت السنوات ،

كبر أطفال القرية وهم يسمعون حكاية الرجل الذي أنقذه الخير قبل أن يلتهمه الشر ،

وكان الآباء يروونها لأبنائهم في الليالي الهادئة ، لا ليخيفوهم من الثعبان ، بل ليعلموهم أن لكل إنسان ثعبانًا خفيًا قد ينمو في قلبه إذا استسلم للطمع والأنانية ،

فالجشع يبدأ صغيرًا ، ثم يكبر حتى يلتهم صاحبه ، أما الكرم فيبدأ بعطاء بسيط ، ثم يتحول إلى نور يضيء حياة الآخرين ،

وكان المعلمون يضربون بهذه القصة أمثلة من واقع الناس ، فيقولون : قد يكون التلميذ كريمًا حين يشارك زميله أدواته المدرسية ، أو يقف إلى جانب صديق يشعر بالوحدة ، وقد يكون الطبيب كريمًا حين

يخفف آلام مريض فقير ، والمعلم كريمًا حين يمنح علمه بإخلاص ، والعامل كريمًا حين يتقن عمله ويحفظ الأمانة ، والجار كريمًا حين يساند جاره في الشدة ، فليس الكرم مالًا فقط ، بل كلمة طيبة ، وابتسامة صادقة ، ووقت يُهدى لمحتاج ، ورحمة تُزرع في قلب إنسان ،

وهكذا أدرك أهل القرية أن الخير لا يقاس بحجم العطاء ، وإنما بصدق النية ، وأن البخل لا يعني قلة المال ، بل ضيق القلب ،

أما مرزوق ، فقد عاش بقية عمره سعيدًا مطمئنًا ، كان كلما رأى طفلًا يبتسم أو أسرةً يملؤها الدفء بسبب معروف صنعه ، شعر أن قلبه أصبح أخف ، وأن الحياة أجمل مما كان يتصور ،

وقبل أن يرحل عن الدنيا بسنوات ، جمع أبناء القرية وقال لهم : احذروا أن تجعلوا المال سيدًا لكم ، واجعلوه خادمًا للخير ، فالمال يبقى في الأرض ، أما المعروف فيبقى في القلوب ، ويصعد أثره إلى السماء ،

ومنذ ذلك اليوم ، لم تعد الحكاية تُروى بعنوان **حكاية البخيل والثعبان** فحسب ، بل أصبحت تُعرف بين الناس باسم **الحكاية التي انتصر فيها القلب على الكنز** ؛ لأنها تذكر الجميع بأن الرحمة أقوى من الطمع ، وأن باب الخير ، إذا فُتح مرة بإخلاص ، قد يغيّر مصير إنسان ، ويبدّل حياة مجتمع بأكمله ،

الهانبوك والكيمتشي
حكايةُ لباسٍ وطعامٍ وآداب

في صباحٍ هادئٍ من صباحات المدرسة ، دخلت **مريم** القاعة وهي تحمل في يدها دفترًا صغيرًا ، وفي قلبها سؤال كبير : كيف يمكن

لقطعة قماش ، أو طبق طعام ، أو زوج عيدان رفيعة ، أن يحمل روح أمةٍ كاملة ؟

كان ذلك اليوم مختلفًا ، فقد أعلنت المدرسة عن معرضٍ ثقافيٍّ بعنوان : **شعوب العالم تتحدث** ، وكل صفٍّ اختار بلدًا ليمثله ، اختارت مريم كوريا الجنوبية ، لا لأنها تعرف عنها الكثير ، بل لأنها شعرت أن في هذا البلد شيئًا يشبه الحكاية : ترتيبًا جميلًا ، وهدوءًا عميقًا ، وحرصًا على التفاصيل الصغيرة التي تصنع المعنى الكبير ،

وقفت أمام اللوحة التي كتبت عليها بخط واضح : **الزي الشعبي لكوريا الجنوبية : الهانبوك** ، ثم قرأت الفقرة الأولى بصوتٍ خافت ، وكأنها تفتح بابًا على عالمٍ بعيد :

الهانبوك هو الزي التقليدي الكوري ، ويُعد الزي الوطني ، وتعود جذوره إلى الممالك الكورية القديمة ، وتختلف أشكاله بحسب فصول السنة وجنس مرتديه ، ويُرتدى في المناسبات الخاصة مثل الأعياد وحفلات الزفاف ، بينما يظهر في الحياة اليومية بصورٍ حديثةٍ معدلة تناسب العصر ،

رفعت مريم رأسها ، وتخيلت فتاة كورية تمشي في شارعٍ قديم ، ترتدي تنورة واسعة بألوانٍ هادئة ، وكأنها زهرة تتحرك فوق الأرض دون أن تفقد وقارها ، وتخيلت فتى كوريًا بثوب بسيط وسروال فضفاض ، يسير بخفةٍ واعتزاز ، كأن اللباس ليس مجرد قماش ، بل لغة صامتة تقول : نحن أبناء ذاكرةٍ لا تنكسر ،

لم يكن الهانبوك مجرد زيٍّ جميل ؛ كان قصة حضارة ، فالمرأة في الهانبوك التقليدي ترتدي **الجيوجوري** ، وهو القميص أو السترة القصيرة ، مع **الشيما** ، وهي التنورة الطويلة الواسعة ، ويُسمى هذا الطقم في الغالب **شيما-جيوجوري** ،

أما الرجل فيرتدي **الجيوجوري** مع **الباجي** ، وهي السراويل الفضفاضة التي تساعد على الحركة والراحة ،

وأثناء القراءة ، بدأت مريم تحس أن اللباس هنا ليس للزينة فقط ، بل للحياة أيضًا ، فقد صُمم الهانبوك ليُسهّل الحركة ، ويحفظ البساطة ، ويمنح الجسد حريةً جميلة لا تُشبه التكلّف ، كان واسعًا حين يحتاج الإنسان إلى راحة ، ومتماسكًا حين يحتاج إلى وقار ، وفي هذا

التوازن يكمن سرّ من أسرار الجمال الحقيقي : أن تكون الأشياء نافعة قبل أن تكون لامعة ،

ومع تقدمها في القراءة ، اكتشفت أن الهانبوك لم يولد من فراغ ، فقد تأثر في أصوله بالملابس البدوية في شمال آسيا ، ولا سيما ثقافة السكوثيون في سيبيريا ، كما ظهرت خصائصه الأولى في رسومٍ قديمة تعود إلى جوجوريو قبل القرن الثالث الميلادي ، ومع الزمن ، احتفظ الهانبوك بروحه الأساسية رغم ما مرّ به من تغييرات ، ولم تذهب تلك التغييرات به بعيدًا عن جذوره ، بل جعلته أكثر قدرة على البقاء ،

كانت مريم تتأمل هذه الفكرة بإعجاب ، فكم من شيءٍ في حياتنا يحتاج إلى هذا المعنى ! أن نحافظ على الأصل ، وأن نسمح للتجديد أن يمرّ دون أن يهدم الجذع ، أن نأخذ من العصر ما يناسبنا ، لكننا لا نقطع خيوط الماضي ،

أليست هذه هي التربية أيضًا ؟ أليس الطفل الذي يتعلم الأدب والاحترام والصدق ، ثم يضيف إليها العلم والخبرة ، هو صورةٌ من هذه الفكرة الجميلة ؟

هكذا فهمت مريم أن الهانبوك ليس مجرد ملابس ، بل درس في الهوية والاتزان ،

ثم انتقلت إلى صفحةٍ أخرى ، فوجدت نفسها أمام تاريخٍ تتحرك فيه الشعوب وتتبادل التأثيرات ،

في نهاية عصر الممالك الثلاث في كوريا ، بدأت السيدات النبيلات يرتدين التنانير الطويلة والسترات القصيرة المربوطة عند الوسط ، وبدأ الرجال يرتدون سراويل فضفاضة ضيقة عند الكاحلين ، وستراتٍ مربوطة عند المعصم والوسط ، ثم جاء التأثير المنغولي في عهد مملكة جوريو ، خاصة بعد القرن الثالث عشر ، حين انتقلت بعض أنماط الملابس المنغولية إلى البلاط الكوري نتيجة العلاقات السياسية والزواج الملكي ، فأصبحت التنورة أقصر ، وارتفعت الجيوجوري فوق الخصر ، وأصبح الربط في المقدمة ، مع وشاح طويل وأكمامٍ مقوسة قليلًا ،

تأملت مريم هذه التحولات ، ولم ترَ فيها مجرد تغيير في القصّات والخياطة ، بل رأت فيها مرآةً للتاريخ : الملابس تتبدل حين تتبدل العلاقات بين الأمم ، لكن ما يبقى هو الروح التي تصنع الزي

وتحمي رمزه ،
كأن الشعوب تقول للعالم : نحن نتأثر ، نعم ، لكننا لا نذوب ، نأخذ ، ونضيف ، ونصنع من التبادل حياةً أغنى ،

وفي زاوية المعرض ، علقت صورة لاحتفالٍ كوريٍّ قديم ، ظهرت عروس ترتدي هانبوكًا أبيض وألوانًا زاهية ، وابتسامةً هادئة ، كأنها تحمل على كتفيها تاريخ عائلة كاملة ، وشعرت مريم أن أجمل ما في اللباس التقليدي أنه يربط الإنسان بالجماعة ، فحين يرتدي الناس هانبوكًا في الأعياد أو الزفاف ، فهم لا يرتدون القماش فقط ، بل يرتدون الذاكرة ، والعادات ، والوفاء للجذور ،

ثم جاءت اللحظة التي غيّرت اتجاه الحكاية ،

اقتربت من مريم زميلتها الكورية ، وكانت تُدعى **سورا** ، وقد لبست هانبوكًا حديثًا بألوانٍ هادئة ، يجمع بين الأصالة والراحة ، قالت مريم لها بابتسامة : كأنه يخرج من قصيدة ،

ضحكت سورا وقالت : والقصيدة هنا ليست في الشكل فقط ، بل في الاحترام الذي يحمله اللباس ،

عندها فهمت مريم أن الأناقة في كوريا الجنوبية ليست مجرد مظهر ، ففي المجتمع الكوري المعاصر ، يُعدّ الاهتمام بالملبس علامةً على الاحترام ، خاصة في المناسبات الرسمية أو عند لقاء الناس لأول مرة ، والبدلة وربطة العنق تُرتدى عادةً في المواقف المهمة ، كما يحرص كثير من الكوريين على المظهر المرتب حتى في حياتهم اليومية ، خصوصًا في المدن الكبيرة مثل سيول ،

وهنا توقفت مريم قليلًا ، ثم كتبت في دفترها : **الملبس في الثقافة الراقية ليس زينة للعين وحدها ، بل رسالة سلوك ،**

كانت هذه الجملة بالنسبة لها بداية تحليلٍ تربويٍّ جميل :

فحين يعتني الإنسان بملابسه ، فهو يعتني أيضًا بصورة احترامه للآخرين ،
وحين يختار اللباس المناسب للمكان والزمان ، فإنه يتعلم قيمة التقدير ،

وهذا درس يمكن أن نراه في مدارسنا وبيوتنا ومناسباتنا : أن النظافة والترتيب والاعتدال ليست تفاصيل صغيرة ، بل هي علامات على شخصيةٍ تعرف كيف تضع نفسها في المكان الصحيح ،

وبينما كانت مريم تظن أن المعرض انتهى عند اللباس ، قادتها سورا إلى ركنٍ آخر كتبت عليه لوحة كبيرة :**الكيمتشي: الأكلة الشعبية في كوريا الجنوبية** ،

كانت الرائحة خفيفة ، حادة ، محببة ، كأنها تحمل برودة الشتاء وحرارة الفلفل معًا ،

قالت سورا: بدون الكيمتشي ، تشعر كثير من البيوت أن المائدة ناقصة ،

ثم شرحت أن الكيمتشي طعام كوري تقليدي وأساسي ، لا تكاد تخلو منه مائدة فقير أو غني ، وهو يعتمد غالبًا على الملفوف ، مع مسحوق الفلفل الأحمر ، والملح ، ومكونات أخرى تختلف بحسب ذوق الأسرة وتقاليدها ،

قرأت مريم الوصف ، فتخيلت أمهاتٍ في البيوت الكورية يقطّعن الخضار ، ويخلطن التوابل ، ويخزنّ الوجبة بعنايةٍ تشبه العهد ،

ثم عرفت أن الكيمتشي ليس مجرد أكلة ، بل جزء من هويةٍ غذائيةٍ واجتماعية ،

وقد أُدرج ضمن لائحة اليونسكو للتراث الثقافي غير المادي في ديسمبر 2013 ، وهذا دليل على أن العالم لم ينظر إليه كطعامٍ محلي فقط ، بل كتراثٍ إنساني يستحق الحفظ ،

وأكثر ما أثار إعجاب مريم أن الكوريين يطلقون على عملية تحضير الكيمتشي اسم **جيم جانغ** ، وهي عملية تحمل روح المشاركة ، والصبر ، والترتيب ، والاهتمام بالتفاصيل ،

فلم تعد ترى الطعام مجرد شبعٍ للجسد ، بل رأت فيه تربيةً على التنظيم ، والتعاون ، والاعتزاز بما تصنعه اليدان ،

وأخبرتها سورا بحكايةٍ أخرى لها معنى أعمق ، قالت إن الحكومة في كوريا تهتم بتوفير الملفوف في الشتاء ، إذا تضررت المحاصيل بسبب البرد القارس أو سوء الموسم الزراعي ،

توقفت مريم عند هذه الفكرة ، وقالت في نفسها : كم هو جميل أن تهتم الدولة بما يدخل بيوت الناس ، لأن الغذاء ليس مسألةً ثانوية ، بل هو أمنٌ وكرامةٌ واستقرار ،

وهنا دخل التفكير التربوي إلى قلبها من أوسع أبوابه : فكما تحرص الأسرة على توفير الطعام ، ينبغي للمجتمع كله أن يضمن للناس ما يحفظ صحتهم ويصون حياتهم ،

إنها مسؤولية مشتركة بين الفرد والمؤسسة والدولة ،

ثم انتقلت مريم إلى قصةٍ أدهشتها أكثر ، قرأت أن بعض الطهاة الكوريين الذين عملوا في العراق في الثمانينات استخدموا اللفت لصناعة طعامٍ بديل يشبه الكيمتشي ، حين لم يتوفر الملفوف في الأسواق ، ابتسمت مريم لهذا المثال الواقعي ،

فهو يعلّمها أن الثقافة الحية لا تتجمد عند عنصرٍ واحد ، بل تعرف كيف تتكيّف وتحافظ على روحها ،

ليست العظمة في التمسك الحرفي بالشكل ، بل في حفظ الجوهر مع القدرة على التغيير ،

وهذا درس تربوي مهم أيضًا : فالطفل الذي يتعلم المرونة لا ينهار حين تتغير الظروف ، بل يبحث عن البديل المناسب دون أن يفرط في قيمه ،

وبعد الطعام ، جاء الحديث عن الأدب على المائدة ، ففي الثقافة الكورية ، هناك قواعد جميلة أثناء الأكل ، لا يرفع الناس طبق الأرز إلى الفم كما قد يفعل بعض الشعوب ، بل تبقى الأطباق على الطاولة ، ولا يُستحسن التحدث عن أشياء كريهة أو قذرة أثناء الطعام ، كما لا يُحبذ الأكل بسرعة شديدة أو ببطءٍ مبالغ فيه ،

هذه القواعد ، كما فهمتها مريم ، ليست مجرد شكليات ، بل هي تدريب على الذوق وضبط النفس واحترام الجلسة الجماعية ،

ثم جاءت إلى لوحة صغيرة بعنوان : **عيدان الأكل** ،

كانت العيدان نحيفة ومتساوية الطول ، تُستخدم في الصين واليابان وكوريا وتايوان وفيتنام ،

قرأت مريم آداب استخدامها :لا يجوز إصدار الأصوات بها أو استخدامها للفت الانتباه أو الإشارة إلى الناس ، ولا ينبغي تحريك

الأطباق بها ، ولا تُستخدم للعب بالطعام أو ثقب الطعام بها مثل الشوكة إلا في حالاتٍ خاصةٍ لقطع قطع كبيرة من اللحم أو الخضار ، ولا يصح تركها ملقاة في الطبق بطريقة غير لائقة ،

أغلقت مريم دفترها لحظة ، ثم نظرت إلى سورا وقالت : كم تشبه هذه الآداب ما نحتاجه في حياتنا اليومية !

فمن يحسن استخدام عيدان الطعام ، يحسن أيضًا استخدام الكلمات ، وحسن الجلوس ، وحسن الإصغاء ،

أومأت سورا مبتسمة ، لأن الكلام كان صادقًا وبسيطًا ، ومن القلب إلى القلب ،

وفي تلك اللحظة ، شعرت مريم بأن المعرض لم يعد مجرد مشروع مدرسي ، لقد صار رحلةً داخل معنى الثقافة ،

أدركت أن الهانبوك والكيمتشي وعيدان الطعام ليست أشياء منفصلة ، بل هي خيوط في نسيج واحد ،

كل خيطٍ منها يروي جانبًا من الشخصية الكورية : الانتماء ، والنظام ، والاعتزاز ، والاعتدال ، والاحترام ، والتعاون ، والقدرة على الجمع بين القديم والجديد ،

وقفت مريم أمام زميلاتها وزملائها في نهاية المعرض ، وبدأت تتحدث ،

قالت بصوتٍ هادئٍ وواثق : تعلمت اليوم أن الحضارة لا تعيش في الكتب فقط ، بل تسكن في اللباس ، وفي المائدة ، وفي طريقة الجلوس ، وفي احترام التفاصيل ،

الهانبوك يعلّمنا أن الجمال يمكن أن يكون بسيطًا ومحتشمًا ، وأن التاريخ يمكن أن يبقى حيًا في الثوب ، والكيمتشي يعلّمنا أن الطعام ليس مجرد طعم ، بل ذاكرة وبيت وعائلة وصبر ، وعيدان الطعام تذكّرنا أن الأدب في الحركة مثل الأدب في الكلام ، وأن الإنسان الراقي يظهر في الأشياء الصغيرة قبل الكبيرة ،

صفق الحاضرون ، ليس لأن العرض كان طويلًا ، بل لأنه كان صادقًا ،

وفي الطريق إلى البيت ، كانت مريم تفكر في أمها ، وفي

مائدة العشاء في بيتهم ، وفي ثيابهم التي يختارونها للمناسبات ، وفي الكلمات التي يقولونها حين يجلسون معًا ،

وفهمت فجأةً أن الدرس لم يكن عن كوريا الجنوبية وحدها ، بل عن كل مجتمع يريد أن يحافظ على روحه ،

فالثقافة ، في النهاية ، ليست زينة فوق الجسد ، ولا نكهة فوق الطعام ، ولا حركاتٍ فوق المائدة ،

الثقافة هي السلوك حين يتحول إلى معنى ، والمعنى حين يتحول إلى عادةٍ جميلة ، والعادة حين تصبح قيمة ،

ومن هنا ، يمكن لكل طفلٍ وفتى وفتاة أن يتعلموا شيئًا من الهانبوك :أن يكونوا بسطاء دون تفريط ، جميلين دون تكلف ، ثابتين على الجذور مع انفتاحٍ على الجديد ،

ويمكنهم أن يتعلموا شيئًا من الكيمتشي أيضًا : أن الأشياء البسيطة حين تُصنع بمحبةٍ وصبر ، تصبح مشهورة في العالم كله ، فورقة ملفوف ، وقليل من الملح ، ورشة فلفل ، ووقتٌ كافٍ ، قد تصنع طعامًا يحمل بلدًا كاملًا ،

أما عيدان الأكل ، فتقول لنا بهدوء : كن رقيقًا في يدك ، متزنًا في سلوكك ، واضحًا في حضورك ، ولا تجعل الفوضى تتسلل إلى لحظاتك اليومية ،

وعادت مريم إلى بيتها وهي تشعر أن قلبها صار أوسع ،

وفي الليل ، كتبت في آخر دفترها : **حين نفهم ثقافة الآخرين ، لا نبتعد عن أنفسنا ، بل نتعلم كيف نصون إنسانيتنا ،**

ثم أطفأت المصباح ، وبقيت الحروف وحدها تتلألأ في الظلام ، مثل هانبوكٍ أبيض تحت ضوء القمر ، مثل طبق كيمتشي على مائدة دافئة ، مثل عيدانٍ رفيعة تشير إلى طريقٍ مستقيم ،

وكانت النهاية هادئة ، لكنها لم تكن نهاية الحكاية ؛ بل بداية وعيٍ جديد ، يعلّمنا أن الجمال حين يلتقي بالأخلاق ، يصنع حضارةً لا تنطفئ ،

التراث الثقافي والطقوس في كوريا الجنوبية : حين تتحدث العادات بلغة الاحترام

في صباح هادئ من صباحات سيول ، كانت **مريم** تمشي بخطوات بطيئة إلى جانب صديقتها الكورية هيون ، وهي تحمل في قلبها أسئلة كثيرة ، وفي عينيها دهشة لا تخبو ، كانت ترى الناس من حولها ينحنون بعضهم لبعض في الشارع ، في المحطة ، أمام المتاجر ، وحتى في لحظات اللقاء العابر ، لم يكن المشهد مجرد حركة جسد ، بل بدا كأنه لغة كاملة تنطق بالاحترام قبل أن تنطق الشفاه بالكلام ،

سألت مريم بصوت خافت : لماذا ينحني الناس هنا هكذا ؟

ابتسمت هيون ، وقالت : لأن التحية عندنا ليست كلمة فقط ، بل أدب ، ومكانة ، وتقدير للآخر ،

وهنا بدأت مريم تفهم أن الثقافة ليست زينة خارجية ، بل روح تسكن السلوك ، وتظهر في التفاصيل الصغيرة ، فالانحناء في كوريا الجنوبية ليس مجرد عادة قديمة ، بل علامة على الاحترام والتواضع ، خصوصًا عند اللقاء الأول ، وقد ترافقه عبارات التحية الدافئة ، ليصبح اللقاء بداية طيبة قائمة على الأدب والسكينة ، وفي هذا السلوك معنى تربوي جميل ؛ إذ يتعلم الإنسان أن احترام الآخر لا يحتاج إلى ضجيج ، بل إلى صدق وهدوء ولطف ،

التحية: بداية الطريق إلى القلوب ،

في كل مجتمع ، توجد طريقة خاصة لقول أهلاً ، وفي كوريا الجنوبية ، يحمل الانحناء رسالة عميقة : أنا أراك ، وأقدّرك ، وأمنحك مكانك في قلبي ، هذه البساطة الظاهرة تخفي وراءها معنى اجتماعيًا واسعًا ، لأن المجتمعات لا تبنى فقط بالقوانين والأنظمة ، بل تبنى أيضًا بأدب الناس في تعاملهم اليومي ،

ولو تأملنا هذا السلوك من زاوية تربوية ، لوجدنا أنه يعلّم الطفل منذ صغره قيمة التواضع ، ويزرع في نفسه الشعور بالآخر ، فالطفل الذي يتعلم كيف يحيّي باحترام ، يتعلم أيضًا كيف يصغي باحترام ، وكيف يختلف دون إساءة ، وكيف يعيش مع الناس بسلام ، وهنا يصبح الانحناء أكثر من إشارة جسدية ؛ يصبح مدرسة صغيرة في الأخلاق ،

وقد رأيت مريم ، في يومها الأول ، كيف أن سائق الحافلة ، والطالب ، والبائع ، والمدرس ، كلهم يشاركون في هذا الأدب الاجتماعي نفسه ، لم يكن أحد يرفع صوته ليُثبت وجوده ، لأن الحضور الحقيقي عندهم كان في السكينة والاتزان ،

الزفاف الكوري التقليدي: فرحٌ له جذور وذاكرة

ومع مرور الأيام ، انتقلت مريم من دهشة التحية إلى دهشة أخرى أكبر ، حين حضرت حديثًا عن الزفاف الكوري التقليدي ، هناك ، لم يكن الزواج مجرد احتفال سريع ، بل كان طقسًا يحمل تاريخًا طويلًا ، وروحًا اجتماعية عميقة ، وملامح من القيم القديمة التي شكّلت المجتمع قرونًا طويلة ،

في الماضي ، كانت كوريا مجتمعًا يسوده التأثير الكونفوشيوسي ، بمبادئه الأخلاقية الصارمة ، وكانت العلاقات بين النساء والرجال محكومة بضوابط واضحة ، لذلك كان الزواج غالبًا يتم عبر وسيط ، يجمع بين العائلتين ، ويقرب المسافات بينهما ، فإذا نجح الوسيط في التوفيق ، أرسلت عائلة العريس رسالة تتضمن معلومات عن ثروته وأحواله إلى عائلة العروس ، ثم ترد عائلة العروس بتحديد موعد الزفاف ،

هنا تظهر قيمة مهمة جدًا : **أن الزواج لم يكن شأنًا فرديًا فقط ، بل كان شأنًا عائليًا واجتماعيًا** ، وهذا يعكس كيف أن الإنسان في كثير من الثقافات القديمة لا يعيش وحده ، بل يعيش داخل شبكة من المسؤوليات والروابط ،

وكانت حفلات الزواج قديمًا تقام في ساحة العروس أو في منزلها ، ويأتي العريس على حصان إلى بيتها ، ثم بعد مراسم الزواج تُنقل العروس إلى بيت أهل العريس على كرسي نقال يُسمى **جاما(가마)** ، وكان هذا الكرسي يستخدم أيضًا للملوك والأرستقراطيين وكبار المسؤولين ، وكان له أنواع متعددة تناسب مراتب مختلفة ، ومع أن الصورة قد تبدو لنا اليوم بعيدة عن حياتنا الحديثة ، إلا أنها كانت تعكس طبيعة المجتمع يومها ، وصعوبة الطرق الجبلية ، وغياب وسائل النقل المريحة ،

لقد كانت الجبال كثيرة ، والمسافات صعبة ، والطرق غير ممهدة ، لذلك فضّل الناس حمل العروسين أو نقلهما بعربات أو كراسٍ نقالة بدل العجلات في بعض الأحيان ، واليوم ، بعد التطور التكنولوجي والعولمة ، صار العروسان يذهبان إلى حفل زفافهما في سيارة أجرة أو سيارة خاصة ، لكن روح الاحتفال القديمة لم تختفِ تمامًا ؛ إنها ما تزال حيّة في الرموز والملابس والطقوس والمعاني ،

الهدايا والرموز: الأشياء الصغيرة التي تقول الكثير

ومن أجمل ما يميز الزواج الكوري التقليدي أنه لم يكن مجرد مظهر خارجي ، بل كان مليئًا بالرموز ، فعائلة العريس كانت تحمل **صندوق الزفاف** المليء بالهدايا إلى عائلة العروس ، وهذا الصندوق لم يكن مجرد هدية مادية ، بل كان إعلانًا عن النية الطيبة ، والرغبة في بناء علاقة مستقرة قائمة على الكرم والاحترام ،

كما كانت بعض الرموز الحيوانية تحمل معاني خاصة جدًا ، فـ **الأوزة** كانت رمزًا للزواج الطويل السعيد ، لأنها تُعرف بأنها تعيش مع شريك واحد مدى الحياة ، أما **البطّ الزواجي** المصنوع من الخشب ، فكان يرمز إلى السلام والإخلاص والذرية الوفيرة ، وكان يُقدَّم في بعض الطقوس بدل الأوزة الحية ، لأن الرمز بقي ، لكن الشكل تغيّر مع الزمن ،

وهنا تلمع الحكمة التربوية بوضوح : الإنسان لا يعيش بالخبز وحده ، بل يعيش أيضًا بالرموز التي تذكّره بالقيم ، فالخاتم ، والزهرة ، والصندوق ، والطائر ، كلها أشياء بسيطة ، لكنها في الثقافة تحمل معنى كبيرًا ، إنها تذكّر الزوجين بأن الحياة الزوجية ليست علاقة شكلية ، بل عهد وفاء ومسؤولية ومشاركة ،

وفي هذا المعنى ، يمكن أن نفهم لماذا اختارت الثقافة الكورية الطيور الوفية لتكون جزءًا من طقوس الزواج ، فالوفاء ليس كلمة تُقال في يوم العرس فقط ، بل سلوك يتكرر كل يوم ، في الصبر ، وفي الاحترام ، وفي الصدق ، وفي تحمّل الشدائد ،

مشهد العرس: بين الرسمي والاحتفالي

حين يحين موعد الحفل ، كان العريس يصل مع من يمثل أسرة العريس ، ويحمل صندوق الهدايا ، ويُسمى أحيانًا الضيف الأهم ، ويصاحبه رجل يحمل بطة خشبية ، ومعه اثنان أو ثلاثة من الرجال الآخرين ، وعند وصولهم إلى قرية العروس ، يدخل العريس إلى غرفة مخصصة له أمام منزلها ، ويرتدي زيًا رسميًا جميلًا : قبعة ، ومعطفًا أزرق ، وحزامًا ، وحذاءً أسود ، مع تفاصيل تقليدية دقيقة ،

وفي الداخل ، تُجهز الطاولة الصغيرة المغطاة بقطعة قماش حمراء ، ويوضع عليها صندوق الهدايا ، ثم تتقدم امرأة ، غالبًا تكون أمًا أو امرأة كثيرة الأبناء ، إلى الغرفة الخشبية لتفتح الصندوق ،

وتقرأ من تفاصيله بعض الإشارات التي تتصل بمستقبل العروسين ، وقد يبدو هذا لنا اليوم قريبًا من الرمزية الشعبية ، لكنه كان في زمانه جزءًا من إيمان الناس ببركة الطقوس ، وبدور المجتمع في حماية الزواج الجديد ،

وهنا لا بد أن نتوقف قليلًا أمام فكرة مهمة : **الطقوس ليست دائمًا مجرد تكرار شكلي ، بل قد تكون وسيلة لبث الطمأنينة في النفوس ،**
فالناس في المجتمعات القديمة كانوا يبحثون عن الاستقرار في زواجاتهم ، ويجدون في الطقوس وسيلة لتثبيت المعنى ، وتأكيد البداية ، وإعلان الفرح أمام الجميع ،

وفي العالم الحديث ، تغيرت كثير من التفاصيل ، قد لا نرى اليوم تلك المظاهر نفسها في كل زفاف ، لكن المعاني الكبرى بقيت: الاحترام ، والاحتفال ، وتقدير العائلة ، ورمز الوفاء ، وهنا يظهر التوازن الجميل بين الأصالة والتحديث ، فالمجتمع الذي يعرف كيف يحافظ على جذوره ، دون أن يتوقف عن التطور ، هو مجتمع يظل حيًا وقادرًا على التجدد ،

الفوانيس والليل المضيء : حين يصبح الضوء رسالة ومن المشاهد الجميلة في الزفاف التقليدي استخدام **الفوانيس** لإضاءة الطريق من منزل العريس إلى منزل العروس في الليلة السابقة للزفاف ، ولم تكن الفوانيس مجرد وسيلة إنارة ، بل كانت تحمل معنى رمزيًا واضحًا: أن الزواج بداية طريق جديد ، وأن هذا الطريق يستحق النور ، والوضوح ، والسكينة ،

وفي هذا المشهد شيء شاعريّ للغاية ؛ فالفوانيس الصغيرة التي تضيء الليل تشبه القيم الصغيرة التي تضيء الحياة: كلمة طيبة ، نظرة احترام ، خطوة صادقة ، ابتسامة نقيّة ، وكلها تفاصيل تبدو بسيطة ، لكنها تصنع في النهاية حياة كاملة ،

ولو أردنا أن نقرأ هذا التراث بعين تربوية ، لقلنا إن المجتمع الكوري القديم كان يربّي أبناءه على أن الفرح ليس فوضى ، وأن الاحتفال ليس صخبًا فقط ، بل هو نظام ، ورعاية ، ومعنى ، وهذا درس مهم في زمن سريع ، قد تبتلع فيه السرعةُ جمالَ التفاصيل ،

الجنازة: وداعٌ تحكمه الرحمة والبرّ

وعندما انتقلت مريم إلى الحديث عن الجنازات في كوريا الجنوبية ، وجدت أن المعنى هنا يختلف في ظاهره لكنه يتصل في جوهره بالاحترام نفسه ، فالجنازة في الثقافة الكورية ترتبط بالصلاة من أجل المتوفى ، وطلب الراحة له في الجنة ، كما ترتبط بطاعة الوالدين والبرّ بهما ، وهي مناسبة عائلية تُعد مسؤولية كاملة للأسرة ، من حيث التنظيم والإشراف والحضور ،

الجنازة ليست في هذه الثقافة لحظة حزن فقط ، بل لحظة وفاء ، فالإنسان الذي يودّع من يحب ، لا يودّعه بالدموع وحدها ، بل بالدعاء ، وبالسكينة ، وبالالتزام بما يليق بكرامة الميت وأهله ،

ومؤخرًا تغيّرت عادات الجنازة بشكل واضح ؛ فكثير من الناس صاروا يفضلون الجنازات الصغيرة ، كما أصبح الحرق بدل الدفن خيارًا شائعًا عند البعض ، وهذا التغير لا يعني ضياع القيم ، بل يعكس تحوّل المجتمع مع الزمن ، وتبدل أنماط الحياة ، وتغير النظرة إلى المكان والموارد والظروف الاجتماعية ،

وهنا تظهر فكرة تربوية بالغة الأهمية :**ليست المحافظة على التراث تعني الجمود ، ولا التغيير يعني التفريط** ، فالمجتمع الناضج هو الذي يعرف كيف يميز بين الجوهر والشكل ، الجوهر هو الاحترام والرحمة والدعاء ، أما الشكل فقد يتغير بحسب الزمن والظروف ،

الزيارة للتعزية: لغة صامتة تحمل المواساة

ومن الطقوس المرتبطة بالموت في كوريا الجنوبية أيضًا **زيارة التعزية** أو نداء العزاء ، وهو ما يُعبَّر عنه بكلمة **جومو** (조문) أو **مونسانغ**(문상) ، وتعني هذه الزيارة إظهار الحزن تجاه المتوفى وتقديم المواساة للمشيعين ، وفيها يتحرك الإنسان بحذر ، لأن المكان ليس مكان كلام كثير ، بل مكان حضور صادق ومشاعر هادئة ،

وإذا كان الزائر أكبر سنًا من المتوفى ، فإنه ينحني فقط إلى المعزين الأساسيين ، وهذا يوضح مرة أخرى أن السلوك في الثقافة الكورية لا ينفصل عن الاحترام العمري والاجتماعي ، وأن لكل مقام ما يناسبه من التعبير ،

وهنا يدرك القارئ أن التعزية ليست مجرد واجب اجتماعي ، بل هي درس في الإنسانية ، فالوقوف إلى جانب الحزين يخفف عنه ، ويشعره أنه ليس وحده ، وأن المجتمع ما زال يحتفظ بروحه ، وربما لا

يوجد شيء أجمل من أن يرى الإنسان في لحظة ضعفه يدًا تمتد إليه بلطف ، دون استعراض ، ودون ضجيج ،

بين التراث والواقع: ماذا نتعلم؟

حين عادت مريم إلى غرفتها مساءً ، جلست تتأمل ما سمعته ورأته ، لم تكن ترى كوريا الجنوبية بعد ذلك كما رأتها في أول يوم ، صارت الأشياء عندها أكثر وضوحًا ، فهمت أن التحية ليست حركة ، وأن الزواج ليس زينة ، وأن الجنازة ليست نهاية صامتة ، بل كلها محطات تكشف عن عمق الإنسان ، وعن الطريقة التي ينظر بها المجتمع إلى الحياة والموت والعلاقات ،

ومن خلال هذا التراث ، نستطيع أن نتعلم عدة قيم سلوكية مهمة :

أولها **الاحترام** ، وهو أساس كل علاقة مروان ة ، وثانيها **التواضع** ، لأنه يخفف قسوة النفس ويجعل الإنسان قريبًا من الناس ، وثالثها **الوفاء** ، وهو روح الزواج ومعنى الاستمرار ، ورابعها **الرحمة** ، وهي الأساس في التعزية ومواساة الآخرين ، وخامسها **المسؤولية الاجتماعية** ، لأن الأسرة في هذه الطقوس ليست فردًا معزولًا ، بل مجتمعًا صغيرًا يتعاون ويتشارك ،

كما يعلمنا هذا التراث أن الإنسان أينما كان ، يحتاج إلى معنى يربط أفعاله بقيمه ، فالعادة التي بلا قيمة تتحول إلى فراغ ، أما العادة التي تحمل معنى ، فتغدو جسرًا بين الماضي والحاضر ،

حين يبقى المعنى وتغيّر الشكل

وهكذا ، فإن التراث الثقافي والطقوس في كوريا الجنوبية ليست مجرد صور قديمة ، ولا مجرد حركات محفوظة في كتب التاريخ ، بل هي مرآة لروح مجتمع عرف كيف يصوغ حياته بأدب ، ويعبّر عن قيمه برمز ، ويصون علاقاته عبر سلوك يومي بسيط وعميق في آنٍ واحد ،

من الانحناءة الأولى عند اللقاء ، إلى صندوق الهدايا في الزفاف ، إلى الفوانيس المضيئة في الليل ، إلى التعزية الهادئة في الجنازة ، تتشكل أمامنا لوحة إنسانية جميلة تقول لنا: إن الثقافة ليست ما نملكه فقط ، بل ما نفعله حين نلتقي ، وحين نفرح ، وحين نودّع ، وحين نحترم ،

ولعل أجمل ما في هذا التراث أنه لا يطلب منا أن نقلده حرفيًا ، بل أن نفهم روحه ، فالشكل قد يتغير ، لكن القيم لا ينبغي أن تضيع ، ومع كل زمن جديد ، يبقى الإنسان محتاجًا إلى شيء بسيط يذكّره بما هو أجمل: أن يعيش بكرامة ، وأن يفرح بأدب ، وأن يحزن برحمة ، وأن يحفظ للآخر مكانه في القلب ،

وهنا تنتهي الحكاية ، لكن المعنى لا ينتهي؛ لأنه يظل حيًا في كل مرة ننحني فيها احترامًا ، أو نربط فيها الفرح بالوفاء ، أو نمد فيها يد العزاء لمن يحتاجها ، تلك هي الثقافات العظيمة: لا تُبهرنا فقط ، بل تُهذّبنا أيضًا ،

الرجل الأرنب

حين تتحول الأسطورة إلى ظلٍّ يسير بين الأشجار

فيرفاكس ، ولاية فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، خريف عام 1970 ، ، ، قبل ليلة الهالوين بأيام قليلة ،

كان الليل ينزل على الغابة ببطء ، كأن السماء تنسج عباءة سوداء من الصمت ، وتلقيها فوق الأشجار العتيقة ، كانت الريح تمر بين الأغصان كأنها تهمس بأسماء الذين عبروا هذا الطريق ولم يعودوا كما كانوا ، وفي أقصى الطريق الريفي الهادئ ، الممتد بمحاذاة ممر السكك الحديدية القديم قرب جسر كولشيستر ، كان الظلام يبدو أكثر كثافة ، حتى ليخيّل للناظر أن الليل نفسه يخشى الاقتراب من تلك البقعة ،

هناك ، ، ، بدأت الحكاية ،

أو ربما بدأت قبل ذلك بسنوات ، حين اكتشف الناس أن الخوف لا يحتاج إلى حقيقة كاملة كي يعيش ، بل يكفيه نصف حادثة ، ونصف شائعة ، وخيال خصب يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل ،

كان جسر كولشيستر ، المشيّد منذ مطلع القرن العشرين ، يقف شامخًا فوق الطريق الضيق ، شاهداً على مرور القطارات وأحلام المسافرين وذكريات الحرب الأهلية التي مرّت من تلك الأرض ، غير أن الزمن لم يحتفظ في ذاكرته بصوت القطارات وحده ، بل حفظ أيضًا همساتٍ عن رجل غريب ، يرتدي زي أرنب ، ويحمل فأسًا ، ويخرج من قلب الظلام ليواجه كل من يقترب من المكان ،

X

في مساء التاسع عشر من أكتوبر عام 1970 ، كانت السماء صافية على غير عادتها ، بينما كانت النجوم تتناثر فوق الريف مثل مصابيح صغيرة بعيدة ،

قاد الكابتن الشاب روبرت بينيت سيارته بهدوء ، وإلى جواره جلست خطيبته ، يملآن الطريق بالأحاديث الصغيرة والضحكات الخافتة بعد انتهاء مباراة لكرة القدم ،

لم يكن الليل بالنسبة إليهما سوى فسحة هادئة من العمر ،

قالت وهي تنظر عبر النافذة : ما أجمل هذا السكون ، ، ، كأن العالم نسي أن يضج ،

ابتسم وهو يجيبها : أحيانًا يكون الصمت أجمل من كل الموسيقى ،

أوقف السيارة قرب حقل واسع بمحاذاة الطريق ، كانت أنوار البيوت البعيدة تتلألأ بخجل ، بينما كان محرك السيارة يعمل في هدوء ،

ساد الصمت ، صمت طويل ، ، ،

ثم تحرك شيء خلف السيارة ، التفت روبرت ببطء ، ولم ير سوى الظلال ، لكن قلبه أخبره أن الظلام لم يعد فارغًا ،

وفجأة ، ، ، دوى صوت ارتطام عنيف ،

تناثر زجاج النافذة الأمامية كالمطر ، وارتفعت صرخة خطيبته ، بينما وقف شخص يرتدي ثيابًا بيضاء غريبة ، تشبه زي أرنب ضخم ، يحدق إليهما بعينين غامضتين ،

كان صوته حادًا ، مليئًا بالغضب : أنتم على أرضٍ خاصة ، ، ، أعرف رقم سيارتكم ،

ثم اختفى كما ظهر ،

ولم يبقَ داخل السيارة سوى فأس ملقى على الأرض ، وزجاج متناثر ، وقلوب ترتجف من سؤال واحد : من كان ذلك الرجل ؟

X

مرت الأيام ،

انتشرت الحكاية في القرى والبلدات المجاورة كما تنتشر النار في الحقول اليابسة ،

بعضهم ضحك ، وبعضهم خاف ، أما الأطفال ، فقد وجدوا في القصة وحشًا جديدًا يرافق أحلامهم ،

لكن الليل كان ما يزال يخفي مفاجأة أخرى ،

X

في التاسع والعشرين من أكتوبر ، كان بول فيليبس ، حارس أحد مواقع البناء ، يتفقد منزلًا لم يكتمل تشييده بعد ،

كانت الألواح الخشبية تصدر أنينًا كلما داعبتها الريح ،

رفع مصباحه ، فرأى شخصًا يقف فوق الشرفة ، لم يكن لصًا ، ولم يكن عاملًا ، كان شابًا يرتدي زي أرنب رمادي تتداخل فيه بقع سوداء وبيضاء ، كان يمسك بفأس طويلة ، ويضرب بها أحد الأعمدة الخشبية في إيقاع مرعب ،

اقترب بول بحذر ،

لكن الرجل استدار فجأة ،

قال بصوت بارد يشبه صرير الحديد : أنت تتعدى على أرض ليست لك ،

ثم رفع الفأس قليلًا ، وأضاف : اقترب أكثر ، ، ، وسأقطع رأسك ،

تجمد الدم في عروق الحارس ، ولم يجد سوى الفرار ، وحين عاد مع رجال الشرطة ، ، ، لم يجدوا أحدًا ، لم يبق سوى آثار أقدام باهتة ، وصمتٍ أكثر كثافة من ذي قبل ،

X

باشرت شرطة مقاطعة فيرفاكس التحقيق ، سجلت الأقوال ، راجعت الأدلة ، فتشت الغابات ، استجوبت السكان ،

لكن الحقيقة كانت أشبه بالدخان ، كلما حاولوا الإمساك بها ، تلاشت بين أصابعهم ،

أغلقت التحقيقات لاحقًا بسبب نقص الأدلة ،

غير أن إغلاق الملفات لم يغلق أبواب الخيال ، بل على العكس ، ، ، بدأت الأسطورة تنمو ،

وخلال أسابيع قليلة ، انهالت البلاغات ، أكثر من خمسين شخصًا أكدوا أنهم رأوا الرجل الأرنب ، كل شاهد كان يروي قصة مختلفة ، فهذا يقول إنه طويل القامة ، وذاك يؤكد أنه قصير ، إحداهن أقسمت أن عينيه كانتا حمراوين كالجمر ، ورجل آخر قال إنه لم يكن يحمل سوى سكين ، أما الأطفال ، فأقسموا أنهم سمعوا ضحكاته بين الأشجار ،

وهكذا ، لم تعد الحكاية ملكًا للشرطة ، أصبحت ملكًا للناس ، والناس يعرفون كيف يمنحون الخوف أجنحة ،

X

كتبت الصحف عن الحوادث ، تصدرت الأخبار عناوين مثيرة ، رجل يرتدي زي أرنب مطلوب في فيرفاكس ،

ثم ، ، ، عودة ظهور الأرنب ، ثم ، ، ، تقارير المشاهدات تتزايد ،

كل عنوان كان يضيف حجرًا جديدًا إلى بناء الأسطورة ،

ومع كل رواية ، كان الرجل الأرنب يبتعد أكثر عن الحقيقة ، ويقترب أكثر من عالم الخيال الشعبي ،

X

بعد أعوام ، جلست طالبة جامعية تُدعى باتريشيا جونسون أمام عشرات القصاصات الصحفية والشهادات ،

كانت تحاول فهم كيف تولد الأساطير ، اكتشفت أن الحكاية الواحدة أصبحت عشرات الحكايات ، أحصت أربعًا وخمسين رواية مختلفة ، في بعضها ، كان الرجل قاتلًا ، وفي أخرى ، كان شبحًا ، وفي ثالثة ، كان سجينًا هاربًا ، وفي روايات أخرى ، كان مجرد رجل مختل العقل يرتدي زيًا غريبًا ،

كل راوٍ كان يضيف شيئًا من خوفه ، وكل مستمع كان يحذف شيئًا من الحقيقة ،

X

أما جسر كولشيستر ، فقد أصبح قلب الأسطورة النابض ،

كان الزائرون يأتون إليه ليلًا ، بعضهم يحمل كاميرات ، وبعضهم أجهزة تسجيل الأصوات ، وبعضهم لا يحمل إلا فضوله ،

كانوا يقفون تحت الجسر ، ينظرون إلى السكة الحديدية الممتدة في العتمة ، وينتظرون ، ينتظرون ظهور الرجل الأرنب ،

لكن الليل لا يمنح أسراره بسهولة ، فمن عاد منهم ، عاد بقصة جديدة ، ومن لم ير شيئًا ، اخترع ما يملأ به صمت الطريق ،

X

وكان المكان نفسه يشارك في كتابة الحكاية ،

الجسر الحجري القديم ، الأنفاق الرطبة ، الأوراق اليابسة ، صدى الخطوات ، صفير الريح ،

كل شيء هناك كان يبدو كأنه يتآمر مع الخيال ، حتى القمر ، حين ينعكس ضوؤه على القضبان الحديدية ، كان يرسم خطوطًا فضية تشبه آثار مخالب عملاقة ،

X

وفي كل عام ، حين يقترب عيد الهالوين ، كانت الأسطورة تستيقظ من جديد ،

يتوافد المئات ، يمتلئ الطريق بالسيارات ، يتبادل الناس القصص ،

يراقب رجال الشرطة المكان ، لا لأنهم ينتظرون ظهور الرجل الأرنب ، بل لأنهم يعرفون أن الأساطير قادرة على جمع البشر أكثر مما تفعل الحقائق ،

X

لكن السؤال الذي بقي معلقًا في الهواء لم يكن : هل وُجد الرجل الأرنب حقًا ؟

بل كان سؤالًا أكثر عمقًا : لماذا يحتاج الإنسان إلى خلق الوحوش ؟

جلس أحد الزائرين تحت الجسر ذات ليلة ، وأخذ يحدث نفسه:

ربما لا نخاف المجهول لأنه مظلم ، ، ، بل لأننا نرى فيه انعكاسًا لأنفسنا ، نحن نصنع الأقنعة ، ثم نرتعب منها ، ننسج الحكايات ، ثم نصبح أسرى لها ، ربما لا يعيش الرجل الأرنب بين الأشجار ، بل في أعماق كل إنسان يخشى مواجهة ظله ،

أغمض عينيه ، كان يسمع الريح فقط ، لكن قلبه كان يسمع شيئًا آخر ، ، ، صوت الخوف القديم ، ذلك الذي يسكن البشر منذ فجر التاريخ ،

X

وهكذا ، بقيت أسطورة الرجل الأرنب معلقة بين الحقيقة والخيال ،

لم تثبت التحقيقات وجود قاتل متسلسل ، ولا شبح يتجول كل عام ، ولم يُعثر على دليل حاسم يؤكد الروايات التي تناقلها الناس ،

ومع ذلك ، لم تمت الحكاية ، لأن بعض القصص لا تعيش بقوة الأدلة ، بل بقوة المخيلة الإنسانية ،

ولأن الأماكن ، حين تحتفظ بذكرى غامضة ، تتحول مع الزمن إلى مرايا يرى فيها كل إنسان ما يحمله في داخله من خوف ، أو فضول ، أو وحدة ،

لقد بقي جسر كولشيستر شاهدًا صامتًا على حادثتين موثقتين ، وعلى مئات الروايات التي وُلدت بعدهما ، أما الرجل الأرنب ، فقد صار رمزًا اجتماعيًا ونفسيًا يذكّر بأن الشائعة قد تكبر حتى تصبح أسطورة ، وأن الخيال ، حين يمتزج بالقلق الجمعي ، يستطيع أن يمنح حادثة عابرة حياةً تمتد لعقود ،

وهكذا انتهت الحكاية ، ، ، أو لعلها لم تنتهِ أبدًا ،

فكلما أقبل الخريف ، وهبط الليل على غابات فيرفاكس ، ومرّت الريح تحت جسر كولشيستر ، يعود السؤال نفسه ليهمس في آذان العابرين : **هل ما يخيفنا حقًا هو الرجل الأرنب ، ، ، أم ذلك الظل الذي يسكن أعماقنا نحن؟**

حين قاد الدعاءُ الغيثَ والطريق

كانت بعض الرحلات تبدأ بخطوة ، وبعضها يبدأ بقرار ، أما هذه الرحلة فقد بدأت بدعوةٍ خرجت من قلب امرأةٍ عجوز ، ثم مضت تشق السماء قبل أن تهبط إلى الأرض في صورة صاعقة ، ومطر ، وطريقٍ ضائع ، وبيتٍ صغيرٍ يكاد يختبئ بين التلال ،

في صباحٍ من صباحات الخريف ، حين كانت السماء تلبس زرقةً صافيةً لا توحي بشيءٍ من الغضب ، استيقظت المدينة الكبرى على إيقاع الحياة السريع ، كانت الشوارع تعج بالسيارات ، والمطار يعج بالمسافرين ، والناس يركضون خلف مواعيدهم كما لو أن الزمن يطاردهم ،

في ذلك الصباح ، خرج الدكتور **إيشان** من منزله على عجل ، كان واحدًا من أشهر جرّاحي العالم ، ذاع صيته حتى تجاوز حدود

وطنه ، وصارت عملياته تُدرَّس في الجامعات ، وأبحاثه تُترجم إلى لغات كثيرة ، وكان اليوم موعدًا استثنائيًا في حياته ؛ إذ دُعي إلى مؤتمر طبي دولي سيُكرَّم فيه تقديرًا لإنجازاته النادرة في جراحة الأطفال ،

كان يحمل حقيبته الصغيرة ، بينما كانت الأفكار تتزاحم في رأسه ،

سنواتٌ طويلة من السهر ، والبحث ، والعمليات الشاقة ، ، ، اليوم تُكلَّل الرحلة بالتقدير ، لكن ما قيمة التكريم إن كان مريضٌ ينتظرني ؟ هل يستطيع الطبيب أن يخرج من عباءة مسؤوليته يومًا ؟

ابتسم ابتسامةً خفيفة ، ثم مضى إلى الطائرة ،

بعد ساعةٍ من التحليق ، وبينما كانت الطائرة تشق السحب البيضاء في هدوء ، دوّى صوت قائدها عبر مكبرات الصوت :

أيها السادة ، ، ، نعتذر إليكم ، لقد أصابت الطائرة صاعقةٌ جوية أدت إلى عطلٍ فني ، وسنضطر إلى الهبوط اضطراريًا في أقرب مطار حفاظًا على سلامتكم ،

ساد الصمت ، تبادل الركاب النظرات القلقة ، بينما أغمض إيشان عينيه قليلًا ،

ليس اليوم ، ، ، أرجو ألا يكون اليوم ،

هبطت الطائرة بسلام ، لكن الإعلان التالي كان أشد وقعًا ،

لن تقلع أي رحلة بديلة قبل ست عشرة ساعة ،

أسرع الطبيب إلى مكتب الاستعلامات ، وقد ارتسم الضيق على ملامحه ،

قال بصوتٍ حاول أن يخفي انفعاله :

أنا جرّاح ، وكل دقيقة قد تعني حياة إنسان ، لا أستطيع الانتظار كل هذه الساعات ،

نظر إليه الموظف بهدوء وقال : أقدّر موقفك يا دكتور ، لكن الأمر خارج إرادتنا ، إن كنت مستعجلًا ، يمكنك استئجار سيارة ، وجهتك تبعد نحو ثلاث ساعات فقط ،

لم يكن أمامه خيار ،

استأجر سيارة ، وانطلق ،

كانت الشمس تميل نحو المغيب حين تبدّل وجه السماء فجأة ،

تجمعت الغيوم السوداء ، وهبت الرياح ، ثم انهمر المطر غزيرًا حتى صار الزجاج الأمامي ستارًا من الماء ،

تضاءلت الرؤية شيئًا فشيئًا ،

صار الطريق يختفي ويظهر ، انعطف مراتٍ كثيرة ، ثم اكتشف بعد ساعتين أنه لم يعد يعرف أين هو ،

أوقف السيارة ،

ساد صمتٌ ثقيل لا يقطعه إلا هدير المطر ،

بدأ التعب ينهش جسده ، وأحس بجوعٍ لم يشعر به منذ الصباح ،

قال في نفسه :

كم هو غريب ، ، ، أنا الذي اعتدت أن أوجّه الآخرين في غرف العمليات ، أعجز الآن عن العثور على طريق !

رفع رأسه ، فإذا بضوءٍ خافت يلوح من بعيد ، كان بيتًا صغيرًا يقف وحيدًا وسط الحقول المبتلة ،

اقترب ، وطرق الباب ،

جاءه صوت امرأة عجوز ، دافئ رغم وهنه : ى ادخل يا بني ، ، ، فالبيت لا يُغلق في وجه عابر سبيل ،

دخل ،

كان البيت بسيطًا إلى حدٍّ يلامس الفقر ،

جدرانٌ طينية ، وسقفٌ خشبي قديم ، ومدفأة صغيرة ، ورائحة خبزٍ ساخن تعبق في المكان ،

جلست امرأة تجاوزت الثمانين على كرسيٍ خشبي ، كانت ملامحها مجعّدة كالأرض التي شققتها السنون ، لكن عينيها بقيتا صافيتين تشعان سكينةً وإيمانًا ،

اقترب منها وقال : لو سمحتِ ، ، ، هل يمكنني استخدام الهاتف ؟

ضحكت برفق ،

أي هاتفٍ يا بني؟ نحن هنا لا نملك كهرباء أصلًا ،

ثم أشارت إلى المائدة ، لكن الشاي ساخن ، ، ، والطعام حاضر ، ، ، والغريب ضيف الله قبل أن يكون ضيفنا ،

شعر الطبيب بالخجل ، جلس يأكل بصمت ،

وكانت العجوز تراقبه بعين الأم التي تعرف أن الجائع يحتاج إلى الطعام قبل الكلام ،

بعد قليل ، قامت العجوز تتوضأ ، ثم وقفت تصلي ،

طال سجودها ، طال دعاؤها ،

وكانت ، بين ركعةٍ وأخرى ، تتجه نحو سريرٍ صغير في زاوية الغرفة ، تهدهد طفلًا نائمًا لا يتحرك ،

كان وجه الطفل شاحبًا ، وأنفاسه بطيئة ، وجسده هزيلًا بصورة مؤلمة ،

ظل الطبيب يراقب المشهد ،

ثم قال في نفسه : كم رأيت من المرضى ، ، ، لكن هذا الصبر الذي أراه الآن لم أره في مستشفى قط ،

انتهت العجوز من صلاتها ،

ابتسم لها وقال : أسأل الله أن يستجيب دعاءك كله ،

ابتسمت ابتسامةً حزينة ،

وقالت : لقد استجاب الله معظم دعواتي يا ولدي ، ، ، إلا دعوةً واحدة ،

سألها برفق : وما هي ؟

جلست قرب الطفل ، وربتت على رأسه ،

وقالت : هذا حفيدي ،

ساد الصمت ،

ثم تابعت بصوتٍ متهدج : مات أبوه في حادث ، ثم لحقت به أمه بعد أشهرٍ من المرض ، فلم يبق له في الدنيا غيري ،

تنهدت ،

ثم أصابه هذا المرض ،

انسابت دمعة على خدها ،

طرقت أبواب الأطباء ، وبعت ما أملك ، حتى خاتم زواجي بعته ، لكن الجميع قالوا إن حالته معقدة ،

سكتت لحظة ،

ثم أضافت : قالوا لي إن طبيبًا واحدًا في الدنيا يستطيع إجراء هذه الجراحة ،

رفع إيشان رأسه ببطء ،

ومن هو ؟

قالت وهي تنظر إلى السماء : اسمه الدكتور إيشان ،

تجمدت أنفاسه ،

أما هي فأكملت : لكنه يعيش بعيدًا ، وأنا امرأة فقيرة ، لا أستطيع السفر ، ولا أملك أجرة الطريق ،

أطرقت رأسها ،

فلم أجد إلا الدعاء ،

ثم رفعت كفيها ،

قلت : يا رب ، ، ، إن كنت تعلم أن شفاء هذا الطفل على يد ذلك الطبيب ، فأتِ به إلينا كما تشاء أنت ، فأنت رب الأسباب ،

شعر إيشان بأن الكلمات تهبط على قلبه كالمطر ،

اختنق صوته ، وأخذ ينظر إلى المرأة ، ثم إلى الطفل ، ثم إلى السماء التي كانت لا تزال تمطر خارج النافذة ،

دار في داخله حديثٌ طويل ،

كنت أظن أنني أصل إلى مرضاي بقراراتي ، ، ، وأن نجاحي ثمرة علمي وحده ، ، ، لكنني اليوم أقف أمام حقيقةٍ أكبر من كل ما تعلمته ، هناك يدٌ خفية تقود الخطوات ، وتكتب اللقاءات ، وتصنع الطرق التي نعجز عن فهمها ،

اقترب من العجوز ، جثا على ركبتيه أمامها ،

وقال والدموع في عينيه : يا أماه ، ، ،

نظرت إليه باستغراب ،

قال : أنا ، ، ، إيشان ،

ساد صمتٌ عميق ، كأن الزمن توقف ،

حدقت فيه طويلًا ، ثم ارتجفت شفتاها ،

وقالت بصوتٍ يكاد لا يُسمع : أأنت ، ، ، حقًا ؟

أومأ برأسه ،

وقال : والله ، ، ، إن دعاءك هو الذي أوقف الطائرة ، وأرسل الصاعقة ، وأنزل المطر ، وأضلني الطريق ، حتى أقف الآن أمام بابك ،

انهمرت دموع العجوز ، ورفعت يديها إلى السماء ،

لم تقل شيئًا ،

كان البكاء أبلغ من كل الكلمات ،

X

في صباح اليوم التالي ، نقل الطبيب الطفل إلى أقرب مستشفى مجهز ،

أجرى له الفحوص اللازمة ، ثم أشرف بنفسه على العملية ،

استغرقت الجراحة ساعاتٍ طويلة ، وقف خلالها الأطباء يتابعون مهارة الرجل الذي طالما قرؤوا عنه في الكتب ،

وخارج غرفة العمليات ، كانت العجوز تمسك مسبحتها ، وتتمتم بالدعاء في سكينة المؤمن الذي سلّم أمره كله لله ،

وحين خرج الطبيب ، كانت الابتسامة تسبق كلماته ،

قال : لقد نجحت العملية ،

شهقت العجوز ، ثم خرّت ساجدةً لله ،

ولم تكن تلك السجدة شكرًا على شفاء حفيدها وحده ، بل لأنها أيقنت أن الله لا يرد قلبًا صدق في رجائه ، وإن تأخر الجواب ،

X

عاد الطبيب بعد أيام إلى المؤتمر الدولي ،

وقف على المنصة وسط تصفيق الحضور ،

كان الجميع ينتظرون أن يتحدث عن أحدث تقنيات الجراحة ، أو عن إنجازاته العلمية ،

لكنه قال بهدوء : تعلمت في الجامعات كيف أعالج الأجساد ، لكنني قبل أيام تعلمت في بيتٍ طيني صغير درسًا لم أجده في أي كتاب ،

ساد الصمت ،

ثم تابع : العلم يصنع الأسباب ، أما الله فيصنع الطريق إلى الأسباب ، وقد يبلغ الإنسان ما يريد بعلمه ، لكنه لا يبلغ شيئًا إلا بإذن الله ،

واختتم كلمته قائلاً : لا تحتقروا دعوةً خرجت من قلبٍ مكسور ، ولا تظنوا أن الأبواب المغلقة تعني استحالة الوصول ، فقد يغيّر الله مجرى الأحداث كلها استجابةً لدمعة صادقة ، أو رجاءٍ خالص ، أو دعاءٍ رفعه ضعيف لا يملك من الدنيا إلا يقينه ،

ومنذ ذلك اليوم ، كلما سمع إيشان هدير طائرة ، أو رأى غيمةً تمطر ، أو لمح طريقًا ريفيًا موحشًا ، تذكر تلك الليلة التي اكتشف فيها أن أعظم الرحلات ليست تلك التي تقطعها الأقدام ، بل تلك التي تقودها رحمة الله ، وأن الدعاء الصادق قد يعبر السماء أسرع من البرق ، ثم يعود إلى الأرض رحمةً ، وشفاءً ، وحياةً جديدة ،

الأصلع والبعوضة

حين يكون الانتقام صفعةً على وجه صاحبه

كان الليل هادئًا ، والهواء يمر فوق الأشجار كأنه يداعب أوراقها برفق ، وفي طرف القرية جلس رجل أصلع تحت شجرة قديمة ، يبحث عن قليل من الراحة بعد يوم طويل ،

كان اسمه سالم ،

لم يكن سالم رجلًا شريرًا ، ولا محبًا للمشكلات ، لكنه كان سريع الغضب إذا شعر أن أحدًا أساء إليه ، وكان يقول دائمًا : أنا لا أبدأ الأذى ، لكنني لا أسمح لأحد أن يعتدي عليّ ،

وكان أهل القرية يعرفون هذه الصفة فيه ، فإذا غضب ، ضاق صدره ، وارتفع صوته ، وصار الشيء الصغير في عينيه كبيرًا كالجبل ،

في تلك الليلة ، كان سالم متعبًا ، أغمض عينيه ، وأسند ظهره إلى جذع الشجرة ، وترك جسده يستسلم للهدوء ،

وفجأة ، ، ، لسعته بعوضة في رأسه ، فتح عينيه بسرعة ، رفع يده وضرب مكان اللسعة ، لكن البعوضة طارت ،

تلفت سالم حوله ، ثم تمتم غاضبًا : أين ذهبت ؟

لم يجد شيئًا ، عاد إلى مكانه ،

وبعد لحظات ، عادت البعوضة مرة أخرى ، وحطت على رأسه ولسعته في موضع آخر ،

ضرب سالم رأسه بعنف ، هربت البعوضة ،

سكت قليلًا ، ثم قال : هذه المرة لن أفلتك ،

ضحكت البعوضة ، أو هكذا خُيّل إليه ، وقالت : ولماذا كل هذا الغضب ؟

تلفت سالم حوله ،

من يتكلم ؟

قالت : أنا ،

أنت ؟!

نعم ، أنا البعوضة التي أزعجتك ،

غضب سالم أكثر ، وقال : تجرئين على السخرية مني بعد أن لسعتني ؟

قالت البعوضة بهدوء : أنا لم أقصد أن أؤذيك كما تتصور ، لسعتك لأنني أبحث عن غذائي ، وأنت تعلم أنني بعوضة ، لكنك الآن تضرب رأسك بيدك ، وقد تؤلم نفسك أكثر مما آلمتك اللسعة ،

نظر سالم إلى يده ، ثم إلى البعوضة ،

ثم قال : حتى لو تألمت ، فأنا مستعد لتحمل الألم في سبيل أن أقضي عليك ،

سكتت البعوضة لحظة ،

ثم قالت : وهل أصبح الانتقام عندك أهم من سلامتك ؟

لم يجب سالم ،

كان السؤال بسيطًا ، لكنه أصاب مكانًا عميقًا في نفسه ،

فكم مرة كان الإنسان ينسى الأذى الحقيقي ، وينشغل بالرغبة في ردّه ؟

اقتربت البعوضة من سالم وقالت : لقد لسعتك لسعة صغيرة ، فأردت أن تعاقبني بضربة قد تؤلمك أنت ، أخبرني : من الذي ينتصر هنا ؟

قال سالم : أنا ، لأنني سأقتلك ،

أجابته : وإذا قتلتني وأصبت رأسك ، فهل خرجت من المعركة سالمًا ؟

صمت سالم ،

كانت أول مرة يسمع فيها شخصًا ـ حتى لو كان بعوضة ـ يضع أمامه مرآة يرى فيها غضبه ،

اللسعة الصغيرة والغضب الكبير

جلس سالم يفكر ،

كانت اللسعة صغيرة جدًا ، لكنها أشعلت في صدره نارًا كبيرة ،

تذكر مواقف كثيرة حدثت له في حياته ، تذكر يومًا اختلف فيه مع جاره بسبب غصن شجرة تجاوز سور البيت ، كان يستطيع أن يتحدث معه بهدوء ، لكنه صرخ في وجهه ، فرد الجار بالصراخ ، ثم تدخل أهل الحي ، وتحول الغصن الصغير إلى خصومة طويلة ،

وتذكر يومًا أخطأ فيه ابنه أمام بعض الناس ، شعر سالم بالحرج ، فضربه أمام الجميع ، بكى الطفل ، ومنذ ذلك اليوم صار يخاف من أبيه أكثر مما يحترمه ،

وتذكر صديقًا قديمًا أخطأ في حقه بكلمة عابرة ، لم يسأل سالم عن قصد ه ، بل قاطع صديقه سنوات كاملة ،

قال سالم لنفسه : هل كانت كل هذه الأمور تستحق كل ذلك الغضب ؟

سمع البعوضة تقول : المشكلة ليست دائمًا في حجم اللسعة ، بل في حجم الغضب الذي نضعه فوقها ،

نظر سالم إليها ،

قال :لكن كيف أترك من يؤذيني دون رد ؟ أليس السكوت ضعفًا ؟

قالت : ليس كل رد قوة ، وليس كل سكوت ضعفًا ،

ثم تابعت : هناك فرق بين أن تدافع عن نفسك ، وبين أن تنتقم لنفسك ، الدفاع يحميك ، أما الانتقام فقد يجعلك تشبه من أساء إليك ،

كانت كلماتها غريبة على سالم ،

قال : وكيف أعرف الفرق ؟

أجابته : اسأل نفسك قبل أن ترد : هل أريد أن أصلح الأمر ، أم أريد فقط أن أجعل الآخر يتألم ؟

ظل سالم صامتًا ،

كانت تلك لحظة تربوية نادرة؛ فالإنسان لا يتغير حين يسمع النصيحة فقط ، بل حين يبدأ في اكتشاف الحقيقة بنفسه ،

كان سالم يظن أن الغضب قوة ،

كان يعتقد أن الشخص الذي يرفع صوته هو الأقوى ، وأن من يرد بسرعة يحفظ كرامته ، وأن التسامح يعني أن الآخرين يستطيعون استغلاله ،

لكن السنوات علمته شيئًا آخر ، وإن لم ينتبه إليه من قبل ،

الغضب الذي لا نضبطه لا يجعلنا أقوياء ، بل يجعل الآخرين قادرين على التحكم فينا ، فمن يستطيع أن يستفزك بكلمة ، يستطيع أن يحركك كما يشاء ،

وهذا يحدث في حياتنا كل يوم ،

قد يكتب شخص تعليقًا ساخرًا على مواقع التواصل ، فيرد عليه آخر بكلمات أقسى ، ثم يتحول الحوار إلى شتائم ، وبعد دقائق يجد الطرفان نفسيهما في معركة لا يعرف أحد كيف بدأت ،

وقد يخطئ موظف في عمله ، فيصرخ المدير في وجهه بدل أن يفهم سبب الخطأ ، فيخاف الموظف ، لكنه لا يتعلم ،

وقد يختلف زوجان حول أمر بسيط ، فيستدعي كل واحد منهما أخطاء السنوات الماضية ، فيتحول الخلاف حول كوب أو موعد أو كلمة إلى جرح قديم مفتوح ،

وقد يختلف طفلان في المدرسة ، فيعاقب أحدهما الآخر بالضرب ، ثم يدخل الأصدقاء في النزاع ، فيصبح الخلاف الصغير مشكلة بين مجموعتين ،

في كل هذه المواقف توجد بعوضة ، ليست بعوضة حقيقية ، بل موقف صغير ، كلمة عابرة ، خطأ غير مقصود ، استفزاز ، سوء فهم ، أو تصرف مزعج ،

والسؤال ليس: هل لسعتني البعوضة ؟

السؤال الأهم : **ماذا سأفعل بعد اللسعة؟**

قال سالم : لكنني ما زلت أرى أنك مخطئة ، لقد أزعجتني ،

قالت البعوضة : ربما ،

إذن لماذا لا أضربك ؟

قالت : لأن الخطأ لا يجعل الانتقام صحيحًا دائمًا ،

ثم أضافت : هناك أخطاء تقع من غير قصد ، وهناك أخطاء يتعمد أصحابها إيذاء الآخرين ، الحكمة أن تفرق بينهما ،

تأمل سالم كلامها ،

كان هذا التفريق مهمًا ، فليس من العدل أن نعاقب إنسانًا لأنه أخطأ دون قصد كما نعاقب من تعمد الأذى ،

الطفل الذي كسر شيئًا في البيت أثناء اللعب ليس كمن كسره عمدًا ، والصديق الذي قال كلمة جارحة دون أن يقصد الإساءة ليس كمن اختار كلماته ليؤلمك ، والموظف الذي نسي أمرًا مهمًا ليس كمن تعمد

إفساده ، والإنسان الذي يختلف معك في الرأي ليس عدوًا لمجرد أنه لا يفكر مثلك ،

إن التربية الحقيقية لا تعلم الإنسان أن يغضب من الخطأ ، بل تعلمه أن يفهم الخطأ ، وأن يقدر درجته ، وأن يختار الاستجابة المناسبة ،

فالعدل يحتاج إلى عقل ، لا إلى غضب فقط ،

اقتربت البعوضة من سالم مرة أخرى ، لكنها هذه المرة لم تلسعه ،

قالت : هل تعرف ما أصعب شيء ؟

قال : أن تمنع نفسك من قتلي ؟

ضحكت ،

لا ، أصعب شيء أن تنتصر على نفسك ،

رفع سالم حاجبيه ،

قالت : أن تكون قادرًا على الرد ، ثم تختار الرد الحكيم ، أن تكون غاضبًا ، ثم لا تجعل الغضب يتحدث بدلًا منك ، أن تستطيع إيذاء من آذاك ، ثم تسأل أولًا : هل سيجعل ذلك العالم أفضل ؟

شعر سالم أن هذه الكلمات تمس حياته كلها ،

لقد كان يعرف كيف ينتصر على الآخرين ، لكنه لم يتعلم دائمًا كيف ينتصر على غضبه ، وهنا تكمن إحدى أصعب مهارات التربية ،

فالطفل لا يحتاج فقط إلى أن يعرف ما هو الخطأ ، بل يحتاج إلى أن يتعلم ماذا يفعل عندما يغضب ، والشاب لا يحتاج فقط إلى نصيحة تقول له : لا تتشاجر ، بل يحتاج إلى أدوات عملية : أن يتوقف ، أن يتنفس ، أن يؤجل الرد ، أن يشرح ما أزعجه ، أن يطلب المساعدة ، وأن يعرف متى يكون الدفاع عن النفس ضروريًا ، ومتى يكون الانسحاب حكمة ،

والكبار كذلك ، فالإنسان لا يكبر بمجرد مرور السنوات ، بل يكبر حين يتعلم كيف يدير مشاعره ،

فكر سالم في الأمر بطريقة مختلفة ،

لو ضرب رأسه عشر مرات ، فهل كانت البعوضة ستصبح أكثر خطورة ؟ لا ،

ولو غضب ساعة كاملة ، فهل ستصبح اللسعة أكبر؟ لا ،

ولو تحدث عنها أمام الناس طوال الليل ، فلن تتغير الحقيقة ،

اللسعة حدثت وانتهت ،

لكن سالم كان يستطيع أن يختار ما بعد الحدث ،

وهذه نقطة مهمة في حياة الإنسان : **نحن لا نتحكم دائمًا فيما يحدث لنا ، لكننا نستطيع أن نتعلم التحكم في استجابتنا له ،**

قد يسيء إليك شخص ، قد يرفضك آخر ، قد يفهمك أحدهم بطريقة خاطئة ، قد تخسر فرصة ، قد تفشل في تجربة ، قد تسمع كلمة قاسية ،

لكن هذه الأحداث لا تملك وحدها أن تحدد مستقبلك ،

الاستجابة هي التي تصنع الفرق ،

فقد يحول إنسان الإساءة إلى درس ، وقد يحولها آخر إلى كراهية ، وقد يحول الفشل إلى بداية ، وقد يحوله آخر إلى يأس ، وقد يحول الغضب إلى قرار حكيم ، وقد يحوله شخص آخر إلى سلسلة طويلة من الأخطاء ،

X

في صباح اليوم التالي ، خرج سالم من بيته ، كان يحمل سلة صغيرة ، متجهًا إلى السوق ،

وفي الطريق رأى رجلًا شابًا يصطدم بامرأة مسنة ، فسقطت بعض حاجاتها على الأرض ،

قال الشاب بسرعة : لم أقصد !

لكن المرأة غضبت وبدأت ترفع صوتها ،

توقف سالم ، للحظة شعر بالغضب بدلًا عنها ، ثم تذكر البعوضة ،

قال للمرأة :

اهدئي يا أمي ، لقد قال إنه لم يقصد ، دعينا نرى إن كانت حاجاتك قد تلفت ،

ثم التفت إلى الشاب : والاعتذار لا يكفي وحده ، ساعدها في جمع ما سقط ،

نظر الشاب إلى سالم ، ثم انحنى يساعد المرأة ،

بعد دقائق انتهى الموقف ،

قالت المرأة : شكرًا لك ،

ابتسم سالم ،

في طريقه ، شعر بشيء جديد ، لم يكن قد انتصر على أحد ، لكنه شعر أنه انتصر على شيء داخله ،

وهذا النوع من الانتصار لا يصفق له الناس ، ولا تكتب عنه الصحف ، لكنه قد يغير حياة الإنسان ،

X

عاد سالم إلى البيت ، فوجد ابنه قد كسر إناءً كان يحبه ،

تغير وجهه ، نظر إلى الإناء المكسور ، ثم نظر إلى ابنه ، كان الطفل ينتظر الصراخ ، وكان سالم نفسه ينتظر أن يغضب ، لكنه تذكر اللسعة ،

أخذ نفسًا طويلًا وقال : هل فعلت ذلك عمدًا ؟

هز الطفل رأسه : لا يا أبي ،

ماذا حدث ؟

شرح الطفل ما جرى ،

جلس سالم إلى جواره وقال : الإناء يمكن تعويضه ، لكنني أريدك أن تتعلم شيئًا ، عندما تخطئ ، لا تهرب من الخطأ ، أخبرني ،

قال الطفل : لن تضربني ؟

توقف سالم لحظة ،

كان السؤال أثقل من الإناء المكسور ،

فقال : سأغضب أحيانًا ، لأنني إنسان ، لكنني سأحاول ألا أجعل غضبي يؤذيك ،

ثم أضاف : وأنت أيضًا ، عندما تكبر ، تعلم أن تغضب دون أن تؤذي ،

اقترب الطفل من أبيه ،

وفي تلك اللحظة فهم سالم أن التربية ليست خطبة طويلة يلقيها الأب على ابنه ،

التربية موقف ، نبرة صوت ، طريقة اعتذار ، كيفية التعامل مع الخطأ ،

قد يتعلم الطفل من غضب أبيه أكثر مما يتعلم من مئة نصيحة عن الهدوء ، وقد يتعلم من اعتذار المعلم أكثر مما يتعلم من درس كامل عن التواضع ، وقد يتعلم الإنسان من طريقة والديه في حل الخلافات كيف يبني علاقاته حين يكبر ،

X

مرت الأيام ،

وفي كل مرة كان سالم يتعرض لموقف يثير غضبه ، كان يتخيل البعوضة وهي تقول : هل ستضرب رأسك مرة أخرى ؟

ذات يوم اختلف مع بائع في السوق ، وفي يوم آخر أخطأ أحدهم في حقه ، وفي يوم ثالث سمع رجلًا يتحدث عنه بكلام لم يعجبه ، وفي كل مرة كانت البعوضة تظهر في خياله ،

لم تختفِ المشكلات من حياته ، لكنه بدأ يتغير ،

وهذا هو معنى التربية الحقيقية ،

التربية لا تصنع عالمًا بلا مشكلات ، لأن ذلك العالم غير موجود ،

إنها تصنع إنسانًا يستطيع أن يعيش في عالم مليء بالمشكلات دون أن يتحول هو نفسه إلى مشكلة ،

فالهدف ليس أن تمنع الناس من إزعاجك ، بل أن تمنح نفسك القدرة على التعامل مع الإزعاج بحكمة ،

X

في أحد الأيام سأل سالم البعوضة : هل تريدين مني أن أسامح الجميع ، حتى من يتعمد إيذائي ؟

قالت : لا ،

تعجب ،

تابعت : التسامح ليس أن تسمح للآخرين بتكرار الظلم ،

ثم قالت : يمكنك أن تسامح شخصًا ، وفي الوقت نفسه تضع حدودًا واضحة أمامه ، ويمكنك أن تعفو عن خطأ ، وفي الوقت نفسه تمنع تكراره ، ويمكنك أن تدافع عن نفسك دون أن تتحول إلى شخص مؤذٍ ،

كان هذا أكثر ما احتاج سالم إلى فهمه ،

فاللين ليس ضعفًا ، والحزم ليس قسوة ، والتسامح ليس استسلامًا ، والعدالة ليست انتقامًا ،

قد تحتاج إلى أن تقول : هذا التصرف غير مقبول ، وقد تحتاج إلى أن تبتعد عن شخص مؤذٍ ، وقد تحتاج إلى أن تطلب حقك ، وقد تحتاج إلى أن تمنع الظلم عن نفسك أو عن غيرك ،

لكن حتى في هذه المواقف ، لا ينبغي أن يصبح الغضب هو القائد ،

العقل هو الذي يحدد الوسيلة ، والقيم هي التي ترسم الحدود ،

X

في إحدى الليالي ، عاد سالم إلى المكان نفسه تحت الشجرة ،

جلس وحده ، كانت السماء مليئة بالنجوم ،

قال : أيتها البعوضة ، أين أنت ؟

لم تجبه ،

ابتسم ،

كان يعرف أنها ربما لم تكن تتكلم حقًا ، ربما كان كل الحوار الذي دار بينهما حوارًا داخل نفسه ، وربما كانت البعوضة مجرد مخلوق صغير مر في حياته ليوقظ فيه فكرة كبيرة ،

وهذا ما تفعله بعض الأحداث الصغيرة في حياتنا ، حادث بسيط قد يغير نظرتنا إلى العالم ، كلمة عابرة قد تفتح بابًا من التفكير ، طفل قد يعلم أباه درسًا ، خطأ قد يصبح بداية نضج ، وخصومة صغيرة قد تكشف لنا عيبًا في أنفسنا لم نكن نراه ،

نظر سالم إلى السماء وقال : كنت أظن أنني كنت أقاتل بعوضة ، لكنني كنت أقاتل غضبي ،

ثم ضحك ،

وأضاف : وكنت أظن أنني إذا ضربتها سأنتصر ، ثم اكتشفت أن الانتصار الحقيقي أن لا أضرب نفسي ،

X

حكاية الأصلع والبعوضة تبدو في ظاهرها حكاية بسيطة عن رجل لدغته بعوضة ، فغضب وضرب المكان الذي لسعته فيه ،

لكن وراء هذه الصورة الصغيرة فكرة واسعة تمتد إلى الأسرة والمدرسة والعمل والمجتمع ،

فكم من إنسان يؤذي نفسه وهو يظن أنه ينتقم من غيره ؟ وكم من خصومة بدأت بكلمة وانتهت بقطيعة ؟ وكم من طفل عوقب بعنف لأنه أخطأ خطأً صغيرًا ؟ وكم من صديق خسرناه لأننا صدقنا غضبنا قبل أن نسأل عن الحقيقة ؟ وكم من خلاف كان يمكن أن ينتهي بكلمة هادئة ، لكنه تحول إلى معركة لأن كل طرف أراد أن يثبت أنه الأقوى ؟

إن الإنسان الناضج ليس من لا يغضب ،

فالإنسان يغضب ، ويحزن ، ويتألم ، ويشعر بالظلم ،

لكن النضج أن يعرف ماذا يفعل بهذه المشاعر ، أن يتوقف قبل أن يرد ، أن يفكر قبل أن يحكم ، أن يفرق بين الخطأ المتعمد والخطأ غير المقصود ، أن يطلب حقه دون أن يتحول إلى ظالم ،

أن يعفو حين يكون العفو إصلاحًا ، وأن يضع الحدود حين تكون الحدود حماية ، وأن يعرف أن بعض الأعداء لا يستحقون حتى أن نمنحهم من أعصابنا ووقتنا ،

فالبعوضة لا تحتاج إلى حرب ، والكلمة العابرة لا تحتاج إلى قطيعة ، والخطأ الصغير لا يحتاج إلى عقوبة كبيرة ، والاختلاف لا يحتاج إلى كراهية ،

أما إذا كان الأذى متعمدًا ومتكررًا ، فالحكمة لا تعني تجاهله ، بل التعامل معه بالعدل والحزم ، من غير أن يسمح الإنسان للغضب أن يسلبه إنسانيته ،

لقد كانت لسعة البعوضة صغيرة ، لكنها تركت في سالم درسًا كبيرًا : **لا تجعل أذى الآخرين سببًا في أن تؤذي نفسك ،**

وإذا اضطررت يومًا إلى مواجهة من ظلمك ، فواجهه بعقل ثابت ، وقلب لا يحمل الحقد ، ويد لا تبحث عن الانتقام ،

فليس أقوى الناس من يرد الضربة بضربة ، أقواهم من يعرف متى يرد ، وكيف يرد ، ولماذا يرد ،

وأحيانًا ، ، ، يكون أعظم انتصار أن تترك البعوضة تطير ،

ثم تمضي أنت في طريقك ، بلا غضب ، بلا كراهية ، وبلا صفعة جديدة على رأسك ،

رائحةٌ بقيت في الجَرّة

حكاية عن أثر التربية ، وما يبقى من الإنسان بعد أن يرحل

في آخر الزقاق لا ، حيث كانت البيوت القديمة تتكئ على بعضها كأنها تتبادل أسرارًا لا تريد للغرباء أن يسمعوها ، كانت هناك جَرّةٌ كبيرة ملقاة عند باب مخزن مهجور ،

لم تكن الجَرّة جميلة ،

كان الطين قد تشقق على جوانبها ، وغاب بعض لونها تحت طبقة من الغبار ، وعلى فمها أثر قديم لطلاء أخضر باهت ، ومع ذلك ، كانت تقف هناك بصمت ، كأنها تنتظر شخصًا يعرف قصتها ،

وفي صباح شتوي هادئ ، مرت بها امرأة عجوز اسمها **سلمى** ،

كانت سلمى تمشي كل يوم في الزقاق نفسه ، تحمل كيسًا صغيرًا من القماش ، وتعود به إلى بيتها قبل أن تشتد حرارة النهار ، عرفها أهل الحي امرأة كثيرة الصمت ، قليلة الشكوى ، واسعة الملاحظة ،

لكن شيئًا غريبًا حدث في ذلك الصباح ،

توقفت سلمى أمام الجَرّة ، انحنت قليلًا ، وأزاحت الغبار عن فمها ، ثم قربت وجهها منها ،

تنفست ، وفجأة ابتسمت ،

قالت : ما أطيبك!

تعجب صبي كان يمر قريبًا منها ، فقال : لكنها فارغة يا خالة سلمى!

نظرت إليه ، ثم عادت تشم الجَرّة ،

وقالت : فارغة من الشراب ، نعم ، لكنها ليست فارغة من الأثر ،

ضحك الصبي ،

وكيف يكون للفراغ رائحة ؟

رفعت سلمى رأسها وقالت :

يا بني ، بعض الأشياء تنتهي ولا تنتهي ، قد يغادر الشيء المكان ، لكن أثره يبقى فيه ، وقد يموت الإنسان ، وتبقى منه كلمة ، وقد يرحل المعلم ، وتظل طريقته في قلب تلميذه ، وقد يكبر الطفل ، لكن ما زرعناه فيه حين كان صغيرًا يظل يكبر معه ،

لم يفهم الصبي كلامها كله ، لكنه لم يضحك هذه المرة ،

جلس قرب الجَرّة ، وقال : وماذا كان فيها ؟

مسحت سلمى يدها بطرف ثوبها ، وجلست إلى جواره ،

قالت : لا أعرف ،

ثم ابتسمت وأضافت : لكنني أعرف أن ما كان فيها كان قويًا بما يكفي ليترك رائحته بعد أن غاب ،

X

كان اسم الصبي **ياسين** ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، سريع الغضب ، سريع النسيان ، يحب أن يكون أول الناس في كل شيء ، فإذا لم يحصل على ما يريد رمى كلامًا قاسيًا كالحجارة ، ثم نسيه بعد دقائق ،

وكان ياسين يرى أن الكبار يكثرون من الكلام ،

كن مؤدبًا ، احترم غيرك ، لا تكذب ، ساعد من يحتاج إليك ، لا تسخر من زميلك ،

وكان يسمع هذه الجمل كما يسمع صوت المطر خلف النافذة : موجودًا ، لكنه لا يعنيه كثيرًا ،

أما سلمى ، فكانت ترى شيئًا آخر ،

كانت تعرف أن التربية لا تدخل القلب بالصوت العالي ،

الطفل لا يتعلم فقط مما نقوله له ، بل مما يراه منا ونحن لا ننتبه ،

يتعلم من طريقة الأب حين يغضب ، ومن طريقة الأم حين تختلف مع جارتها ، ومن طريقة المعلم حين يخطئ أحد الطلاب ، ومن طريقة الأخ الأكبر حين يعترف بخطئه ، ومن طريقة الأسرة حين تتعامل مع عامل النظافة ، أو البائع ، أو الرجل الفقير الذي يقف عند الباب ،

فالطفل لا يحمل الكلمات وحدها ، إنه يحمل **المشهد** ،

ولهذا كانت سلمى تقول دائمًا : الطفل إناء صغير ، وكل ما نضعه فيه يترك أثرًا ،

وكانت الجَرّة القديمة بالنسبة إليها درسًا حيًا ،

X

في اليوم التالي ، جاء ياسين إلى سلمى ، وجدها جالسة أمام بيتها ، تنظف بعض الحبوب ،

قال : خالة سلمى ، هل الجَرّة كانت فيها خمرة فعلًا ؟

رفعت رأسها ،

ربما ،

إذن لماذا تمدحينها ؟

ضحكت ،

أنا لم أمدح الشراب ، يا ياسين ، أنا تأملت الأثر ،

وما الفرق؟

قالت : الفرق كبير ، قد يكون الشيء الذي مرّ بالإنسان سيئًا ، لكنه يترك لنا درسًا جيدًا ، وقد يكون الشيء جميلًا في ظاهره ، لكنه يترك وراءه ضررًا لا يُرى إلا بعد سنوات ،

سكت ياسين قليلًا ،

ثم قال : مثل ماذا ؟

أشارت إلى الشارع ،

انظر إلى الناس ،

مرّ رجل مسرعًا ، فصدم طفلًا صغيرًا دون أن يعتذر ،

وقالت سلمى : هذا الطفل سيتذكر المشهد ،

ومرّت امرأة ، فسقطت منها بعض الأكياس ، فتوقفت فتاة وساعدتها ،

قالت : وهذه الفتاة ستترك مشهدًا في قلب ذلك الطفل أيضًا ،

قال ياسين : لكنه سينسى ،

قالت : قد ينسى التفاصيل ، لكنه لن ينسى الشعور ،

ثم أضافت : التربية ليست دفترًا نكتب فيه التعليمات ، التربية آثار متراكمة ،

كانت هذه الجملة أكبر من عمر ياسين ، لكنه حملها معه ،

X

في المدرسة ، كان ياسين يجلس في الصف الأخير ،

وكان هناك طالب جديد اسمه **آدم** ، جاء آدم إلى المدرسة في منتصف العام الدراسي ، وكان ثيابه بسيطة ، وحقيبته قديمة ، وحذاؤه أكبر من مقاسه قليلًا ،

في أول يوم ، سأله أحد الطلاب : لماذا حقيبتك ممزقة ؟

ضحك آخر : ربما ورثتها عن جدك!

ضحك بعض الطلاب ،

وكان ياسين بينهم ، نظر آدم إلى الأرض ولم يقل شيئًا ،

في تلك اللحظة ، تذكر ياسين الجَرّة ، تذكر يد سلمى وهي تمسح الغبار عنها ،

وتذكر قولها : قد تنتهي الكلمة ، لكن أثرها يبقى ،

توقف عن الضحك ، لكنه لم يدافع عن آدم ،

فقط صمت ،

وفي المساء ، أخبر سلمى بما حدث ،

قالت : ولماذا لم تتكلم ؟

قال : خفت أن يسخروا مني أيضًا ،

هزت رأسها ،

وهذا طبيعي ،

فرح ياسين قليلًا ، ظنًا منه أنها ستعفيه من المسؤولية ،

لكنها قالت: الخوف طبيعي ، يا بني ، لكن الشجاعة ليست غياب الخوف ، الشجاعة أن تعرف أن شيئًا صحيحًا يجب أن تفعله ، فتفعله رغم خوفك ،

ثم أعطته كوب ماء ،

وقالت : لو رأيت طفلًا يغرق ، هل تنتظر حتى يختفي خوفك من الماء ؟

قال : لا ،

ولماذا ؟

لأن حياته أهم ،

قالت : وكذلك كرامة الإنسان ،

X

في اليوم التالي ، حدثت مشكلة أخرى ،

كان أحد الطلاب قد أخذ قلم آدم دون إذنه ،

قال آدم : هذا قلمي ،

رد الطالب : لا ، وجدته على الأرض ،

تدخل ياسين ،

قال : رأيتك تأخذه من حقيبته ،

ساد الصمت ،

نظر الطلاب إليه ، كان يعرف أن الكلام سيضعه في مشكلة ، لكن المعلم كان واقفًا عند الباب ، وقد سمع كل شيء ،

اقترب وقال : هل أنت متأكد مما تقول يا ياسين ؟

قال : نعم ،

ثم أعاد الطالب القلم ،

لم يحدث شيء كبير ، لم تهتز المدرسة ، ولم تصفق له السماء ، لكن شيئًا صغيرًا تغير في قلبه ،

لأول مرة ، اكتشف ياسين أن الإنسان يستطيع أن يشعر بالقوة دون أن يؤذي أحدًا ،

وفي طريق العودة ، مرّ بالجَرّة ، وقف أمامها ،

وقال : اليوم فهمت شيئًا ،

ضحكت سلمى من بعيد ،

ماذا فهمت ؟

قال : أن الإنسان يستطيع أن يكون قويًا من غير أن يكون قاسيًا ،

ابتسمت ،

الآن بدأت الجَرّة تمتلئ ،

ضحك ،

لكنها ما زالت فارغة!

قالت : في عينيك فقط ،

X

مرت السنوات ، كبر ياسين ، كبر معه الزقاق ، أو ربما صغر هو في عينيه ،

تغيرت المحال القديمة ، وهُدم بعضها ، وظهرت محلات جديدة ، وازدحمت الشوارع بالسيارات ، وصارت الهواتف في أيدي الناس أكثر من الكتب ،

أما الجَرّة ، فبقيت في مكانها ، لكنها لم تعد عند المخزن المهجور ،

نقلها أحد الجيران إلى حديقة صغيرة في طرف الحي ، ووضع فيها نباتًا أخضر ،

كانت الجَرّة نفسها قد تشققت أكثر ، لكنها أصبحت أجمل ،

وكان ياسين يمر بها كلما عاد إلى الحي ،

وفي أحد الأيام ، عاد رجلًا في الثلاثين من عمره ، كان يحمل حقيبة عمل ، ويرتدي ملابس بسيطة ، وقد بدا على وجهه التعب ،

دخل الحديقة ، فوجد طفلًا يجلس وحده ، كان الطفل غاضبًا ؛ لأن بعض زملائه سخروا من لهجته ،

جلس ياسين إلى جواره ،

قال : هل أنت بخير ؟

قال الطفل : لا ،

ماذا حدث ؟

حكى له ،

استمع ياسين دون أن يقاطعه ،

ثم قال : أعرف شعورك ،

نظر الطفل إليه ،

حقًا ؟

ابتسم ياسين ،

نعم ،

وسكت قليلًا ،

ثم قال : عندما كنت في عمرك ، كنت أضحك على طفل لأن حقيبته قديمة ،

سأله الطفل : وماذا حدث ؟

قال : اكتشفت بعد سنوات أن الضحكة التي أطلقتها في لحظة قصيرة قد تكون أثقل في قلب إنسان مما أتخيل ،

ثم أضاف : لذلك ، عندما ترى شخصًا مختلفًا عنك ، لا تسأل أولًا : لماذا هو مختلف ؟

اسأل: ماذا يمكن أن أتعلم منه ؟

كان الطفل يستمع ،

ولم يكن يعرف أن الرجل الذي أمامه كان يومًا ذلك الصبي الذي ضحك ،

في تلك الليلة ، عاد ياسين إلى بيت سلمى ، لكن الباب كان مغلقًا ، سأل عنها ،

قالت له جارة عجوز : سلمى رحلت قبل شهر ،

وقف ياسين طويلًا ، لم يتكلم ، نظر إلى الباب ،

كان يعرف أن الإنسان مهما بلغ من العمر يظل طفلًا أمام بعض الغيابات ،

دخل البيت بعد أن سمحت له الجارة ، كان كل شيء هادئًا ، كرسي ، مسبحة ، كتاب قديم ، كوب صغير ، ومنديل مطوي بعناية ،

جلس ياسين على الكرسي الذي كانت تجلس عليه سلمى ،

وفجأة شعر أن البيت كله يحمل رائحتها ، لم تكن رائحة عطر ، كانت رائحة حضور ،

تذكر الجَرّة ،

وتذكر صباحًا بعيدًا حين قالت : بعض الأشياء تنتهي ولا تنتهي ،

أطرق رأسه ،

وقال بصوت منخفض : كنتِ تعرفين ،

ثم ابتسم وسط دموعه ،

كنتِ تعرفين أن الإنسان جَرّة أيضًا ،

X

بعد أيام ، ذهب ياسين إلى الحديقة ، وقف أمام الجَرّة القديمة ، كان النبات الذي فيها قد كبر ، وتدلت بعض أوراقه على جانبها ،

لمس الجَرّة بيده ، وفكر ،

ربما كانت الجَرّة قد حملت يومًا شرابًا طيبًا أو سيئًا ، ربما كان ما بقي فيها مجرد رائحة ،

لكن الرائحة وحدها كانت كافية لتفتح باب الحكاية ،

وهنا فهم ياسين الدرس الأكبر ، ليس المهم دائمًا ماذا مرّ في حياتنا ، المهم ماذا ترك فينا ،

فالطفل الذي يسمع الإهانة كل يوم قد يكبر وهو يظن أن الإهانة لغة طبيعية ، والطفل الذي يرى أباه يعتذر عندما يخطئ يتعلم أن الاعتذار قوة لا ضعف ، والطفل الذي يرى أمه تحترم من يخدمها يتعلم أن قيمة الإنسان لا تحددها مهنته ولا ماله ،

والطالب الذي يرى معلمه يعترف بأنه أخطأ يتعلم أن المعرفة ليست ادعاء الكمال ،

والطفل الذي يجد من يستمع إليه حين يحزن ، قد يكبر وهو قادر على الاستماع إلى الآخرين ،

وهكذا لا تنتقل القيم بالوعظ وحده ، إنها تنتقل بالمعايشة ، بالقدوة ،

بالتكرار ،

وبالتفاصيل الصغيرة التي نظن أنها لا تُرى ،

X

تذكر ياسين موقفًا من طفولته ،

كان قد كسر زجاج نافذة في المدرسة ذات يوم ، خاف ، فكر في الكذب ،

ثم تذكر سلمى ،

ذهب إلى المعلم وقال : أنا الذي كسرت النافذة ،

نظر إليه المعلم طويلًا ،

ثم قال : هل كنت تقصد؟

لا ،

وهل تخاف العقوبة ؟

نعم ،

قال المعلم : حسنًا ، ستتحمل مسؤولية إصلاح ما كسرت ، لكنني سعيد لأنك قلت الحقيقة ،

لم ينس ياسين هذه الجملة ،

لم يكن المعلم يعرف أنه في تلك اللحظة كان يزرع درسًا سيعيش معه ثلاثين عامًا ،

وهذه هي المفارقة العجيبة في التربية : قد ينسى المعلم الدرس الذي أعطاه ، وقد ينسى الأب النصيحة التي قالها ، وقد تنسى الأم موقفًا صغيرًا مرّ أمام أطفالها ،

لكن الطفل قد يحمل تلك اللحظة معه إلى آخر الطريق ،

لذلك فإن التربية الحقيقية لا تحدث فقط في الساعات المخصصة للتعليم ،

إنها تحدث على مائدة الطعام ،

وفي الطريق ، وفي السوق ، وفي طابور الانتظار ، وفي السيارة ، وفي لحظة الخلاف ،

وفي الطريقة التي نتحدث بها عن الغائبين ، وفي الطريقة التي نعامل بها من لا يستطيع أن يرد علينا ،

X

وفي صباح اليوم التالي ، رأى ياسين رجلًا مسنًا يحاول حمل صندوق ثقيل ،

مرّ بجواره عشرات الناس ، بعضهم نظر ، بعضهم تجاهل ،

أما ياسين فتوقف ، حمل الصندوق ،

قال الرجل : شكرًا يا بني ،

قال ياسين : لا تشكرني ،

ثم ابتسم ،

ربما أنا فقط أحاول أن أترك رائحة طيبة في المكان ،

ضحك الرجل ، ولم يفهم تمامًا ما يقصد ، لكن ياسين كان يفهم ،

X

بعد أشهر ، قرر ياسين أن يزور المدرسة القديمة ،

دخل الفصل الذي كان يجلس فيه ، كان كل شيء أصغر مما يتذكر ، المقاعد ، السبورة ، النوافذ ، حتى الباب ،

جلس في المقعد الأخير ، دخل المعلم القديم ، وقد صار شعره أبيض ، عرفه بعد لحظات ،

قال : ياسين ؟

وقف ياسين ، تعانقا ،

قال المعلم : ماذا أصبحت؟

ابتسم ياسين ،

ما زلت أحاول أن أصبح إنسانًا جيدًا ،

ضحك المعلم ،

وهل تعمل ؟

قال : أحاول ،

جلسا معًا ،

وبعد حديث طويل ، قال ياسين : هل تتذكر النافذة التي كسرتها ؟

ضحك المعلم ،

كنت أتمنى أن أنساها!

قال ياسين : أما أنا فلم أنسها أبدًا ،

سكت المعلم ،

ثم قال ياسين : يومها علّمتني أن تحمل مسؤولية خطئك ، بدل أن تهرب منه ،

قال المعلم : لم أكن أعرف أن الأمر بقي معك كل هذه السنوات ،

أجاب ياسين : لهذا أقول لك شيئًا تعلمته من امرأة عجوز: الأشياء لا تنتهي حين ننتهي منها ،

ثم نظر إلى النافذة ،

وقال : نحن نترك شيئًا وراءنا ، حتى حين لا نعرف أننا تركناه ،

X

في المساء ، عاد ياسين إلى الحديقة ، جلس أمام الجَرّة ،

كانت الشمس تميل إلى الغروب ، الضوء البرتقالي ينساب على جدارها المتشقق ، والنبات الأخضر يخرج منها كأنه يعلن أن الحياة تستطيع أن تنبت حتى من وعاء قديم ،

أخرج ياسين ورقة صغيرة وكتب عليها : **راقب ما تضعه في قلوب الآخرين ؛ فربما تعيش رائحته بعدك ،**

طوى الورقة ووضعها داخل الجَرّة ،

ثم وقف ،

لم يكن يريد أن يحول الحكاية إلى موعظة ، فالمواعظ كثيرة ، والكلمات كثيرة ،

لكن الناس يحتاجون أحيانًا إلى صورة واحدة تبقى في الذاكرة ،

امرأة عجوز ، جَرّة فارغة ، ورائحة لا تزال موجودة ،

X

مرت أعوام أخرى ، صار ياسين أبًا ،

وفي يوم من الأيام ، عاد إلى البيت غاضبًا بعد موقف صعب في عمله ،

وجد ابنته الصغيرة قد أسقطت كوبًا زجاجيًا ، نظر إليها ، كانت خائفة ، وكان يستطيع أن يصرخ ، كان الغضب في حلقه جاهزًا ، لكن شيئًا داخله أوقفه ،

رأى للحظة وجه سلمى ، ورأى الجَرّة ، وتذكر نفسه طفلًا ،

تنفس ببطء ، ثم قال لابنته : هل أنت بخير ؟

هزت رأسها ،

قال : إذن دعينا ننظف المكان معًا ،

اقتربت منه ،

قالت : لن تغضب ؟

ابتسم ، أنا غاضب من الكوب ، وليس منك ،

ضحكت ،

ثم جمعا الزجاج ،

وفي تلك اللحظة ، لم يعرف ياسين أن ابنته كانت تتعلم درسًا أكبر من أي درس يمكن أن تكتبه الكتب ، كانت تتعلم أن الخطأ لا يلغي قيمة الإنسان ، وأن الغضب يمكن أن يتوقف قبل أن يتحول إلى أذى ، وأن الاعتراف بالمشاعر لا يعني إطلاقها على الآخرين ،

وأن التربية ليست أن نصنع طفلًا يخاف منا ، بل إنسانًا يعرف كيف يتصرف حين لا نكون موجودين ،

X

وفي أحد الأيام ، سألت ابنته : أبي ، لماذا دائمًا تقول إن الإنسان يترك أثرًا ؟

فأخذها بيده ، وذهب بها إلى الحديقة ،

كانت الجَرّة لا تزال هناك ، لكنها أصبحت أقدم ،

قال : هل ترين هذه ؟

قالت : نعم ،

ماذا تظنين أنها كانت تحمل ؟

فكرت قليلًا ،

ماء ؟

ضحك ،

ربما ،

ثم قال : المهم ليس ما حملته فقط ، المهم أنها تركت شيئًا من الذي حملته ،

قالت : وكيف نعرف ؟

أجاب : من الرائحة ،

ضحكت ،

لكنها لا رائحة لها الآن!

قال : ربما لا تشمينها بأنفك ،

ثم وضع يده على قلبه ،

بعض الروائح تُشم هنا ،

نظرت إليه الطفلة باستغراب ،

فقال : عندما تفعلين الخير ، قد تنسين أنك فعلته ، لكن الشخص الذي ساعدته لن ينسى شعوره ، وعندما تجرحين أحدًا ، قد تنسين كلامك ، لكنه قد يحمل أثره سنوات ، لذلك ، قبل أن تتكلمي أو تفعلي شيئًا ، اسألي نفسك : ماذا سيبقى من هذا بعد أن ينتهي ؟

سكتت الطفلة ،

ثم قالت : أريد أن أترك رائحة طيبة ،

ضحك ياسين ،

وقال : هذا كل ما أريده منك ،

X

لم تكن الجَرّة نبيذًا ، ولم تكن المرأة العجوز بحاجة إلى معرفة نوع الشراب الذي كان فيها ،

كانت تعرف شيئًا أعمق : أن الإنسان وعاء ، والبيت وعاء ، والمدرسة وعاء ، والأسرة وعاء ،

وأن ما نضعه في هذه الأوعية لا يختفي بسهولة ،

إذا ملأنا البيت بالصراخ ، خرج الأطفال إلى العالم وهم يظنون أن الصراخ وسيلة للحوار ، وإذا ملأناه بالاحترام ، خرجوا وهم يعرفون أن الاختلاف لا يفسد الكرامة ،

إذا عاقبنا الخطأ بالإهانة ، تعلم الطفل أن يخفي أخطاءه ، وإذا عالجناه بالمسؤولية ، تعلم أن يصلح ما أفسده ،

إذا جعلنا النجاح مرتبطًا بالتفوق على الآخرين ، نشأ الطفل وهو يرى الناس منافسين دائمين ، وإذا ربطناه بالتطور وبذل الجهد ، تعلم أن يفرح بنجاحه دون أن يحتاج إلى سقوط غيره ،

وهنا تبدأ التربية الحقيقية ،

ليست التربية أن نملأ ذاكرة الطفل بالمعلومات فقط ، بل أن نملأ قلبه بما يحتاج إليه عندما تنتهي المعلومات ،

أن نعلمه كيف يفكر ، لا ماذا يفكر فقط ، كيف يختار ، كيف يعتذر ، كيف يختلف ، كيف يرفض الظلم ، كيف يحترم الضعيف ، كيف يستخدم قوته ، وكيف يكون صالحًا حين لا يراقبه أحد ، ؟

X

وفي آخر الحكاية ، لم تعد الجَرّة فارغة ، كانت مليئة بالتراب والجذور والأوراق ، كبر النبات فوقها ، وامتدت أغصانه حول فمها ،

صار الأطفال يمرون بها ، يلمسون أوراقها ، ويسقونها أحيانًا ،

لم يعرف معظمهم قصة سلمى ، ولم يعرفوا شيئًا عن ياسين الصغير الذي وقف ذات يوم بجوارها وسأل : كيف يكون للفراغ رائحة ؟

لكن شيئًا من الحكاية ظل حيًا ،

كانت امرأة عجوز قد تركت كلمة ، وكان معلم قد ترك موقفًا ، وكان أب قد ترك اعتذارًا ، وكانت أم قد تركت صبرًا ، وكان طفل قد تعلم أن يدافع عن زميله ،

ثم صار ذلك الطفل رجلًا ، فزرع المعنى نفسه في ابنته ،

وهكذا انتقلت الحكاية من قلب إلى قلب ، دون أن يعرف أصحابها أحيانًا أنهم رواة لها ،

وفي صباح هادئ ، مرّ طفل صغير بالحديقة ، وقف أمام الجَرّة ،

انحنى ، شمّها ،

ثم رفع رأسه وقال : ما أجمل رائحتها !

ضحك ياسين ، الذي كان يجلس قريبًا ،

وسأله : ماذا تشم؟

فكر الطفل ، ثم قال : لا أعرف ،

ابتسم ياسين ، وقال : لا بأس ،

ثم نظر إلى الجَرّة ، وقال في نفسه : **ربما ليست الأشياء العظيمة هي التي تبقى ، ربما الذي يبقى حقًا هو الأثر الصغير الذي تركناه في قلب إنسان ،**

ثم نهض ومضى ،

وبقيت الجَرّة في مكانها ، فارغة من النبيذ ، ممتلئة بالحكاية ، وممتلئة أكثر بشيء لا يُرى :

أثرُ ما مرّ بها ،

الرجل العجوز وأبناؤه الثلاثة
حين يصبح الاختلاف نورًا واحدًا

في آخر ليلة من ليالي الشتاء ، كان الرجل العجوز مستلقيًا على فراشه ، يصغي إلى صوت المطر وهو يطرق نافذة غرفته كأنه يذكّره بأيام مضت ، وبأناس أحبهم ، وبسنوات طويلة عاشها بين الناس ، يعطي أكثر مما يأخذ ، ويزرع في القلوب ما كان يتمنى أن يراه يومًا في أبنائه ،

كان الرجل ثريًا ، لكنه لم يكن يرى الغنى في الذهب وحده ،

كان يقول دائمًا : الثروة التي لا تتحول إلى خير ، تتحول مع الأيام إلى عبء ، والمال الذي لا ينفع إنسانًا ، قد يصبح سببًا في شقاء صاحبه ،

وقد عاش الرجل على هذه القاعدة ، بنى بيتًا واسعًا ، وساعد الفقراء ، وعالج المرضى ، وأعان المحتاجين ، ووقف إلى جانب كل من احتاج إليه ، من غير أن يسأل أولًا عن اسمه أو طائفته أو أصله ،

وحين اشتد عليه المرض ، أدرك أن الرحلة تقترب من نهايتها ، استدعى أبناءه الثلاثة ،

كان لكل واحد منهم طبعه وطريقته في النظر إلى الحياة ، وكان الأب يعرف أبناءه جيدًا ، ويعرف أن الإنسان لا يُقاس بما ورثه ، بل بما يصنعه بما ورث ،

قال لهم : لن أقسم ثروتي بينكم بالتساوي ، ليس لأن أحدكم أغلى من الآخر ، ولكن لأنني أريد أن أعرف أيكم فهم معنى الثروة ، ومعنى المسؤولية ، ومعنى أن يعيش الإنسان بين الناس ،

نظر الأبناء إلى أبيهم بدهشة ،

ثم أعطى كل واحد منهم دينارًا واحدًا ، وقال : أريد من كل واحد منكم أن يشتري بهذا الدينار شيئًا يستطيع أن يملأ هذه الغرفة كلها ، من أرضها إلى سقفها ، ومن زاوية إلى زاوية ، لا أريد منكم أن تنفقوا أكثر من الدينار ، ولا أريد شيئًا يبقى في الغرفة بعد ساعات ، أريد شيئًا يثبت لي أنكم تعرفون كيف تفكرون ،

خرج الأبناء الثلاثة ، وكل واحد منهم يحمل في ذهنه سؤالًا مختلفًا ، كان الابن الأكبر يفكر في الشيء الذي يستطيع أن يملأ مساحة كبيرة بأقل ثمن ، أما الثاني ، فكان يبحث عن شيء خفيف ينتشر بسرعة ، وأما الابن الأصغر ، فكان يمشي ببطء ، كأنه لا يبحث عن شيء في السوق بقدر ما يبحث عن جواب في داخله ،

X

في اليوم التالي ، عاد الأبناء إلى البيت ،

كان الأب ينتظرهم ،

قال للأكبر : ماذا اشتريت؟

ابتسم الابن بثقة ، وأخرج من كيسه وسادة كبيرة محشوة بالقطن ،

نظر الأب إلى الوسادة ، ولم يقل شيئًا ،

مزق الابن الوسادة ، وأخرج القطن ، ثم نفخ فيه بكل قوته ، ارتفع القطن في الهواء ، وانتشر في أرجاء الغرفة ،

ابتسم الابن وقال : لقد ملأت الغرفة يا أبي ،

ظل الأب صامتًا ،

وبعد دقائق قليلة ، بدأ القطن يهبط ، تعلق بعضه بالأثاث ، وسقط بعضه على الأرض ، وبقيت مساحات واسعة من الغرفة خالية ،

نظر الأب إلى ابنه وقال : لقد ملأت المكان لحظات ، لكنك لم تفكر فيما سيبقى بعد اللحظات ،

خفض الابن رأسه ،

لم يكن الأب يريد أن يهينه ، بل كان يريد أن يعلمه أن سرعة الفكرة لا تعني دائمًا صوابها ،

ثم التفت إلى ابنه الثاني : وأنت ، ماذا جلبت؟

أخرج الابن الثاني وسادة أخرى ، وكانت مملوءة بريش الطيور ،

مزقها ، ونثر الريش ، ثم أخذ ينفخ فيه ،

انتشر الريش في الهواء ، ووصل إلى النوافذ والزوايا والسقف ،

قال الابن بفخر: أظن أنني نجحت أكثر من أخي ،

نظر الأب إلى الغرفة ، كان الريش يملؤها بالفعل ،

لكن الأب لم يبتسم ،

وبعد قليل ، بدأ الريش يسقط هو الآخر ،

قال : أحسنت في فهم الحركة ، لكنك لم تفهم الزمن ، الشيء الذي يملأ المكان للحظة ثم يختفي ، لا يصنع حياة ،

جلس الابنان صامتين ،

ثم نظر الأب إلى ابنه الأصغر ،

كان آثوري يحمل كيسًا صغيرًا ، ولم يكن فيه شيء يثير الانتباه ،

قال الأب : وأنت؟ ماذا فعلت بالدينار؟

ابتسم الابن وقال : فعلت ما ظننته أقرب إلى وصيتك يا أبي ،

قال الأب : حدثني ،

قال آثوري : احتفظت بنصف الدينار للطوارئ ، لأن الإنسان لا يعرف متى تأتيه أيام الضيق ، ثم أعطيت جزءًا للمحتاجين ، وجزءًا للمرضى ، وجزءًا لمن يحرسون الناس ويدافعون عن أمنهم وكرامتهم ، وبقي معي القليل ،

سأله الأب : وماذا اشتريت ؟

أخرج آثوري شمعة صغيرة ،

تعجب الأب ،

قال : شمعة؟ وهل تستطيع شمعة صغيرة أن تملأ غرفة كبيرة؟

أجاب الابن : دعني أشعلها أولًا ،

أشعل الشمعة ، فانتشر نورها الهادئ في الغرفة ، لم يحتج الضوء إلى أن يلمس كل شيء بيديه ، لم يحتج إلى أن يصطدم بالجدران ، لم يحتج إلى أن يطرد الظلام من زاوية ويترك زاوية أخرى ، كان النور يصل إلى الجميع ،

سكت الأب طويلًا ،

ثم ابتسم ،

وقال: الآن فهمت ،

اقترب من ابنه ، وأمسك يده ،

وقال : لقد فهمت ما لم يفهمه أخواك ، لم تبحث عن شيء يملأ المكان بجسده ، بل بحثت عن شيء يملأه بمعناه ،

ثم نظر إلى أبنائه الثلاثة وقال : القطن ملأ الغرفة لحظة ، والريش ملأها لحظة ، لكن النور بقي ما دام له مصدر ، وهذه هي

الحياة يا أبنائي ، ليست القيمة في مقدار ما نملكه ، بل في مقدار ما نمنحه ، وليست الحكمة في أن نكون جميعًا متشابهين ، بل في أن نعرف كيف نجعل اختلافنا طريقًا إلى الخير ، «

كان الأب يتحدث ، لكنه لم يكن يعلّم أبناءه المال وحده ، كان يعلّمهم شيئًا أكبر ، كان يعلمهم كيف يعيش الإنسان مع أخيه ،

فالبيت الذي يعيش فيه ثلاثة إخوة لا يخلو من الاختلاف ، هذا يحب الصمت ، وذاك يحب الكلام ، هذا يرى الطريق من جهة ، وذاك يراه من جهة أخرى ،

وقد يتجادلون ، وقد يخطئ أحدهم في حق الآخر ، لكن البيت لا يسقط لأن أبناءه مختلفون ، يسقط البيت حين يتوقفون عن الحوار ،

وهكذا هي الجماعات والشعوب ، ليس الخطر في أن يختلف الناس ، الخطر أن يتحول الاختلاف إلى خصومة ، والخصومة إلى قطيعة ، والقطيعة إلى كراهية ، ثم تبدأ كل جماعة في النظر إلى الأخرى وكأنها المشكلة ، بدل أن تنظر إلى المشكلة الحقيقية التي تهدد الجميع ،

رفع الأب عينيه إلى أبنائه وقال : تذكروا هذا جيدًا: لا تجعلوا اختلافكم جدارًا بينكم ، اجعلوه نافذة يرى أحدكم من خلالها العالم بعين أخيه ،

ثم سكت قليلًا ،

وقال : لقد عشنا طويلًا بين أسماء متعددة ، وتقاليد متنوعة ، وطرق مختلفة في التعبير عن ذواتنا ، وهذا ليس عيبًا ، الإنسان لا يكون نسخة من أخيه حتى يكون قريبًا منه ، وقد يكون الاختلاف في اللهجة أو العادة أو الذاكرة أو طريقة التعبير ، لكنه لا يمنع أن يكون الألم واحدًا ، والفرح واحدًا ، والمصير واحدًا ،

كان الأب يتحدث عن أبنائه ، لكن كلماته كانت أوسع من الغرفة ، كان يعرف أن المجتمعات أيضًا تمر بالاختبار نفسه ،

فقد يتوارث الناس أسماء مختلفة ، أو يختارون لأنفسهم تسميات مختلفة ، أو يروون بعض صفحات التاريخ بطرق متباينة ، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن عليهم أن يتحولوا إلى خصوم ،

إن الحوار لا يعني أن يتنازل الإنسان عن هويته ، وقبول الآخر لا يعني أن يمحو الإنسان نفسه ، والتسامح لا يعني أن نتخلى عن قناعاتنا ،

إنما يعني أن ندرك أن الإنسان الذي يقف أمامنا له أيضًا ذاكرة ، وتجربة ، ومخاوف ، وأحلام ، وأنه لا يمكن بناء المستقبل بإلغاء بعضنا بعضًا ،

X

وفي حياتنا اليومية أمثلة كثيرة ،

في المدرسة ، قد يجلس طالبان من بيئتين مختلفتين في مقعد واحد ، قد يختلفان في لهجتهما ، أو في بعض عاداتهما ، أو في طريقة احتفالهما بالمناسبات ، لكنهما حين يعملان معًا في مشروع ، يكتشف كل واحد منهما أن الآخر ليس غريبًا كما كان يظن ،

وفي الحي ، قد تختلف العائلات في بعض التفاصيل ، لكن حين يمرض أحد أبنائها ، يطرق الجيران بابه جميعًا ،

وفي العمل ، قد تختلف الآراء بين الموظفين ، لكن المؤسسة الناجحة لا تطرد كل من يختلف مع مديرها ، بل تسمح له بالكلام ، وتناقش حجته ، ثم تختار الأفضل ،

حتى داخل الأسرة الواحدة ، لا يتفق الأبناء على كل شيء ، ومع ذلك ، عندما يمرض الأب ، يقفون حول سريره ،

لماذا ؟

لأن المرض يذكّرهم بما تنساه الخصومة ، يذكرهم أنهم إخوة ،

وهكذا تفعل الأزمات الكبرى بالشعوب أيضًا ، إنها تكشف أحيانًا أن ما يجمعنا أعمق بكثير مما يفرقنا ،

وهنا تبرز قيمة الحوار ، الحوار ليس جلسة نتبادل فيها الكلمات ثم يذهب كل منا إلى بيته أكثر غضبًا ،

الحوار الحقيقي هو أن أسمع لأفهم ، لا أن أسمع لأرد ، أن أطرح السؤال قبل أن أطلق الحكم ،

أن أقول: أختلف معك ، بدل أن أقول: أنت عدوي ،

أن أميز بين الفكرة وصاحبها ، فقد تكون الفكرة خاطئة ، لكن صاحبها ليس بالضرورة سيئًا ،

وقد يكون الإنسان صادقًا في دفاعه عن رأيه ، حتى لو أخطأ في بعض ما يعتقد ،

ومن هنا تبدأ التربية الحقيقية ،

فالطفل الذي يتعلم في بيته أن المختلف عنه عدو ، سيكبر وهو يبحث عن الأعداء ،

أما الطفل الذي يتعلم أن الاختلاف فرصة للسؤال والتعلم ، فسوف يكبر وهو يبحث عن الجسور ،

ولهذا فإن بناء المجتمع يبدأ من التربية قبل السياسة ، ومن الأسرة قبل المؤسسات ، ومن المدرسة قبل المنابر ،

X

نظر الأب إلى أبنائه الثلاثة من جديد ،

وقال : لو أنني جعلتكم متشابهين بالقوة ، لما تعلمتم شيئًا ، أنا لا أريد ثلاثة أبناء متطابقين ، أريد ثلاثة أبناء يعرف كل واحد منهم قيمة الآخر ،

ثم أشار إلى الشمعة ،

وقال : انظروا إليها ، هل سألت الشمعة الظلام عن اسمه قبل أن تضيء؟

ضحك الأبناء ،

قال : وهل سألت النور الزاوية التي سيصل إليها إن كانت قريبة منه أم بعيدة ؟

ثم تابع : النور لا يختار من يستحقه ، إنه ينتشر ، وكذلك الخير ،

كانت تلك الكلمات هي الوصية الحقيقية ، أما المال ، فلم يكن سوى امتحان صغير ،

لقد فهم الأب أن الثروة يمكن أن تُهدر في ساعة ، وأن الاسم يمكن أن يتحول إلى قشرة فارغة ، وأن القوة إذا لم يصحبها عقل تتحول إلى أداة هدم ،

لذلك لم يكن يريد أن يورث أبناءه الذهب فقط ، كان يريد أن يورثهم طريقة في التفكير ،

أراد أن يقول لهم : إذا اختلفتم ، فتحدثوا ، إذا أخطأ أحدكم ، فانصحوه ، إذا شعر أحدكم بالخوف ، فاسمعوه ، إذا امتلك أحدكم معرفة ، فلا يجعلها سلاحًا ضد أخيه ، وإذا اختلفتم في الاسم ، فلا تختلفوا في الإنسانية ،

فالأوطان لا تبنى بالأسماء وحدها ، تبنى بالإنسان الذي يحمل الاسم ،

X

وفي صباح اليوم التالي ، طلب الأب من أبنائه أن يقتربوا منه ،

قال : ربما لن أعيش طويلًا ، لكنني أريد منكم أن تتذكروا شيئًا واحدًا ، عندما تتنازعون ، اسألوا أنفسكم : هل نحن نختلف لأننا نبحث عن الحقيقة ، أم لأننا نريد الانتصار على بعضنا ؟

سكت قليلًا ،

ثم قال : إذا كان هدفكم الحقيقة ، فالحوار طريقكم ، وإذا كان هدفكم الانتصار على بعضكم ، فسوف تخسرون جميعًا ،

كانت الغرفة هادئة ، وكانت الشمعة لا تزال مشتعلة ،

نظر الابن الأكبر إلى أخيه الثاني ، ثم نظر الاثنان إلى أخيهما الأصغر ، ولأول مرة ، لم يرَ كل واحد منهم ما ينقص الآخر ، رأى ما يستطيع أن يضيفه ،

وهنا تغير معنى الاختلاف ، لم يعد الاختلاف سؤالًا عن: «من الأفضل؟

بل أصبح سؤالًا عن : ماذا نستطيع أن نبني معًا ؟

X

وهذا هو الدرس الذي يحتاجه كل مجتمع ،

لسنا مطالبين بأن نفكر بالطريقة نفسها ، ولا بأن نتخلى عن ذاكرتنا ، أو خصوصيتنا ، أو تراثنا ، أو قناعاتنا ،

لكننا مطالبون بأن نتعلم كيف نعيش معًا ، فالاختلاف الذي يصنع المعرفة جميل ، والاختلاف الذي يفتح باب الحوار جميل ، والاختلاف الذي يجعل كل طرف يراجع نفسه جميل ،

أما الاختلاف الذي يتحول إلى احتقار ، فإنه لا ينتج قوة ، بل ينتج جراحًا جديدة ، وقد يربح الإنسان معركة كلامية ، لكنه يخسر أخاه ، وقد يثبت أنه على حق ، لكنه يخسر البيت كله ، فما قيمة أن ينتصر أحد الإخوة إذا احترق البيت ؟

X

في نهاية ذلك اليوم ، عاد الأب إلى فراشه ، كان متعبًا ، لكنه كان مطمئنًا ، اقترب منه أبناؤه ،

فقال لهم : أشعلوا الشمعة كلما اختلفتم ،

تعجبوا من وصيته ،

فقال : ليس المقصود الشمعة نفسها ، المقصود أن تتذكروا النور ، فإذا اشتد الغضب ، تذكروا أنكم تستطيعون أن تكونوا نورًا لبعضكم ، وإذا اختلفتم ، افتحوا باب الكلام ، وإذا أساء أحدكم فهم الآخر ، فاسألوه قبل أن تحكموا عليه ، وإذا رأيتم خطأ ، أصلحوه بالحكمة لا بالإهانة ،

ثم ابتسم ، وقال : لا تجعلوا اختلافكم سببًا في انطفاء البيت ،

كانت تلك آخر وصية ،

وفي صباح اليوم التالي ، رحل الرجل العجوز ،

لكن الشمعة بقيت ، احتفظ بها الأبناء ، لا لأنها ثمينة ، بل لأنها ذكّرتهم بما أراد أبوهم أن يتركه في قلوبهم ،

ومع مرور السنوات ، اختلف الأبناء كثيرًا ، لكنهم لم يعودوا يخافون من الاختلاف ، كانوا يجلسون إلى بعضهم كلما اختلفوا ، يتحدثون ، يسألون ، يستمعون ، ثم يبحثون عن النقطة التي يستطيعون أن يلتقوا عندها ،

وفي كل مرة كان أحدهم يقول : تذكروا الشمعة ،

فيهدأ الغضب ، ويعود الحوار ، ويظل البيت قائمًا ،

X

إن الحكمة ليست أن نزيل الاختلاف من حياتنا ، فهذا مستحيل ، الحكمة أن نمنع الاختلاف من أن يتحول إلى عداوة ،

والتربية الحقيقية ليست أن نربي أبناءنا على التشابه ، بل أن نربيهم على احترام المختلف ،

والقوة ليست في أن يكون صوتنا أعلى من صوت الآخرين ، بل في أن يكون عقلنا أوسع من خلافنا معهم ،

قد يكون لكل إنسان اسمه ، وذاكرته ، وتراثه ، وطريقته في التعبير عن ذاته ، لكن ذلك كله لا يمنعه من أن يشارك الآخرين في بيت واحد ، وأرض واحدة ، وذاكرة مشتركة ، وآمال مشتركة ،

لذلك ، عندما نقف أمام اختلافاتنا ، علينا ألا نسأل : من منا يجب أن يختفي؟

بل نسأل : كيف نستطيع أن نبقى مختلفين ، ونظل معًا ؟

فالشمعة لم تطلب من الغرفة أن تتخلى عن زواياها ، ولم تطلب من الأشياء أن تصبح شيئًا واحدًا ،

لقد فعلت شيئًا أبسط وأعمق : أضاءت ،

وهكذا يكون الإنسان الحكيم ، لا يلغي الآخر كي يظهر هو ، ولا يطفئ نور غيره ليبدو أكثر إشراقًا ، بل يضيف نوره إلى نور الآخرين ،

وحين تتعدد الشموع ، لا يختفي الضوء ، بل تكبر المساحة المضيئة ،

وهنا تكمن التربية ، وهنا يبدأ الحوار ، وهنا يصبح التنوع مصدر قوة لا سببًا للانقسام ،

فالبيت الذي يتسع لأبنائه جميعًا ، مهما اختلفوا ، هو بيت حي ، والمجتمع الذي يتسع لأصواته المختلفة ، هو مجتمع قادر على التعلم ، والأمة التي تعرف كيف تحاور أبناءها ، لا تخاف من اختلافهم ،

لأنها تعرف أن وحدتها الحقيقية لا تقوم على إلغاء التنوع ، وإنما على تحويل التنوع إلى تعاون ،

وفي النهاية ، قد لا نملك جميعًا الشمعة نفسها ، لكننا نستطيع جميعًا أن نحافظ على النور ،

أمّنا الغولة

حين تعلّم طفلٌ أن الخوف يُربّى كما تُربّى الشجاعة

في تلك الليلة ، لم يكن القمر كاملاً ، لكنه كان كافياً ليصنع على جدار البيت ظلّاً يشبه وجه امرأةٍ قديمة ، كان البيت هادئاً إلا من صوت الريح وهي تمرّ بين النوافذ كأنها تهمس بسرّ لا يريد أن يُقال ، جلس مروان ، الطفل الصغير ذو العينين الواسعتين ، قرب جدته على حصيرها المعتاد ، يضمّ ركبتيه إلى صدره ، ويُصغي إلى الحكاية التي اعتاد أن يسمعها كل مساء ،

قالت الجدة ، وهي تحدّق في الظلام خارج الباب : إياك أن تخرج بعد المغرب يا مروان ، أمّنا الغولة لا تنام ، وتحبّ الأطفال الذين يبتعدون عن بيوتهم ،

ارتجف مروان قليلاً ، كان قد سمع الاسم كثيراً ، لكن الاسم وحده كان يكفي أحياناً ليجعل القلب يطرق باب الصدر كطائرٍ مذعور ، أمّنا الغولة... كائنة لا تُرى ، لكنها تُشبه في الخيال كل شيء مخيف : امرأة طويلة الشعر ، قبيحة الوجه ، حادّة الأظافر ، تعيش في الخرائب والجبال والكهوف ، وتخرج في العتمة لتخطف من يتيه بعيداً ، هكذا قالت الحكايات القديمة ، وهكذا كان الكبار يربّون بها خوف الأطفال ، كما يربّون الأشواك حول الزرع حمايةً له ،

لكن مروان ، رغم صغره ، كان يحب أن يسأل ، لم يكن يقبل الخوف هكذا ، بلا سبب ولا تفسير ،

قال بصوت خافت : هل رأيتها يا جدتي ؟

سكتت الجدة لحظة ، ثم ردّت : لم أرها بعيني ، لكن الجدات لا يقلن الكلام من فراغ ،

هزّ مروان رأسه ، إلا أن السؤال بقي في داخله مثل شرارة صغيرة لا تنطفئ ، وفي تلك الليلة ، حين نام الجميع ، ظلّ هو مستيقظاً ينظر إلى السقف ، كان يفكر: كيف يمكن لكلمةٍ واحدة أن تصنع هذا القدر من الرعب ؟ وكيف يصبح الخوف ضيفاً دائماً في البيوت حتى قبل أن يراه أحد ؟

في الصباح ، خرج مروان إلى فناء البيت ، فوجد حمامةً بيضاء تحوم فوق الحائط ثم تهبط بخفة قرب شجرة الليمون ، راقبها طويلاً ، ثم تذكّر كلام الجدة عن أمّنا الغولة ، قال في نفسه : إذا كانت الغولة تحب الظلام ، فلماذا تبدو الحمامة أجمل في الضوء ؟ ولماذا يخيفنا الكبار من أشياء لم يرها أحد ؟

كانت أسئلة طفل ، لكنها حملت بذرة رجل صغير يريد أن يفهم العالم بدل أن يختبئ منه ،

في المدرسة ، كان المعلم يشرح درساً عن الحكايات الشعبية ، تحدّث عن الخيال الجمعي ، وعن كيف تصنع الشعوب رموزها ، وعن أن بعض القصص لا تُروى لتكون حقيقية بالحرف ، بل لتكون مفيدة في المعنى ، رفع مروان يده وسأل : يعني أمّنا الغولة حقيقية ؟

ابتسم المعلم وقال : الحقيقة ليست نوعاً واحداً يا مروان ، هناك حقيقة تاريخية ، وحقيقة شعبية ، وحقيقة تربوية ، أحياناً يولد الخوف من حادثة ، ثم يكبر في الكلام ، ثم يتحول إلى أسطورة ، المهم : ماذا تعلّم الناس من الأسطورة ؟

بقيت الجملة ترنّ في رأس مروان : ماذا تعلّم الناس من الأسطورة ؟

عاد إلى البيت وهو يفكر ، مرّ قرب السوق ، فرأى امرأة عجوزاً تجلس على عتبة محل ، تبيع الخبز الساخن ، كانت تكاد تُشبه الجدة ، لكن ملامحها أكثر صمتاً ، تذكّر مروان حينها رواية قديمة سمعها من أحد الكبار: أن بعض مناطق الصحراء والواحات كانت تعرف صوراً من المعتقدات الشعبية المرتبطة بالنساء اللواتي أثقلتهن الحياة ، وأن الوعي الديني والتعليم غيّرا نظرة الناس ، فاختفت تلك الصور القديمة من الذاكرة العامة ، فهم مروان أن الخوف نفسه قد يلبس وجوهاً كثيرة ، وأن المجتمع حين يجهل ، ينسج حول المجهول ستاراً من الحكايات ،

في المساء ، قرر أن يسأل جدته عن أصل القصة لا عن صورتها فقط ، جلس قربها وقال : جدتي ، لماذا كانت الناس تقول أمّنا الغولة ؟ ولماذا لم تقولوا للأطفال : لا تخرجوا لأن الطريق خطرة ، أو لأن الليل يضلّل الإنسان ؟

تنهدت الجدة ، ثم قالت بصوتٍ أبطأ من المعتاد:

نحن يا بنيّ ، عندما كنا صغاراً ، لم تكن التوضيحات كثيرة ، كان الكبار يخافون علينا ، فاستعملوا الخوف نفسه لحمايتنا ، كانوا يظنون أن الطفل لن يفهم معنى الخطر إلا إذا ارتعد قلبه ،

نظر إليها مروان بعينين متسعتين ، ثم قال : لكن الخوف إذا كبر ، ألا يظلّ في القلب حتى بعد زوال السبب ؟

صمتت الجدة طويلاً ، ثم مسحت على رأسه وقالت : هذا صحيح ، أحياناً نحمي الطفل من حفرة ، لكننا نحفر في روحه حفرة أكبر ،

كانت تلك الجملة أول مفتاح في الحكاية ، شعر مروان أن شيئاً كبيراً انفتح داخله : الخوف ليس دائماً عدوّاً ، لكنه قد يصبح كذلك إذا استُعمل بلا حكمة ،

ومنذ ذلك اليوم ، صار مروان يطلب من جدته حكايات أكثر ، لم يعد يريد فقط أن يسمع عن الغولة التي تأكل الأطفال ، بل عن الناس الذين صنعوا صورتها ، وعن الخرائب التي سكنتها في الخيال ، وعن الكهوف التي صارت في الذاكرة أبواباً للعتمة ، وعن المعابد القديمة التي التصق بها الاسم في بعض الروايات المحلية ، كانت الجدة تحكي ، وهو يصغي ، ثم يسأل بأسئلته الصغيرة الكبيرة:

ولماذا ارتبطت الغولة بالليل ؟ ولماذا نُخيف الأطفال بأشياء لا نراها ؟ وهل يمكن أن نصنع حكاية تحمي الطفل من دون أن تكسر قلبه ؟

كانت الجدة أحياناً تبتسم ، وأحياناً تهز رأسها ، وأحياناً تقول: لو كان لدينا من العلم ما يكفي ، لعلّمنا الطفل كيف يحذر ، لا كيف يرتجف ،

X

في أحد الأيام ، خرج مروان مع أبيه إلى ضاحية قديمة فيها بيوت مهدمة ، وجدار مائل ، وبقايا درج حجري ، هناك ، سمع رجلاً مسناً يروي أن الخرافة حين تدخل إلى المكان الفارغ ، تملؤه

بصوتها ، أن الخرائب تُنبت أوهاماً لأن الإنسان يخاف الفراغ أكثر مما يخاف الحجر ، فهم مروان أن أمّنا الغولة ليست مجرد صورة لامرأة قبيحة ، بل اسمٌ لكل ما لا نفهمه فنخترعه مخيفاً ،

سأله الأب وهو يراه شارد الذهن : بمَ تفكر؟

قال مروان : أفكر أن الناس قد يخافون من الظل ، ثم يظنون أنه وحش ، لكن الظل فقط علامة على وجود نور خلفهم ،

ابتسم الأب ، وقال :هذا كلام كبير على سنّك ،

أجابه مروان ببراءة : لأن الخوف يكبر بسرعة ، يا أبي ،

X

مرت الأيام ، وبدأ مروان يلاحظ أموراً لم يكن يراها من قبل ، رأى أن بعض الأطفال في الحارة لا يخرجون للعب إلا بإذن ، وأن الكبار يستعملون أحياناً أسماء مخيفة ليوقفوا الجري ، أو يمنعوا الاقتراب من الأماكن المهجورة ، أو يردعوا الصغار عن أوقات الظهيرة حين تشتد الشمس ، وفهم أن وراء هذا كله نيةً قد تكون حسنة ، لكنها تحتاج إلى لغة أرحم ، فالحماية لا تكون دائماً بالصوت العالي ، أحياناً تكون بشرحٍ بسيط ، وبيدٍ حانية ، وبابٍ يُغلق عن الخطر لا عن العالم ،

وفي يوم جمعة ، اصطحبته الجدة إلى مجلس نسائي في الحي ، كانت النساء يتحدثن عن التربية ، وعن صعوبة تنشئة الأطفال في زمن مليء بالأسئلة والضجيج ، قالت إحداهن : زمان كنا نقول للطفل : الغولة ستأكلك ، اليوم لم يعد ذلك ينفع ، بل صار الطفل يسأل : أين تسكن ؟ هل لها صورة ؟ هل يمكن أن أراها ؟

ضحكن جميعاً ، لكن مروان أحسّ أن ضحكتهن تخفي حقيقة مهمة ، الخيال وحده لا يكفي لتربية مروان ة ، كما أن الخوف وحده لا يصنع طاعةً دائمة ، التربية التي تستقيم هي التي تشرح وتمنح معنى وتزرع قيمة ،

قال مروان في نفسه : لا بد أن تكون هناك طريقة أجمل ، طريقة تجعل الطفل يحترم الخطر لأنه فهمه ، لا لأنه ارتعب منه ،

X

في تلك الليلة ، حلم مروان أنه يسير في صحراء واسعة ، وأنه يرى من بعيد امرأة ضخمة تقف عند حافة الكثبان ، كان وجهها غامقاً ، وعيناها عميقتين ، وصوتها مثل صرير بابٍ قديم ، ارتعد مروان ، لكنه تذكّر فجأة كلام معلمه : الحقيقة ليست نوعاً واحداً ، فتقدم خطوة وسألها :
من أنتِ ؟

ضحكت المرأة ، ثم بدأت ملامحها تتبدل ، لم تعد أسنانها مخيفة ، ولا شعرها مشعثاً ، بل صار وجهها أقرب إلى ظلّ صنعه الخوف نفسه ، قالت له : أنا ما تصنعه العقول حين تُترك وحدها في العتمة ،

استيقظ مذعوراً ، لكنه شعر في الوقت نفسه براحة غريبة ، لقد فهم شيئاً : كثير من الوحوش لا تعيش في الخارج ، بل في الداخل ، تسكن في الذاكرة حين تُغذّى بلا سؤال ، وتكبر في القلب حين لا يعلّمونه التمييز بين الخطر الحقيقي والخيال الموروث ،

X

في اليوم التالي ، طلب من جدته أن تحكي له القصة من جديد ، لكن بطريقة مختلفة ، قال لها : احكيها لي يا جدتي كأننا نريد أن نتعلم منها ، لا أن نخاف منها فقط ،

جلست الجدة قرب النافذة ، وبدأت تحكي بصوت هادئ ، كأنها تغسل الكلمات من غبار السنين : كان الناس قديمًا يخافون على صغارهم من الليل والخرائب والضياع ، فصنعوا لهم صورة الغولة ، امرأةً مخيفةً تعيش في الظلام ، حتى يبقوا قريبين من بيوتهم ، ومع الوقت ، كبرت الصورة وصارت أسطورة ، وبعض الناس ربطوها بحكايات أقدم ، عن آلهة غضب أو شياطين حارسة أو كائنات من بلاد بعيدة ، وفي بعض المناطق ، وُلدت حولها قصص محلية وحوادث ، حتى التصقت بالذاكرة كما يلتصق الملح بالماء ، لكنها في النهاية ليست إلا مرآةً لخوف الإنسان حين لا يجد لغةً أجمل ،

سكتت ، ثم أضافت : والأجمل من الحكاية كلها أن الطفل اليوم ليس مطالباً بأن يرتجف ، بل أن يفهم ،

ابتسم مروان ، وشعر أن هذه الجملة تصلح لأن تكون مفتاحاً لحياته كلها ،

X

بعد أيام ، في حصة التعبير ، طلب المعلم من التلاميذ أن يكتبوا عن حكاية شعبية يغيرون فيها النهاية ، اختار مروان أمّنا الغولة ، كتب في ورقته أن الطفل الصغير لم يهرب منها في الغابة ، بل وقف أمامها وسألها عن سرّ خوف الناس ، فتبين له أن الغولة لم تكن سوى ظلّ صنعته الحكايات القديمة ، وأن قوتها كانت في ما يضعه الناس فيها من خوف ، ثم جعل مروان بطله يعود إلى البيت ، لا مهزوماً ، بل واعياً ، يحمل رسالة إلى أصدقائه : لا تخافوا من كل ما لا تعرفونه ، بل اسألوا عنه ، فالسؤال أول خطوة نحو الأمان ،

قرأ المعلم النص ، ثم قال للتلاميذ : هذا ليس مجرد تغيير في النهاية ، بل تغيير في الفكرة ، حين يفهم الطفل ، يتحول من متلقٍّ للخوف إلى صانعٍ للوعي ،

في ذلك اليوم ، شعر مروان أنه كبر خطوة ، ليس لأنه صار أطول ، بل لأنه صار أقدر على رؤية المعنى خلف الصورة ،

ومع مرور الوقت ، بدأ يلاحظ كيف يمكن للقصص أن تربي السلوك إذا صيغت بحكمة ، فحين يقول الكبار : لا تبتعد لأن الطريق مظلم ، قد لا يفهم الطفل ، لكن حين يقولون : لا تبتعد لأنك قد تضيع ، ولأننا نحبك ونريدك معنا ، يشعر أن النهي ليس عقاباً بل رعاية ، وحين يقولون: لا تذهب إلى المكان المهجور لأن فيه حشرات وزوايا حادة وأرضاً قد تنهار ، يفهم الخطر الحقيقي بدل أن يطارده شبحٌ غامض ، هنا فقط ، يصبح الوعي أقوى من الرهبة ، وتصبح التربية شجرةً لا سياجاً من الأشباح ،

X

ذات مساء ، جلس مروان مع أصدقائه في الحارة ، وكانوا يتبادلون الحكايات ، قالت فتاة صغيرة : أنا أخاف من أمّنا الغولة ،

فابتسم مروان وقال : وأنا أخاف من أن نُعطي الخوف أكثر مما يستحق ، الغولة قد تكون قصة ، لكن الخطأ الحقيقي أن نترك الأطفال بلا شرح ،

سأله أحدهم : وهل انتهت الغولة إذن ؟

فكر مروان ثم قال : لا أدري إن كانت انتهت في الكتب القديمة ، لكني أعرف أنها تبدأ حين نتوقف عن السؤال ، وتنتهي حين نفهم ،

كانت الجملة بسيطة ، لكنها فتحت الباب لشيء أكبر من الحكاية نفسها ، صار الأطفال يتكلمون عن الحذر ، عن عبور الشارع ، عن عدم اللعب قرب الأماكن الخطرة ، عن احترام الوقت ، وعن أن حب البيت لا يعني الخوف من العالم ، بل تعلم السير فيه بوعي ، وأحس مروان أن الأسطورة القديمة ، رغم قسوتها ، يمكن أن تتحول إلى درسٍ ناعم إذا أعدنا النظر فيها بعقلٍ جديد ،

X

وفي آخر الصيف ، وقفت الجدة على سطح البيت عند الغروب ، وكان مروان بجانبها ، نظرت إلى الأفق الأحمر ، ثم قالت : يا بنيّ ، لم أعد أحب أن أقول للأطفال إن الغولة ستأكلهم ، لقد كبرنا بما يكفي لنعرف أن الحبّ أصدق من التخويف ،

نظر إليها مروان طويلاً ، ثم أمسك يدها ،

كان يشعر أن بين أصابعها دفئاً يشبه اعتذاراً قديماً ، لم يقل شيئاً ، لكنه فهم ، فهم أن التربية ليست سجناً ، وأن الخوف ليس لغةً وحيدة ، وأن القلب الصغير لا ينبغي أن يُربى على الهلع ، بل على الفهم ، وعلى التمييز ، وعلى المحبة التي تشرح ولا تُرعب ،

وهكذا ، لم تعد أمّنا الغولة في قلب مروان وحشاً يخرج من الكهوف ، بل صارت سؤالاً كبيراً عن معنى الحكايات: لماذا نصنع الخوف ؟ وكيف نبدله بالوعي ؟ ومتى يتحول التحذير إلى قسوة ، ومتى يصبح الشرح بداية النجاة ؟

X

وفي الليلة الأخيرة من الحكاية ، حين أطفأ مروان مصباحه واستلقى على فراشه ، لم يخف من الظلام كما كان من قبل ، كان يعرف أن الظلام ظاهرة طبيعية ، وأن النور سيعود مع الصباح ، وغفا وهو يردد في سرّه:
ليس كل ما خُيّل لنا وحشاً وحشاً ، وليس كل خوفٍ حقيقيّاً ، أحياناً تكون الشجاعة أن نفهم ، لا أن نهرب ،

ثم ابتسم في نومه ، كأن الغولة نفسها قد ابتعدت ، لا إلى سابع أرض ، بل إلى المكان الذي تذهب إليه الأوهام حين تجد أمامها عقلاً صغيراً بدأ يكبر ،

حين ربّت الغابة أطفالها
حكاية تربوية عن البيئة التي تصنع الإنسان

في مساء بارد ، كان الدكتور **مروان** يجلس وحده في مكتبة المدرسة ،

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل ، والمدينة خلف النافذة قد أطفأت معظم أنوارها ، بقي مصباح صغير فوق مكتبه ، يسكب دائرة من الضوء على مجموعة من الكتب والأوراق القديمة ،

لم يكن مروان يبحث عن قصة ، كان يبحث عن إجابة ،

أمامه سؤال كتبه على ورقة بيضاء منذ أيام : **هل يولد الإنسان كما يصبح ؟**

ظل ينظر إلى السؤال طويلاً ،

ثم فتح ملفًا قديمًا عن الأطفال الذين عاشوا بعيدًا عن البشر ، بعضهم بين الذئاب ، وبعضهم بين الكلاب ، وآخرون بين الدببة والأغنام والماعز ، وبعضهم عاشوا في الغابات والجبال دون رعاية بشرية منتظمة ،

قرأ عن أطفال يمشون على أربع ، وآخرين يأكلون الطعام بطريقة الحيوانات ، وأطفال أصدروا أصواتًا تشبه النباح أو العواء ، وبعضهم لم يستطع تعلم الكلام حتى بعد عودته إلى المجتمع ،

توقف مروان ، لم يشعر بالدهشة وحدها ، شعر بالخوف ،

وقال في نفسه : إذا كان الطفل يتعلم ما حوله إلى هذا الحد ، فماذا يتعلم أطفالنا كل يوم دون أن ننتبه ؟

أغلق الكتاب ، لكن السؤال لم يُغلق معه ،

X

الطفل الذي وجدته الذئاب

كانت أولى القصص التي قرأها مروان عن أطفال قيل إنهم عاشوا مع الذئاب في غابات أوروبا ،

من بين تلك الروايات حكايات عن ثلاثة أطفال ارتبطت أسماؤهم بغابات هيسن ، قيل إن أحدهم عثر عليه الرهبان وهو في السابعة أو الثامنة من عمره ، بعد سنوات قضاها في بيئة الذئاب ،

لم يكن الطفل يعرف شيئًا تقريبًا عن الحياة البشرية ،

كانت الغابة مدرسته ، والذئاب جماعته ، والصيد مائدته ، والخوف قانون حياته ،

وعندما نُقل إلى عالم البشر ، بدأ يتعلم من جديد ، تعلم بعض العادات البشرية ، واقترب من الناس ، لكنه كان يقول أحيانًا إنه يفضل العودة إلى الذئاب ،

توقف مروان عند هذه الجملة ،

لم يكن الطفل يفضل الذئب لأنه يعرف أنه أفضل من الإنسان ، كان يفضله لأنه **يعرفه** ،

وهنا كتب مروان في دفتره : الإنسان لا يتعلق دائمًا بما هو أفضل ، بل بما اعتاد عليه ،

كانت تلك الجملة بالنسبة إليه مفتاحًا تربويًا كبيرًا ،

فالطفل الذي يكبر في بيت يسمع فيه الصراخ ، قد يظن أن الصراخ لغة طبيعية ، والذي يكبر وسط السخرية ، قد يتعلم أن إهانة

الآخرين نوع من المزاح ، والذي لا يرى إلا العنف ، قد يعتقد أن القوة هي الحل الأول لكل مشكلة ، أما الطفل الذي يعيش بين الرحمة والاحترام ، فإنه يتعلم الرحمة كما يتعلم اللغة ،

البيئة لا تشرح نفسها للطفل ، إنها **تتسلل إليه** ،

X

قرأ مروان عن طفل آخر قيل إنه قاوم من حاولوا القبض عليه ، كان يعض ويخدش ، ويركض على أطرافه الأربعة ، ويختبئ تحت المقاعد ، ويرفض الطعام الذي يقدمه له البشر ،

لم يكن ذلك الطفل شريرًا ،

وهذه الكلمة شددت انتباه مروان ،

كتب تحتها : **لا تحاكم الطفل قبل أن تسأل : ماذا علّمته الحياة ؟**

فالسلوك الظاهر قد يكون رسالة مكتوبة بلغة لا نفهمها ،

عندما يعض طفل زميله ، قد نراه عدوانيًا ، لكن ربما يكون قد تعلم أن العض وسيلة للدفاع ، وعندما يرفض طفل الكلام ، قد نصفه بالعناد ، وربما يكون قد عاش سنوات لم يجد فيها من يصغي إليه ، وعندما يهرب الطفل من الناس ، قد نسميه غير اجتماعي ، وربما يكون البشر بالنسبة إليه مصدر خوف ،

كان مروان يرى الأطفال في مدرسته بصورة مختلفة الآن ،

لم يعد يرى الطفل المشاغب وحده ، كان يبحث عن القصة التي تقف خلف المشاغبة ، ولم يعد يرى الطفل الصامت وحده ،

كان يسأل نفسه : ماذا يقول صمته ؟

X

انتقل مروان إلى قصص أطفال عاشوا مع الكلاب ،

قرأ عن **أوكسانا مالايا** ، الفتاة الأوكرانية التي عاشت سنوات في ظروف شديدة القسوة ، وقيل إنها وجدت ملجأها بين الكلاب بعد إهمال أسري قاسٍ ،

عندما عُثر عليها كانت تقلد الكلاب في سلوكها؛ تمشي على أربع ، وتنبح ، وتكشف أسنانها ،

لكن الزمن لم يكن قد أغلق كل الأبواب ،

مع الرعاية والتدريب والعلاقات الإنسانية بدأت تتعلم الكلام وتقترب من الحياة البشرية ، وإن بقيت آثار عميقة لما مرت به ،

قرأ مروان كذلك عن **إيفان ميشوكوف** ، الطفل الروسي الذي عاش مدة أقصر مع الكلاب بعد هروبه من بيت مضطرب ، ثم تمكن بعد إنقاذه من استعادة كثير من المهارات الإنسانية والالتحاق بالتعليم والخدمة العسكرية ،

أعاد مروان قراءة هذه الحالة أكثر من مرة ، كان الفرق بين الطفلين في مدة العيش مع البيئة الجديدة واضحًا ، فكلما طال الزمن ، ازدادت العادات رسوخًا ،

وهنا ظهر أمامه معنى تربوي بالغ الأهمية :

ما نكرره مع الطفل لا يبقى خارجَه ، إنه يتحول شيئًا فشيئًا إلى جزء من شخصيته ، كلمة تتكرر قد تصبح اعتقادًا ، ومعاملة تتكرر قد تصبح شعورًا ، وسلوك يتكرر قد يصبح عادة ، والعادة إذا طالت قد تبدو كأنها طبيعة ، لكنها في كثير من الأحيان ليست طبيعة ،

إنها **تاريخ صغير تراكم داخل الإنسان** ،

X

نهض مروان من كرسيه ، فتح نافذة المكتبة ، كان الهواء باردًا ،

وفي فناء المدرسة كانت شجرة قديمة تتحرك أغصانها في الظلام ،

نظر إليها وقال : وماذا لو كانت المدرسة نفسها غابة ؟

ثم ابتسم ،

لم يكن يقصد أن المدرسة مكان وحشي ، بل كان يقصد أن الطفل يعيش في بيئة يتعلم منها طوال الوقت ، حتى عندما لا نعطيه درسًا ،

المعلم لا يربي الطفل فقط عندما يشرح الرياضيات أو اللغة ، إنه يربيه عندما يصغي إليه ، وعندما يخطئ فيتعامل مع خطئه ،

وعندما يختلف معه ، وعندما يراه ضعيفًا ، وعندما يطلب منه الاعتذار ، وعندما يعتذر هو أيضًا إذا أخطأ ،

المدرسة ليست الكتب وحدها ، إنها النبرة ، والنظرة ، والعدل ، والقدوة ، والطريقة التي نعامل بها الطفل حين لا يراه أحد ،

X

واصل مروان القراءة ،

وجد روايات قديمة عن أطفال قيل إنهم عاشوا مع الدببة ،

إحداها تتحدث عن طفل عُثر عليه في منطقة مشجرة في القرن السابع عشر ، وأخرى عن طفل قيل إنه عاش مع دب بني في غابات ليتوانيا ،

كانت التفاصيل تبدو أحيانًا أقرب إلى الأسطورة منها إلى التقرير العلمي الدقيق ،

لكن مروان لم يتوقف عند صدق كل تفصيل ،

كان يبحث عن المعنى ،

فحتى القصص التي اختلط فيها الواقع بالخيال ظلت تكشف شيئًا عن الإنسان ،

كانت المجتمعات القديمة تنظر إلى الطفل الذي يعيش بعيدًا عن الناس وكأنه سؤال يمشي على قدمين : **ما الذي يبقى من الإنسان إذا ابتعد عن الإنسان ؟**

وهذا السؤال لم يعد قديمًا كما يبدو ،

ففي عصر الهاتف والشاشات ، لم يعد الطفل بحاجة إلى غابة كي يعيش في بيئة مختلفة ،

قد تكون الغابة في غرفة مغلقة ، وقد يكون المعلم شاشة ، وقد تصبح الكلمات التي يسمعها من الغرباء أكثر تأثيرًا من كلمات أسرته ، وقد يتعلم العنف من لعبة ، أو السخرية من مقطع ، أو التنمر من مجموعة ، أو الخوف من قصة متكررة ،

البيئة تغيرت ، لكن القاعدة لم تتغير ،

الطفل يتعلم من العالم الذي يحيط به ،

X

جلس مروان من جديد ،

تذكر يومًا دخل فيه إلى صفه طفل صغير اسمه **آدم** ، كان آدم كثير الحركة ، يقاطع زملاءه ، يغضب بسرعة ، يدفع الأطفال إذا اختلف معهم ،

في البداية قال بعض المعلمين : هذا طفل عدواني ،

لكن مروان لم يقتنع ، طلب أن يعرف أكثر ،

اكتشف أن الطفل يعيش في بيت تكثر فيه المشاجرات ، كان يسمع الكبار يتحدثون بعنف ، وكان يرى أن المشكلة تُحل بالصوت المرتفع ، لم يحتج آدم إلى درس عن العدوان ، كان يتلقى الدرس كل يوم ،

ولهذا بدأ مروان معه بطريقة مختلفة ،

لم يقل : لا تضرب ، فقط ، بل أعطاه بدائل ،

علمه أن يقول : أنا غاضب ، أنا لا أحب هذا ، أريد دوري ، هل يمكن أن نتحدث ؟

وكان مروان يعرف أن الطفل لا يحتاج إلى النهي وحده ، إنه يحتاج إلى **لغة بديلة** ،

فإذا أخذت منه سلوكًا دون أن تمنحه سلوكًا آخر ، تركته واقفًا في الفراغ ،

وبعد أشهر ، لم يصبح آدم طفلًا مثاليًا ، لكنه بدأ يتغير ، في يوم اختلف مع زميله ، رفع يده كأنه يريد دفعه ، ثم توقف ،

نظر إليه وقال : أنا غاضب منك ،

كان مروان في آخر الفصل ، لم يتدخل ، ابتسم فقط ،

لقد فهم أن التربية الحقيقية تبدأ أحيانًا في تلك اللحظة الصغيرة التي يختار فيها الطفل سلوكًا جديدًا ،

X

قرأ مروان عن أطفال عاشوا في الغابات والجبال ، وعن حالات قيل فيها إن الأطفال كانوا يتحركون على أربع ، ويقفزون بين

الصخور ، ويأكلون أوراقًا أو جذورًا أو لحومًا ، وعن أطفال عاشوا بين الأغنام أو الماعز والماشية ،

وتذكر **دانيال** ، **فتى الماعز** ، الذي ارتبطت قصته بحياة قاسية بين الماعز ، وكان يشرب حليبها ويأكل الجذور والتوت ،

ثم قرأ عن **جان دي لييج** ، الطفل الذي قيل إنه اختبأ في الغابة هربًا من الحرب وهو صغير ، وبقي سنوات طويلة بعيدًا عن الاتصال البشري ، وحين عاد ، كانت حواسه شديدة الحساسية ، لكنه فقد كثيرًا من المهارات التي يحتاج إليها الإنسان في المجتمع ،

كان مروان يرى في هذه القصص درسًا آخر : **الإنسان قد يكتسب قوة من بيئته ، لكنه قد يفقد أشياء أخرى بسببها ،**

الطفل الذي يعيش في الطبيعة قد تصبح حواسه أكثر يقظة ، والطفل الذي يعيش في مجتمع لغوي قد تصبح لغته أكثر تطورًا ، والطفل الذي يعيش في بيئة اجتماعية غنية يتعلم قراءة وجوه الناس ومشاعرهم ، والطفل الذي يعيش في بيئة آمنة قد يتعلم الثقة ،

لكن البيئة الواحدة لا تعطي كل شيء ، كل بيئة تزرع أشياء ، وتترك أشياء أخرى ،

ولهذا فإن التربية الحكيمة لا تسأل فقط : ماذا نريد أن يتعلم الطفل ؟

بل تسأل : **ما البيئة التي ستجعل هذا التعلم ممكنًا؟**

X

قرأ مروان عن **دينا سانشار** ، الطفل الذي ارتبطت قصته بالعيش بين الذئاب في الهند في القرن التاسع عشر ، وقيل إنه لم يستطع تعلم الكلام رغم سنوات طويلة قضاها بين البشر ،

قرأ أيضًا عن حالات أخرى لأطفال عاشوا سنواتهم الأولى بعيدًا عن اللغة البشرية ، وظل تعلم الكلام لديهم شديد الصعوبة ،

توقف طويلًا أمام هذه القصص ، فهم أن اللغة ليست كلمات فقط ، إنها عالم كامل ،

حين تقول الأم لطفلها : تعال ،

ثم تحمله ،

وحين يقول الأب : هل أنت حزين؟

ثم ينتظر جوابه ،

وحين تقول المعلمة : خذ وقتك ،

فهي لا تعلمه اللغة فقط ، إنها تعلمه أن مشاعره قابلة للتسمية ، أن أفكاره يمكن أن تخرج إلى العالم ، أن هناك إنسانًا آخر يمكن أن يفهمه ،

ولهذا فإن الحرمان من اللغة ليس حرمانًا من الكلمات وحدها ، إنه قد يكون حرمانًا من طريق يصل الإنسان بالعالم ،

X

ابتسم مروان عندما وصل إلى الأساطير ،

تذكر **رومولوس وريموس** ، التوأمين اللذين تقول الأسطورة الرومانية إن ذئبة أرضعتهما ، ثم أصبحا جزءًا من قصة تأسيس روما ، وتذكر **ماوكلي** ، الطفل الذي عاش في خيال روديارد كيبلينغ بين الذئاب ، وتذكر **طرزان** ، ذلك الطفل الذي صنع الأدب منه أسطورة تعيش بين الأشجار ، وتذكر **حي بن يقظان** في التراث العربي ، وما تحمله حكايته من أسئلة عن الإنسان والمعرفة والعزلة والتعلم ،

لم تكن هذه القصص مجرد حكايات عن أطفال وحيوانات ، كان البشر يستخدمون الطفل المتوحش ليسألوا عن أنفسهم ،

هل الإنسان ابن الطبيعة ؟ هل الحضارة تصنع الإنسان ؟ هل الأخلاق تولد معنا أم نتعلمها ؟ هل نستطيع أن نكون بشرًا بلا مجتمع ؟ وهل المجتمع دائمًا هو الذي يجعلنا أفضل ؟

كانت هذه الأسئلة أكبر من الغابة ، كانت تسكن داخل الإنسان نفسه ،

X

في اليوم التالي دخل مروان الفصل مبكرًا ،

وضع على السبورة جملة واحدة : **قل لي ماذا يرى الطفل كل يوم ، أقل لك ماذا قد يصبح غدًا ،**

دخل الطلاب ،

ضحك أحدهم ،

قال آخر : هل هذه مسابقة؟

ابتسم مروان ، وقال : لا ، اليوم لن أشرح لكم شيئًا ،

جلس الأطفال في أماكنهم ،

ثم وضع أمامهم ثلاث صور : بيت هادئ ، وساحة مليئة بالشجار ، وفريق من الأطفال يتعاونون في بناء شيء ،

وسأل : لو عاش طفل عشر سنوات في كل مكان من هذه الأماكن ، ماذا يمكن أن يتعلم ؟

بدأت الإجابات ،

قال أحدهم : في البيت الهادئ يتعلم الأمان ،

قالت فتاة : في المكان الذي فيه شجار ، قد يتعلم الخوف ،

وقال آخر : إذا رأى الناس يتعاونون ، فسوف يتعلم التعاون ،

ابتسم مروان ،

ثم قال : إذن أنتم تعرفون شيئًا مهمًا جدًا عن التربية ،

سكت الفصل ،

وأضاف : الطفل لا يسمعنا فقط ، الطفل يراقبنا ،

كانت الجملة بسيطة ،

لكنها نزلت في نفوسهم كحجر صغير في ماء ساكن ،

X

لكن مروان كان يعرف أن هناك خطأ آخر يجب تجنبه ،

إذا كانت البيئة تؤثر في الإنسان ، فهل يعني ذلك أن الإنسان أسير بيئته إلى الأبد ؟

لا ،

وهنا كان الفرق بين **الفهم** و**التبرير** ،

قال لطلابه : إذا كان الطفل قد تعلم الخطأ من بيئته ، فعلينا أن نفهم ذلك ، لكن الفهم لا يعني أن نتركه يستمر في الخطأ ،

نحن لا نقول للطفل : أنت عدواني لأن بيتك كان صعبًا ،

بل نقول : أفهم لماذا تعلمت الغضب ، وسأساعدك على تعلم طريقة أخرى ،

هذه هي التربية ،

أن ترى الجرح دون أن تجعل الجرح هوية ، أن تقول للإنسان : ما حدث لك مهم ، لكنه ليس كل ما أنت عليه ،

فقد يولد الطفل في بيئة فقيرة ، لكنه يستطيع أن يتعلم الكرامة ، وقد يعيش في بيت مضطرب ، لكنه يستطيع أن يتعلم السلام ، وقد يخطئ كثيرًا ، لكنه يستطيع أن يبدأ من جديد ،

فالبيئة تصنع أثرًا عميقًا ، لكنها ليست قدرًا مغلقًا ،

X

قرر مروان أن يغير شيئًا في مدرسته ،

لم يبدأ بمشروع ضخم ، بدأ بأشياء صغيرة ،

أن يصغي المعلم إلى الطفل قبل أن يعاقبه ، أن يكون في كل فصل وقت للحوار ، أن يتعلم الأطفال كيف يعتذرون ، أن تكون هناك مساحة آمنة للطفل الذي يخاف الكلام أمام الجميع ، أن يتوقف المعلم عن استخدام السخرية وسيلة للسيطرة ، أن يعرف كل طفل أن هناك بالغًا واحدًا على الأقل يستطيع أن يلجأ إليه ،

وقال لزملائه : لسنا مطالبين بأن نصنع أطفالًا كاملين ، نحن مطالبون بأن نصنع بيئة تساعد الأطفال على النمو ،

لم يكن التغيير سريعًا ، بعض المعلمين قاوموه ، وبعض الأطفال سخروا منه ،

لكن شيئًا صغيرًا بدأ يحدث ، أصبح الأطفال يتحدثون أكثر ، بدأ بعضهم يعتذر ، قلّت المشاجرات ، وصار الطفل الذي كان يخاف من المشاركة يرفع يده أحيانًا ،

لم تتحول المدرسة إلى مدينة فاضلة ، لكنها أصبحت أكثر إنسانية ،

X

بعد سنوات ، عاد مروان إلى المكتبة نفسها ، كان الملف القديم ما يزال هناك ، فتح الصفحة التي كتب فيها : هل يولد الإنسان كما يصبح ؟

ثم أضاف تحتها:

الإنسان يولد استعدادًا ، ثم تأتي البيئة فتفتح بعض الأبواب وتغلق بعضها ،

نظر إلى النافذة ، كانت الشجرة القديمة ما تزال في مكانها ، تذكر الأطفال الذين قيل إن الذئاب رعتهم ، والذين عاشوا مع الكلاب ، والذين وجدوا أنفسهم بين الدببة أو الأغنام أو الماعز ،

وتذكر الأطفال الذين لم تربهم الحيوانات أصلًا ، بل ربّتهم الوحدة والحرب والخوف والفقر والإهمال ،

وفجأة أدرك شيئًا لم يكن واضحًا له في بداية رحلته ،

ربما كان السؤال الخطأ هو : **كيف أصبح هؤلاء الأطفال مثل الحيوانات ؟**

أما السؤال الأعمق فهو : **كيف يمكن للإنسان أن يصبح صورة للعالم الذي عاش فيه ؟**

فالطفل مرآة عجيبة ، قد تعكس وجه أمه ، أو صوت أبيه ، أو غضب الشارع ، أو حنان المعلم ، أو قسوة الجماعة ، أو دفء صديق ،

وقد تحمل المرآة خدوشًا كثيرة ، لكنها تظل قابلة لأن ترى وجهًا جديدًا ،

X

قبل أن يغادر المكتبة ، كتب رسالة قصيرة وتركها على مكتبه ،

لم تكن موجهة إلى المعلمين وحدهم ،

كتب في أولها : **إلى كل من يربي طفلًا ، ، ،**

ثم قال :

إن الطفل لا يحتاج إلى بيت جميل فقط ، بل إلى علاقة آمنة ، ولا يحتاج إلى الطعام وحده ، بل إلى كلمة تمنحه الشعور بأنه محبوب ،

ولا يحتاج إلى الأوامر وحدها ، بل إلى قدوة يراها أمامه ، ولا يحتاج إلى أن نطالبه بأن يكون قويًا دائمًا ، بل إلى أن نعلمه كيف يكون قويًا دون أن يصبح قاسيًا ،

لا تسألوا الطفل دائمًا : لماذا فعلت هذا ؟

اسألوه أحيانًا : ماذا حدث لك حتى فعلت هذا ؟

ثم ساعدوه على أن يختار فعلًا آخر ،

تذكروا أن الطفل الذي يراكم تكذبون سيتعلم الكذب أسرع من الطفل الذي يسمع محاضرة عن الصدق ، والطفل الذي يراكم تحترمون العامل والفقير والغريب سيتعلم احترام الإنسان دون درس طويل ، والطفل الذي يرى أباه يعتذر حين يخطئ سيفهم أن الاعتذار ليس ضعفًا ، والطفل الذي يجد معلمًا يسمعه حين يخاف ، قد يحمل صوته معه سنوات طويلة ،

ثم كتب في آخر الصفحة :

نحن لا نربي الأطفال بالكلمات التي نقولها لهم فقط ، بل بالعالم الذي نصنعه حولهم ،

أغلق مروان الملف ، وأطفأ المصباح ، وقبل أن يغادر ، وقف لحظة عند الباب ،

كان الظلام خارج المكتبة عميقًا ، لكن في آخر الممر كان هناك ضوء صغير ، لم يعرف من أين جاء ،

ابتسم ،

وفكر أن التربية تشبه ذلك الضوء ، لا تطرد الظلام كله دفعة واحدة ، لكنها تمنح الإنسان طريقًا يراه ،

X

ربما لم تكن قصص الأطفال الذين عاشوا مع الذئاب أو الكلاب أو غيرها مجرد حكايات غريبة عن الماضي ، وربما كانت ، قبل كل شيء ، مرآة لنا ،

فالطفل لا يختار الغابة التي يولد فيها ، لا يختار أسرته ، ولا لغته ، ولا الفقر أو الغنى ، ولا الخوف أو الأمان ، ولا الكلمات التي يسمعها في سنواته الأولى ،

لكن الكبار يملكون شيئًا عظيمًا : **القدرة على صناعة البيئة التي ينمو فيها الطفل ،**

وهنا تبدأ المسؤولية ،

قد لا نستطيع تغيير العالم كله ، لكننا نستطيع أن نغير الغرفة التي يجلس فيها طفل ، نستطيع أن نغير طريقة حديثنا معه ، نستطيع أن نوقف سخرية واحدة ، أن نمنع ظلمًا واحدًا ، أن نصغي إلى شكوى ، أن نعطي فرصة ثانية ، أن نعلمه الاعتذار ، أن نريه أن القوة يمكن أن تكون رحيمة ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون قويًا دون أن يؤذي ،

فالطفل الذي وجدته الذئاب عاش وفق قانون الغابة ، والطفل الذي وجدته الكلاب تعلم لغة الكلاب ، والطفل الذي عاش في العزلة حمل آثار العزلة في صوته وحواسه ،

أما أطفالنا اليوم ، فإنهم يعيشون في بيئات نصنعها نحن ، فإذا أردنا منهم الصدق ، فلنصنع حولهم عالمًا يحترم الصدق ، وإذا أردنا منهم الرحمة ، فلنكن رحماء ، وإذا أردنا منهم احترام الآخر ، فليرونا نحترم من يختلف عنا ، وإذا أردنا منهم أن يحبوا العلم ، فلنجعل المعرفة شيئًا حيًا لا عقوبة ، وإذا أردنا منهم أن يكونوا بشرًا أفضل ، فعلينا أن نسأل أنفسنا أولًا:

أي عالم نضعه حولهم ؟

فربما لا يحتاج الطفل إلى أن تعلّمه كيف يكون إنسانًا بقدر ما يحتاج إلى أن يجد حوله **إنسانًا حقيقيًا** يريه الطريق ،

وفي النهاية ، ليست الغابة هي التي تربي الطفل وحدها ، البيت يفعل ، والمدرسة تفعل ، والشارع يفعل ، والشاشة تفعل ، والصديق يفعل ،

وكل كلمة نقولها أمامه تترك أثرًا ، حتى لو ظننا أنه لا يسمع ، كل موقف يراه يتحول إلى درس ، كل علاقة يعيشها قد تصبح جزءًا من صوته الداخلي ،

ولهذا فإن السؤال الذي بدأ به مروان رحلته لم يعد :**هل يولد الإنسان كما يصبح ؟**

بل أصبح : **ماذا نصنع نحن في الإنسان الذي لم يكتمل بعد ؟**

وهذا هو السؤال الذي ينبغي أن يبقى مفتوحًا ، لأن كل طفل يمشي بيننا يحمل في داخله غابة صغيرة ،

وفي تلك الغابة أصوات كثيرة ، صوت الخوف ، وصوت الحب ، وصوت التقليد ، وصوت الأمل ،

ومهمتنا ليست أن نقتلع الغابة ، بل أن نساعد الطفل على أن يجد فيها **طريقًا يؤدي إلى النور** ،

الصياد والأسد الجبلي

في مساءٍ ساكنٍ من أمسيات الخريف ، حين بدأت الشمس تميل إلى المغيب ، وانسكب ضوءها على التلال كأنه خيوط ذهبٍ ذابت في الهواء ، كانت الغابة تستعد لليلها الطويل ، الأشجار العالية وقفت صامتة ، والأغصان اليابسة كانت تصدر أنينًا خافتًا كلما داعبتها الريح ، وفي قلب ذلك السكون ، كان هناك رجلٌ يعرف الغابة كما يعرف وجهه في المرآة ؛ صيادٌ ماهر ، خبيرٌ بممراتها الضيقة ، وبأصواتها

الخفيّة ، وبخطرها الذي قد ينام لحظة ثم يستيقظ فجأة كالنار تحت الرماد ،

كان ذلك الصياد لا يخرج إلى الصيد عبثًا ، ولا يدخل الغابة متكبرًا على قوانينها ، فقد تعلّم منذ صغره أن الطبيعة لا تُعطي من يجرؤ عليها ، بل من يفهمها ، وأن الحيوان ، مهما بدا صغيرًا ، له حقّ في أن يعيش ، ما دام الإنسان لا يحتاج إلى صيده إلا بقدر الضرورة ، لذلك كان شديد الانتباه ، كثير الحساب ، لا يقترب من الخطر إلا كما يقترب الطفل من الماء : بحذرٍ ووعي ،

وقد بلغ سمعه منذ أيام أن في ذلك الموضع من الغابة ديكة برية نادرة ، تعيش بين الشجيرات الكثيفة ، وتختبئ بين العشب والأشجار ، ولا تظهر إلا عند الساعات الهادئة من المساء ، وكانت تلك الطيور تُعدّ صيدًا ثمينًا في نظر أهل القرى القريبة ، ليس لأن لحمها أكثر من غيره ، بل لأنها نادرة ، ولأن من يظفر بها مرةً يشعر أنه انتصر على صعوبة المكان لا على الطير نفسه ،

فكر الصياد طويلًا ، ثم قال في نفسه : سأذهب عند الغروب ، لا في النهار ، فالطيور حين يقترب الليل تقلّ حركتها ، والوحش حين يشتد الظلام يزداد جرأة ، فلا بدّ من عقلٍ يقظة ، لا من يدٍ سريعة فقط ،

ربط حصانه في مكان بعيد ، تحت شجرة ضخمة لا تُصدر حركتها ضجيجًا ، وسار وحده بين الأعشاب ، واضعًا بندقيته القديمة على كتفه ، كانت خطواته بطيئة ، محسوبة ، كأنه يكتب على الأرض سطرًا لا يريد أن يُمحى ، كلما مرّ بجذع شجرة أو بحفرة أو بجذور بارزة ، توقّف لحظة ، ثم تابع ، كان يعرف أن الخطأ في الغابة لا يُصلح بسهولة ، وأن من يستخفّ بالتفاصيل الصغيرة يدفع ثمنها كبيرًا ،

ومع آخر خيطٍ من ضوء النهار ، بدأ يقترب من المكان الذي قيل له إن الديكة تتجمع فيه ، سمع حفيفًا خفيفًا ، ثم لمح بين الأغصان حركة سريعة ، انتظر ، ثم تقدّم خطوة ، ثم أخرى ، وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه أمام مجموعة من الديكة البرية ، كانت منشغلة بالبحث عن قوتها الأخير قبل أن يهبط الليل ،

رفع بندقيته بحذر ، وكان قلبه يخفق لا من الخوف ، بل من شدة التركيز ، أطلق النار مرة ، ثم ثانية ، ثم توقف ، كان صيدًا ناجحًا على غير عادته ، وحين انقشع الصمت ، وجد أمامه ستة ديكة دفعة واحدة ، ابتسم ، لا ابتسامة الطمع ، بل ابتسامة الرضا ؛ لأن الصياد حين يوفق في عمله يشعر أن جهده لم يذهب هباءً ،

جمع الديكة ، وربطها واحدةً بعد أخرى ، ووضعها في حزمة صغيرة على كتفه ، ثم بدأ رحلة العودة عبر الغابة ، كانت السماء قد غطتها زرقة الليل ، ثم بدأ القمر يرفع وجهه شيئًا فشيئًا ، حتى سال ضوؤه الفضي بين الأغصان ، فبدت الأشجار كأنها أشباحٌ طويلة تتحرك في سكون ، ولم يكن الطريق إلى الحصان قصيرًا ، لكنه كان يعرفه جيدًا ،

مضى خطواتٍ قليلة ، ثم سمع شيئًا ، لم يكن الصوت عاديًا ، كان خفيفًا في بدايته ، ثم صار أوضح ، ثم تحوّل إلى زئيرٍ عميقٍ خرج من الظلام كأنه صوت جبلٍ يتحرك ، توقف الصياد ، وشدّ قبضته على الحزمة ، وشعر أن الهواء من حوله برد فجأة ، التفت ببطء ، فرأى على مسافة غير بعيدة عينين تلمعان في العتمة ، وعرف في الحال أن الذي خلفه ليس ذئبًا ، ولا كلبًا بريًا ، ولا حتى حيوانًا جائعًا عابرًا ، إنه **أسد جبلي** ،

وكان معروفًا في تلك الناحية أن الأسد الجبلي قليل الظهور ، لكنه إذا ظهر كان حضوره مرعبًا ، حيوان قوي ، سريع ، صبور ، لا يضيع فريسته بسهولة ، يختفي طويلًا ثم يخرج في اللحظة التي يظن فيها الإنسان أنه نجا ، وهكذا هو الخطر في الحياة كثيرًا ؛ ليس دائم الصوت ، بل قد يأتي صامتًا ، ثم يقترب حتى يصير في القلب قبل العين ،

شعر الصياد أن الأرض ضاقت تحت قدميه ، لو كان وحده تمامًا ، لربما تمكن من الدفاع عن نفسه ، أو من الهرب بسرعة ، لكن المشكلة أن يديه كانتا مشغولتين بحمل صيده ، وأن المسافة إلى الحصان ما زالت قائمة ، والأسد يتقدّم ببطء واثق ، كأنه يعرف أن الفريسة لن تفلت ،

في تلك اللحظة ، لم ينهَر الصياد ، لم يصرخ ، ولم يركض ركضًا أعمى ، لقد تذكّر أول قاعدة تعلّمها في حياته : **العقل في لحظة الخطر قد ينقذ أكثر مما تنقذ القوة ،**

فكر بسرعة ، ثم أخرج ديكًا من الحزمة ، وألقاه أمام الأسد ، توقّف الوحش لحظة ، ثم انحنى ، وشمّ الرائحة ، وانقضّ على الطير وأكله في ثوانٍ ،

تنفّس الصياد الصعداء ، ثم تابع سيره ، وقد ظنّ أن تلك الحيلة ستكون كافية لتشتت الأسد وتمنحه وقتًا للوصول إلى حصانه ،

لكن بعد خطوات قليلة ، سمع الزئير من جديد ، التفت فإذا بالأسد ما زال خلفه ، بل صار أقرب ،

لم يعد هناك مجال للغرور ، ولا وقت للتسويف ، أدرك الصياد أن الوحش جائع ، وأنه لن يكتفي بواحدٍ من الديكة ، وأنه إن تأخر لحظة فلن يكون أمامه إلا النهاية ،

أخرج ديكًا ثانيًا ، ورماه بعيدًا عنه ، ثم رمى ثالثًا ، ثم رابعًا ، وفي كل مرة كان الأسد يتوقف ، يأكل ، ثم يعود ، وكانت كل خطوة يربحها الصياد تعني أن قلبه يخسر جزءًا من طمأنينته ، ومع ذلك لم يسمح للخوف أن يشلّ تفكيره ، كان كمن يواجه مشكلة كبيرة في الحياة ؛ لا يملك حلًا كاملًا ، فيوزّع النجاة على خطوات صغيرة ،

وهنا تظهر حكمة تربوية دقيقة : ليس كل من يواجه الأزمة ينتصر بالصوت العالي ، ولا كل من يرتبك يضيع ، أحيانًا يكون النجاح في أن تُقسّم الخطر إلى أجزاء ، وأن تتصرف بذكاء مع ما تملك ، لا مع ما تتمنى ، وكثيرًا ما نرى هذا في حياتنا اليومية : طالبٌ يواجه امتحانًا صعبًا ، فلا يبكي على صعوبة المادة ، بل يراجع درسًا بعد درس ، وأبٌ عليه مسؤوليات كثيرة ، فلا ينهار تحت ثقلها ، بل يبدأ بالأهم ثم المهم ، وطفلٌ ضيّع طريقه في مكان مزدحم ، فلا يركض في كل اتجاه ، بل يهدأ ويبحث عن علامةٍ واضحة أو شخصٍ يساعده ، هكذا تتعلّم النفس أن الحذر ليس جبنًا ، بل حكمة ،

واصل الصياد طريقه ، والأسد خلفه ، والليل من فوقه ، والأشجار من حوله ، كأن الغابة كلها صارت اختبارًا واحدًا طويلًا ، كان يسمع صوت أنفاسه ، وصوت حوافر الأسد حين يقترب ، وصوت الريح بين الأغصان ، وفي كل مرة كان يلتفت فيها ، كان يرى الموت يقترب ثم يتراجع قليلًا مع قطعة لحم صغيرة من صيده ،

وبقي معه ديكٌ واحد فقط ، توقف لحظة ، ونظر إلى الحزمة ، ثم إلى الطريق ، ثم إلى القمر البعيد ، وكأنه يسأل نفسه : هل ما زال في العمر متسع ؟ وهل تكفي هذه الحيلة الأخيرة ؟

وكان قد اقترب من المكان الذي ربط فيه حصانه ، لاحت له الشجرة الكبيرة من بعيد ، وظهر ظل الحصان بين العشب كأنه وعدٌ بالنجاة ، عندها أدرك أن آخر فرصة بين يديه ، لم يفكر كثيرًا ، ألقى الديك الأخير بكل ما في جسده من قوة ، فاندفع الطير في الهواء ، ثم سقط بعيدًا في اتجاهٍ آخر ، وانشغل الأسد به ، وهي لحظة قصيرة لكنها كانت أثمن من الذهب ،

لم يتردد الصياد ، ركض ، قفز ، أمسك بسرج الحصان ، وامتطاه دفعة واحدة ، ثم أطلق العنان له ، انطلق الحصان كالسهم ، تقطع حوافره الطريق المظلم ، فيما الغابة تتراجع خلفه كأنها تريد أن تبتلع أثره ولا تستطيع ، لم يلتفت إلى الخلف ، كان يعرف أن الالتفات في لحظة النجاة قد يبدد النجاة نفسها ، فالعاقل حين يخرج من الفخ لا يعود ليختبره من جديد ،

ركض ، وركض ، حتى خرج من الغابة ، ثم عبر السهل الصغير ، ثم وصل إلى بيته مع اقتراب الليل من منتصفه ، دفع الباب بيدٍ مرتجفة ، ودخل وهو يلهث ، كان وجهه شاحبًا ، وكتفاه متعبتين ، وثيابه ملطخة بتراب الطريق ، وقلبه لا يزال يطرق صدره كطبول بعيدة ،

رأت زوجته حاله ، فأسرعت إليه مذعورة ، وقالت :ما بك ؟ ماذا جرى لك ؟ ولماذا ترتجف هكذا ؟ أراك تحمل الخوف في عينيك أكثر مما تحمل التعب في جسدك ،

جلس الصياد على المقعد الخشبي ، وأسند رأسه إلى يده ، ثم قال بعد أن أخذ نفسًا طويلًا : لقد نجوت ، نعم ، لكنني لم أعد كما كنت حين خرجت ، رأيت الموت قريبًا ، وتعلّمت في دقائق ما قد لا يتعلمه المرء في سنين ،

قالت زوجته وهي تحاول أن تهدئه : الحمد لله على سلامتك ، لقد عدت ومعك الصيد ، وعدت حيًّا ، وهذا هو الأهم ،

هزّ الصياد رأسه وقال : هذا صحيح ، لكنني أدركت شيئًا مخيفًا ...لو أنني اصطدت خمسة ديكة فقط ، لا ستة ، لكنت الآن أنا الديك السادس في فم ذلك الأسد ،

صمتت الزوجة لحظة ، ثم نظرت إليه بعينين فيهما دهشة وحكمة ، وقالت :ما يكفي من الحذر ، إن الزيادة الصغيرة قد تصنع فرقًا كبيرًا ، والاحتياط قد يكون باب النجاة ،

سكت الصياد ، وراح يفكر في كلماتها ، لقد كان طوال حياته يظن أن الحظ وحده هو الذي يقرر مصير الإنسان ، لكن الليلة فهم أن الحظ لا يعمل وحده ، إن وراء النجاة دائمًا عينًا تراقب ، وعقلًا يخطط ، وصبرًا يمنع الاندفاع ، ونفسًا تعرف متى تتوقف ومتى تتقدم ، إن المرء قد ينجو بفضل خطوة زائدة ، أو فكرة سريعة ، أو قرار اتخذ في الوقت المناسب ،

وهنا تكمن القيمة التربوية الأهم في القصة : أن الإنسان لا يعيش بالجرأة وحدها ، ولا بالقلق وحده ، بل بالتوازن بينهما ، فالجرأة تدفعه إلى الفعل ، والحذر يحفظه من السقوط ، ومن لا يتعلم التفكير قبل الحركة ، قد يربح لحظة ويخسر عمرًا ، أما من يربّي نفسه على التأمل ، وعلى تقدير العواقب ، وعلى قراءة ما وراء المشهد ، فإنه يكون أقدر على حماية نفسه وأهله وعمله ومستقبله ،

وفي حياتنا أمثلة كثيرة تشبه هذه الحكاية ،

فكم من طالبٍ أهمل واجبه ثم تمنى النجاح ساعة الامتحان ، فخسر لأن الدقائق الأخيرة لا تعوض شهور الإهمال ، وكم من موظفٍ لم يراجع عمله فوقع في خطأ بسيط ، لكنه كاد يسبب مشكلة كبيرة ، وكم من أسرةٍ تجاهلت مشكلة صغيرة بين أبنائها ، فكبرت حتى صارت خلافًا صعبًا ، إن التفاصيل الصغيرة ليست صغيرة دائمًا ، لأن الحياة كثيرًا ما تحاسبنا على ما نهمله لا على ما نراه فقط ،

وهكذا عاد الصياد إلى بيته وقد حمل معه أكثر من صيدٍ ونجاة ، حمل معه درسًا ، درسًا يقول إن الحذر لا يناقض الشجاعة ، وإن العقل قد يسبق السيف ، وإن الإنسان إذا فهم سنن الحياة ، استطاع أن يعبر كثيرًا من المخاطر بأقل الخسائر ، كما حمل درسًا آخر : أن الطمع في المزيد لا يفسد كل شيء دائمًا ، لكنه قد يفتح بابًا للتفكير العميق ؛

فالمهم ليس أن نأخذ أكثر فقط ، بل أن نعرف متى يكفي ما بين أيدينا ، ومتى يتحول المزيد إلى عبء ،

وفي فجر اليوم التالي ، حين سكنت الغابة وهدأ كل شيء ، لم يعد الصياد ينظر إلى التلال كما كان ينظر إليها بالأمس ، صار يراها بعين مختلفة ؛ عين من عرف أن خلف الجمال قد يختبئ الخطر ، وأن خلف الخطر قد تولد الحكمة ، أما زوجته ، فكانت كلما رأت أبناءها يتسرعون في أمرٍ أو يتهاونون في آخر ، تذكرهم بهدوء :لا تجعلوا الخطوة الصغيرة تبدو لكم بلا قيمة ، فربما كانت هي التي تعبر بكم من جهة الخطر إلى جهة الأمان ،

وهكذا بقيت قصة الصياد والأسد الجبلي تُروى في القرية من جيلٍ إلى جيل ، لا بوصفها حكاية عن صيدٍ ونجاةٍ فحسب ، بل بوصفها درسًا في حسن التقدير ، وقوة التفكير ، وجمال التروّي ، فليس كل من عاد سالمًا عاد بالصدفة ، وليس كل من نجا خرج بلا رسالة ، بعض الحكايات تأتي لتقول لنا بهدوء : إن الحياة لا تُؤخذ دفعة واحدة ، بل تُعاش خطوة خطوة ، وأن النجاة أحيانًا تكون في ديكٍ واحدٍ زائد ، أو في قرارٍ صغيرٍ اتُّخذ في لحظة صحيحة ،

العبرة :

في الحياة ، قد تصنع التفاصيل البسيطة فرقًا كبيرًا ، ومن يحسن التفكير ، ويجمع بين الشجاعة والحذر ، ويقرأ العواقب قبل الأفعال ، يكون أقرب إلى النجاة ، وأقدر على عبور الطريق بأمان ،

حطّاب الخيزران

والفتاة التي جاءت من ضوء القمر

حكاية عن التربية ، والاختيار ، وما لا يستطيع الإنسان أن يمتلكه

في بعض الحكايات ، لا تفتح لنا الغابة بابًا إلى مكان آخر ، بل تفتح بابًا إلى أنفسنا ،

وكانت غابة الخيزران في ذلك الصباح هادئة على نحو غريب ،
لا صوت فيها إلا حفيف الأوراق وهي تتلامس فوق رؤوس الأشجار ، كأن آلاف الأصابع الخضراء تصفق للريح في سرّها ،

دخل الحطّاب العجوز الغابة كعادته ، كان يمشي ببطء ، يحمل فأسه على كتفه ، وسلّة من القش على ظهره ، لم يكن غنيًا ، ولم يكن صاحب جاه ، لكنه كان يعرف الغابة كما يعرف الإنسان وجه صديق قديم ، يعرف أين ينمو الخيزران القوي ، وأين تختبئ الطيور ، وأين تنزل مياه المطر بين الصخور ،

كان الناس يرون في عمله قطع الخيزران ، أما هو فكان يرى فيه رزقًا ،

كان يقول لزوجته كلما عاد في المساء : الغابة لا تعطينا ما نريد ، يا امرأة ، لكنها تعطينا ما نحتاج ،

ولم يكن يعلم أن الغابة في ذلك اليوم كانت تخبئ له شيئًا لم يطلبه ، ولم يتخيله ، ولم يكن مستعدًا له ،

بينما كان يقطع إحدى سيقان الخيزران ، رأى نورًا يخرج من داخلها ، توقف ، أنزل فأسه ، اقترب ، كان الضوء ناعمًا ، كأنه ضوء قمر حُبس داخل ساق خضراء ،

قال لنفسه : لعلها حيلة من الشمس ،

لكن الشمس كانت خلف الغيوم ، مد يده ولمس الساق ، ثم قطعها ،

وحين انشق الخيزران ، ظهرت أمام عينيه طفلة صغيرة جدًا ، بحجم إصبع اليد ، تلمع في وسط الساق كأنها نجمة هبطت من السماء ،

ظل العجوز ساكتًا ، لم يفكر في الذهب ، ولا في الغرابة ، ولا في الخوف ، فكر في شيء واحد : **هذه طفلة** ،

حملها بين يديه ، وضمها إلى صدره ، وعاد بها إلى البيت ،

كانت زوجته تنتظره ، وحين رأتها ، بكت ، لم تكن دموعها بسبب العجب ، بل بسبب شيء أعمق ،

لقد عاش الزوجان سنوات طويلة بلا أبناء ، وكان البيت هادئًا أكثر مما ينبغي ، هدوء يشبه بيتًا ينتظر صوتًا لا يأتي ،

قالت المرأة : من أين جاءت ؟

أجاب : لا أعرف ،

ثم نظر إلى الصغيرة وأضاف : لكنني أعرف أنها الآن ابنتنا ،

وهنا تبدأ الحكاية الحقيقية ،

فالأبوة والأمومة ، في معناهما الأعمق ، ليستا مجرد علاقة دم ،

قد يولد الطفل من جسدك ، لكن شخصيته تولد أيضًا من كلماتك ، ومن نظراتك ، ومن الطريقة التي تعامله بها عندما يخطئ ، ومن الأشياء التي تريه أنها تستحق الحب ،

أطلقا عليها اسم **كاغويا** ،

ومنذ ذلك اليوم ، تغير البيت ، صار للعجوز سبب للعودة مبكرًا ، وصارت زوجته تغني وهي تطبخ ،

وصار الصمت الذي كان يسكن جدران المنزل أقل قسوة ،

لكن الغريب لم ينته ،

كلما قطع الحطّاب ساقًا من الخيزران ، وجد داخلها قطعة من الذهب ،

في البداية فرح ، ثم وجد قطعة أخرى ، ثم أخرى ،

فقالت زوجته: لقد أصبحنا أغنياء ،

ابتسم العجوز ،

لكنه لم يقل شيئًا ، كان ينظر إلى الذهب ، ثم إلى الطفلة ،

وكان في داخله سؤال لا يستطيع الإجابة عنه : **هل جاء الذهب من أجلها ، أم جاءت هي لتختبر ماذا سيفعل الذهب بنا ؟**

وهذا سؤال يصلح لكل زمان ،

كم من إنسان بدأ حياته بسيطًا ، ثم تغير عندما امتلك المال ؟ وكم من أب كان يربي أبناءه على القناعة ، ثم صار بعد تحسن حاله يعلّمهم ، من حيث لا يشعر ، أن قيمة الإنسان فيما يملك ؟

المال ليس شرًا ،

لكن الخطر يبدأ عندما يتحول المال من وسيلة للحياة إلى مقياس لقيمة الحياة ،

كان العجوز يستطيع أن يقول : لقد أصبحت غنيًا ، إذن أصبحت مهمًا ،

لكنه اختار شيئًا آخر ،

كان يقول : لقد أصبح عندي ما يكفيني ، فكيف أجعل حياة ابنتي أفضل ؟

وهنا تظهر التربية الحقيقية ، ليست التربية أن تعطي الطفل كل ما يطلب ، بل أن تعلّمه ماذا يفعل بما يُعطى له ،

مرت الأيام ،

وكان نمو كاغويا سريعًا بصورة لا تشبه نمو الأطفال ، في أشهر قليلة تحولت الطفلة الصغيرة إلى فتاة جميلة ، ثم إلى شابة آسرة ، حتى أصبح جمالها حديث الناس ،

بدأ الزوار يأتون إلى بيت الحطّاب ، بعضهم جاء بدافع الفضول ، وبعضهم جاء طمعًا ، وبعضهم جاء لأنه سمع أن هناك فتاة لا تشبه سائر الفتيات ،

ثم بدأ الخطّاب يتوافدون ، كان بينهم خمسة من كبار القوم ، رجال يملكون المال والجاه والقدرة على الوصول إلى ما يعجز عنه عامة الناس ،

لكن كاغويا لم تكن تبحث عن رجل يملك الكثير ،

كانت تبحث عن شيء لا تستطيع أن تشتريه قصور الدنيا ،

قال لها أبوها : يا ابنتي ، هؤلاء رجال كبار ، ألا تختارين أحدهم

ابتسمت ،

وقالت : يا أبي ، هل يكفي أن يكون الإنسان كبيرًا في عيون الناس حتى يكون كبيرًا في قلب من يحبه ؟

لم يجد العجوز جوابًا ،

لم تكن كاغويا تريد الزواج من أحد ، لكنها لم ترغب أيضًا في أن تهرب من الجميع بلا تفسير ،

فوضعت لكل واحد من الرجال مهمة مستحيلة ،

طلبت من الأول وعاءً مقدسًا من الهند ، وطلبت من الثاني غصنًا من شجرة أسطورية تتدلى منه الجواهر ، وطلبت من الثالث جلد جرذ النار الذي لا يحترق ، وطلبت من الرابع جوهرة من عنق تنين ، أما الخامس ، فطلبت منه شيئًا شديد الغرابة : جوهرة مرتبطة بعش طائر السنونو ،

كانت تعرف أن هذه الأشياء أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع ، لكنها كانت تريد أن ترى شيئًا أهم من قدرتهم على الحصول عليها ، كانت تريد أن ترى: **هل سيصدقون ؟ هل سيكذبون ؟ هل سيعترفون بعجزهم ؟ أم سيحاولون خداعها ؟**

وهنا تصبح الحكاية درسًا في السلوك الإنساني ،

فالاختبار الحقيقي للإنسان لا يظهر عندما ينجح ، بل يظهر عندما يخشى الفشل ،

ذهب الأول وعاد بوعاء مزيف ، كان جميلًا ، لكنه لم يكن حقيقيًا ، وعندما اكتشفت كاغويا الخديعة ، لم يكن أكثر ما أحزنها أنه فشل ، بل أنه كذب ،

أما الثاني ، فقد أمر الحرفيين بصناعة غصن مغطى بالجواهر ، كان الغصن رائعًا إلى درجة أن العين تكاد تصدقه ، لكن الحقيقة ظهرت عندما جاء الحرفيون يطالبون بأجورهم ، فانكشف صاحب الحيلة ، كان يملك المال ، لكنه لم يملك الصدق ، والإنسان قد يستطيع أن يشتري الأشياء ، لكنه لا يستطيع شراء الثقة بعد أن يحطمها ،

أما الثالث ، فقد أحضر جلدًا زعم أنه جلد جرذ النار ، وحين وُضع في النار احترق ، وكانت النار هنا أكثر من اختبار لقطعة جلد ، كانت اختبارًا للحقيقة ، فالحقيقة قد تتأخر ، لكنها لا تحترق ، والكذب قد يلمع في البداية ، لكنه لا يصمد أمام أول نار ،

أما الرابع ، فقد خرج يبحث عن التنين ، واجه البحر والعاصفة والخوف ، ثم عاد ، كان يمكن أن يكذب ويقول إنه رأى التنين ، لكنه لم يفعل ، اعترف بفشله ، وربما كان هذا الرجل ، رغم فشله ، أكثر صدقًا من الذين عادوا بأشياء مزيفة ،

أما الخامس ، فقد خاطر بحياته في محاولة للوصول إلى عش السنونو ، فسقط وكاد يهلك ، وهنا تكشف الحكاية معنى تربويًا آخر : **ليس كل ما نريده يستحق أن نخاطر من أجله** ، فالحماسة بلا حكمة قد تتحول إلى تهور ،

وفي حياتنا اليومية نرى ذلك كثيرًا ، طالب يريد الحصول على درجة عالية ، فيغش ، موظف يريد ترقية ، فيجامل على حساب مبادئه ، شاب يريد أن يثبت نفسه ، فيقلد أصدقاءه في سلوك خطر ، وشخص يريد النجاح سريعًا ، فينسى أن بعض الطرق القصيرة تقود إلى أماكن لا نريد الوصول إليها ،

ثم جاء الإمبراطور ، كان أقوى من جميع الرجال الذين سبقوه ، وكان يستطيع أن يأمر ، لا أن يطلب ،

لكنه عندما رأى كاغويا ، أحبها ، وطلب منها أن تتزوجه ، كان عرضه مختلفًا ، فهو لا يحتاج إلى غصن من الجواهر ولا إلى جلد أسطوري ،

كان يستطيع أن يمنحها قصرًا ، ومكانة ، وحياة مليئة بالرفاهية ،

لكن كاغويا رفضت ،

قالت له ، بمعنى واضح : أنا لا أستطيع أن أكون شيئًا يملكه أحد

وهنا تلمس الحكاية قضية إنسانية عميقة ،

الحب ليس امتلاكًا ، والأبناء ليسوا ممتلكات لآبائهم ، والزوج ليس ملكًا لزوجته ، والزوجة ليست ملكًا لزوجها ، والصديق ليس ملكًا لصديقه ،

كل إنسان يحمل داخله مساحة لا يجوز لأحد أن يصادرها ،

ولهذا فإن التربية المروان ة لا تقول للطفل : أنت كما أريد ،

بل تقول : أريد أن أساعدك لتصبح أفضل نسخة من نفسك

هناك فرق كبير بين أن نربي أبناءنا على قيمنا ، وبين أن نعيش حياتهم بدلًا منهم ،

مرت ثلاث سنوات ،

كانت كاغويا تعيش بين أهل الأرض ، وتتعلم لغتهم وعاداتهم ، وتحب أباها وأمها ، وتعرف معنى المطر ورائحة الخبز وصوت الطيور ،

لقد أصبحت الأرض بيتها ، لكن شيئًا ما ظل يسكن في أعماقها ، شيء لا تراه العيون ،

كانت تنظر إلى القمر طويلًا ، وفي الليالي المقمرة كانت تبكي ،

لاحظ العجوز ذلك ،

قال : ماذا بك يا ابنتي ؟

سكتت ،

ثم قالت : سيأتي يوم أرحل فيه ،

ارتجفت الأم ،

إلى أين ؟

نظرت كاغويا إلى القمر ،

وقالت : إلى المكان الذي جئت منه ،

هنا يتغير معنى الحكاية ،

فالإنسان قد يعيش سنوات طويلة في مكان ، ويظل يحمل داخله سؤال الأصل ،

لكن الحكاية لا تتحدث فقط عن فتاة جاءت من القمر ،

إنها تتحدث عن كل إنسان يبحث عن معنى وجوده ،

عن الطفل الذي يكبر ويسأل : من أنا ؟ ماذا أريد ؟ هل أعيش الحياة التي اخترتها ، أم الحياة التي اختارها الآخرون لي ؟

وكم من شاب يعيش اليوم أزمة شبيهة بكاغويا ، وإن لم يكن قادمًا من القمر؟

أب يريد لابنه أن يصبح طبيبًا ، لأن الطب كان حلمه هو ، وأم تريد لابنتها تخصصًا معينًا لأنها تراه أكثر مكانة ، وأسرة تريد زواجًا معينًا ، ومجتمع يضع للإنسان قائمة طويلة من ينبغي و يجب و ماذا سيقول الناس؟ ،

ثم يأتي يوم ينظر فيه الإنسان إلى المرآة ويسأل : **أين أنا في كل هذا ؟**

حين اقترب موعد الرحيل ، حاول الحطّاب أن يمنع الأمر ، طلب الحماية ، وأرسل الإمبراطور جنوده ،

لكن السماء كانت قد اتخذت قرارها ، في ليلة هادئة ، ظهر وفد سماوي ، امتلأ المكان بالنور ، وقف الجنود عاجزين ،

أما كاغويا ، فكانت تبكي ، ، لقد عرفت في تلك اللحظة أن الإنسان يستطيع أن يحب مكانين في الوقت نفسه ، يمكن أن يحب أصله ، ويحب المكان الذي ربّاه ، يمكن أن ينتمي إلى ماضٍ بعيد ، ويكون ممتنًا لحاضر صنعه ،

اقتربت من الرجل وزوجته ،

لم تكن تريد الرحيل ، لكنها كانت تعرف أن بعض الفراق لا يملك الإنسان منعه ،

كتبت لهما رسالة ، وقالت فيها ما يشبه الاعتذار والشكر ، ثم أعطتهما ثوبًا ليكون ذكرى ،

وكان أصعب ما في الرحيل أن الإنسان لا يأخذ معه كل شيء ، أحيانًا لا يبقى من الأشخاص إلا رائحة في غرفة ، أو مقعد فارغ ، أو رسالة قديمة ، أو كلمة كنا نظن أننا سنسمعها مرة أخرى ، ثم اكتشفنا أنها كانت الأخيرة ،

وقبل أن تصعد إلى السماء ، أعطت كاغويا الإمبراطور رسالة وإكسيرًا قيل إنه يمنح الخلود ،

كان يمكن أن يصبح الإمبراطور خالدًا ، كان يمكن أن يعيش إلى الأبد ،

لكنه لم يرغب في خلود بلا كاغويا ،

وهنا تنقلب الفكرة مرة أخرى ،

ماذا قيمة الحياة إذا كانت طويلة ، لكنها خالية من المعنى ؟

نحن نعيش اليوم هاجس الإطالة ، نريد عمرًا أطول ، ومظهرًا أصغر ، وتقنيات أكثر ، وأجهزة أذكى ،

لكن السؤال الأهم ليس : **كم سنعيش ؟**

بل : **كيف سنعيش ؟**

قد يعيش الإنسان سبعين عامًا ولا يترك وراءه إلا أثرًا ضعيفًا ، وقد يعيش آخر سنوات قليلة ، لكنه يترك كلمة طيبة ، وطفلًا صالحًا ، وفكرة نافعة ، وموقفًا لا يُنسى ،

فالخلود الحقيقي ليس أن يبقى الجسد ، الخلود أن يبقى الأثر ،

أمر الإمبراطور رجاله أن يحملوا الرسالة والإكسير إلى جبل عالٍ ، ثم أمرهم بحرقهما ،

ومن هنا ارتبطت الحكاية في بعض رواياتها بجبل فوجي ، وبأسطورة الدخان الصاعد من قمته ،

لكن أجمل ما يمكن أن نفهمه من هذه النهاية أن الإمبراطور اختار الفقد بدل أن يعيش وهم الامتلاك ، لقد أدرك أن بعض الأشياء لا تعود إلينا مهما أحببناها ،

وهذه من أصعب دروس التربية ،

علينا أن نعلم أبناءنا منذ الصغر أن الحياة ليست قائمة من الأشياء التي سنحصل عليها كلها ، هناك أشياء نريدها ولا تأتي ، وأشخاص نحبهم ويرحلون ، وفرص نفقدها ، وأحلام تتغير ،

لكن النضج لا يعني ألا نحزن ، النضج يعني أن نتعلم كيف نحزن دون أن نتحول إلى أشخاص محطمين ،

أما الحطّاب وزوجته ، فقد مرضا من شدة الحزن ، لم تكن كاغويا بالنسبة إليهما طفلة عابرة ، لقد كانت حياتهما قد تغيرت بوجودها ،

وهنا يظهر المعنى الأجمل في الحكاية كلها:

قد لا تكون مهمتنا في حياة شخص أن نمتلكه ، بل أن نساعده على أن يصبح ما ينبغي أن يكونه ،

الحطّاب لم يكن يعرف من أين جاءت كاغويا ، ولم يكن يعرف إلى أين ستذهب ،

لكنه فعل شيئًا بسيطًا وعظيمًا : أحبها ، أطعمها ، حماها ، علّمها ، وأعطاها بيتًا ،

لم يسألها كل يوم : ماذا ستفعلين من أجلي ؟

بل منحها فرصة أن تصبح نفسها ،

وهذه هي التربية التي نفتقد معناها أحيانًا ،

نحن نربي الطفل لكي ينجح في الامتحان ، لكننا ننسى أن نربيه لكي ينجح في الحياة ،

نعلمه كيف يحل المسألة ، ولا نعلمه كيف يحل الخلاف ، نعلمه كيف يحفظ الدرس ، ولا نعلمه كيف يتحمل الفشل ، نعاقبه عندما يكذب ، لكننا أحيانًا نكافئه على النتيجة مهما كانت الطريقة ،

نقول له : كن الأول

ولا نقول بما يكفي : كن أمينًا

نقول : اجعل الناس يعجبون بك

ولا نقول : اجعل نفسك جديرة بالاحترام ،

ولذلك تبدو حكاية كاغويا ، رغم قدمها ، حديثة جدًا ، فهي تحكي عن الطفل الذي لا يشبه توقعاتنا ، وعن الإنسان الذي يرفض أن يباع بالذهب ، وعن الطامعين الذين ظنوا أن كل شيء يمكن الحصول عليه بالحيلة ، وعن الحب الذي يتحول إلى امتلاك إذا فقد احترام الحرية ، وعن الأسرة التي قد تصنع إنسانًا دون أن تكون قد أنجبته ، وعن الفقد الذي لا يستطيع المال ولا القوة ولا السلطة أن تمنعه ،

حتى الخيزران نفسه يبدو رمزًا جميلًا ، إنه نبات ينحني مع الريح ولا ينكسر بسهولة ،

وكأن الحكاية تقول لنا : كن قويًا ، لكن لا تكن قاسيًا ، تمسك بقيمك ، لكن لا تتحول إلى حجر ، اعرف من أنت ، لكن لا تمنع الآخرين من أن يكونوا أنفسهم ،

وفي عالمنا اليوم ، يمكن أن نجد «حطّاب الخيزران» في كل مكان ، هو الأب الذي يعمل ساعات طويلة ليؤمّن حياة أفضل لأبنائه ، وهي الأم التي تكتشف أن أهم ما يحتاجه طفلها ليس هاتفًا جديدًا ، بل عشر دقائق من الإصغاء الحقيقي ، وهو المعلم الذي يرى في الطالب الضعيف مشروع إنسان ، لا رقمًا منخفضًا في كشف الدرجات ، وهي المدرسة التي لا تجعل النجاح هو التفوق وحده ، بل الصدق والتعاون والمسؤولية ، وهو المدير الذي يختار الموظف الأمين بدل صاحب الكلام الجميل ، وهو الإنسان الذي يجد فرصة للكذب ، ثم يختار الصدق لأنه يعرف أن الشخصية تُبنى في اللحظات التي لا يراقبنا فيها أحد ،

هذه هي «الجواهر» الحقيقية التي كانت كاغويا تبحث عنها ،

ليست جواهر في غصن أسطوري ، بل في قلب الإنسان ،

ربما لهذا بقيت حكاية حطّاب الخيزران حيّة قرونًا طويلة ،

فالقصص العظيمة لا تعيش لأنها قديمة ، تعيش لأنها تجد في كل عصر سؤالًا جديدًا ،

وفي عصرنا قد يكون سؤالها : **ماذا لو امتلكنا كل شيء ، وخسرنا أنفسنا ؟**

وقد يكون : **هل نحب أبناءنا فعلًا ، أم نحب الصورة التي نريدهم أن يكونوا عليها ؟**

وقد يكون : **هل النجاح أن تحصل على ما تريد ، أم أن تعرف ما يستحق أن تريده أصلًا ؟**

وقد يكون : **ماذا يبقى من الإنسان بعد أن يرحل ؟**

لم تجب كاغويا عن كل هذه الأسئلة ، لكنها تركت لنا طريقًا للتفكير ،

وفي آخر الليل ، كان الحطّاب يجلس أمام بيته ،

كانت الغابة ساكنة ، والخيزران يتحرك مع النسيم ،

رفع عينيه إلى القمر ، لم يعد يرى فيه عالَمًا بعيدًا ، كان يرى وجه فتاة صغيرة وجدها يومًا في ساق خيزران مضيئة ،

تذكر أول مرة حملها فيها ، وتذكر كيف دخلت البيت فأصبح للبيت قلب ،

ثم ابتسم ، رغم الحزن ،

فقد فهم أخيرًا أن الأب الحقيقي ليس من يمنع ابنه من الرحيل ، بل من يمنحه جذورًا قوية ، ثم يترك له جناحين ، والأم الحقيقية ليست من تخاف على طفلها من كل طريق ، بل من تعلّمه كيف يختار الطريق ، وكيف يعود إذا أخطأ ،

والتربية الحقيقية ليست أن نصنع أبناءنا على صورتنا ، بل أن نساعدهم على اكتشاف صورتهم الإنسانية الأجمل ،

أما كاغويا ، فقد صعدت إلى القمر ، لكن جزءًا منها بقي على الأرض ، بقي في بيت صغير ، وفي قلب رجل عجوز ، وفي قلب امرأة كانت أمًا لها دون أن تلدها ،

وبقيت قصتها في ذاكرة البشر ،

وكأن الخيزران الذي أخرجها ذات يوم من قلبه لم يكن يحمل طفلة فقط ، كان يحمل رسالة ،

رسالة تقول : **إن أجمل ما نعطيه لمن نحب ليس أن نمتلكه ، بل أن نمنحه القدرة على أن يعيش بكرامة ، ويختار بوعي ، ويترك أثرًا طيبًا حين يحين موعد الرحيل ،**

ومنذ ذلك اليوم ، كلما تحركت أعواد الخيزران في مهب الريح ، بدا كأن الغابة تهمس للمارّين : **لا تحاولوا أن تمسكوا القمر بأيديكم ، يكفي أن تتعلموا كيف تهتدون بنوره ،**

ضحك لأن شيئًا مضحكًا حدث ،

كانت تضحك لأن في داخلها شيئًا يريد أن يقلل من فرحة الآخرين ،

كتبت مرة تحت صورة امرأة مع زوجها : واضح أن شهر العسل لم ينتهِ بعد! انتظروا قليلًا ،

ثم وضعت وجهًا ضاحكًا ، قرأتها صاحبة الصورة ، تغيرت ابتسامتها ،

لم تعرف لماذا شعرت بانقباض مفاجئ ، قالت لنفسها : إنها مجرد مزحة ، لكن بعض المزاح يترك في القلب أثرًا لا يراه صاحبه ،

وفي اليوم نفسه وقع خلاف بينها وبين زوجها ، لم يكن للخلاف علاقة حقيقية بالتعليق ، ولم يكن من المنطقي أن نقول إن الكلمات الموجودة على الهاتف صنعت المشكلة في البيت ، كانت هناك أسباب كثيرة تراكمت منذ أيام ، وربما أسهمت الضغوط والتعب وسوء الفهم في إشعالها ،

لكن شيئًا واحدًا كان واضحًا : كلمة صغيرة كانت كافية لأن تفسد لحظة جميلة ،

وهنا بدأت الحكاية ،

X

تقول إحدى القصص المتداولة على وسائل التواصل الاجتماعي إن امرأة كانت كثيرة التعليق على حياة الناس ، لا تكاد ترى نعمة عند أحد إلا سخرت منها ، ولا تسمع خبرًا جميلًا إلا أفسدته بكلمة ،

إذا رأت امرأة تضع صورة لهدية من زوجها قالت : كل هذا من أجل هدية ؟ !

وإذا رأت بيتًا جديدًا قالت : المهم أن يبقى نظيفًا ، فالصور تخدع !

وإذا رأت أمًّا تحتفل بنجاح ابنها قالت : دعونا ننتظر النتيجة الحقيقية أولًا

كانت تظن أنها ذكية ، وكان الآخرون يرونها لاذعة ، وكانت هي تسمي ذلك كله: صراحة ،

وذات يوم رأت امرأة حاملًا نشرت صورة لهدية جميلة أهداها لها زوجها ،

كان زوجها قد اشترى لها شيئًا بسيطًا ، لكنه كان يحمل معنى كبيرًا بالنسبة إليها ، كانت في أشهر الحمل الأخيرة ، وكان زوجها يريد أن يشعرها بأنه معها ، وأن تعبها مقدر ، وأن الطفل القادم ليس مجرد حدث عابر ، بل بداية حياة جديدة ،

كتبت المرأة الساخرة تعليقًا : يا سلام! كل هذا الدلال! كأنك أول امرأة تحمل في الدنيا ،

قرأ الزوج التعليق ، وضحك ، أما الزوجة فلم تضحك ، أغلقت هاتفها ، وبقيت طوال المساء تفكر في الجملة ،

ثم قالت لنفسها : لماذا يحتاج الناس إلى إفساد فرحة غيرهم ؟

هذه هي النقطة التي ينبغي أن نتوقف عندها ،

فالقصة الشعبية تذهب بعد ذلك إلى أحداث مؤلمة ، وتربط بينها وبين العين والسخرية والحسد ، لكن الحكمة التربوية الأهم ليست أن نبحث عن شخص نحمّله مسؤولية كل مرض أو حادث أو فقد ،

الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك ،

والمرض له أسبابه ، والحوادث لها أسبابها ، والابتلاء جزء من طبيعة الحياة ،

أما العين والحسد فهما من المعاني المعروفة في الموروث الديني ، وقد ورد التحذير منهما ، لكن لا يصح أن يتحول ذلك إلى خوف دائم من الناس ، أو اتهام لكل شخص نظر إلى نعمة ، أو تفسير كل مصيبة بأنها بسبب تعليق كتبه أحدهم ،

الحكمة الأجمل هي أن نتعلم الأدب ، أن نفرح للناس دون أن نؤذيهم ، أن نشكر النعمة دون استعراض ، أن نعرف أن ليس كل ما يسعدنا يجب أن يتحول إلى إعلان عام ، وأن نفهم أن الكلمة مسؤولية ، حتى عندما نكتبها خلف شاشة ،

X

في مدينة هادئة من مدن إنجلترا ، ولدت عام 1874 فتاة اسمها **ماري آن بيفان** ،

لم تكن تعرف أن الحياة ستضع أمامها امتحانًا لا يشبه امتحانات الآخرين ، كانت في طفولتها فتاة عادية ، ثم كبرت لتصبح شابة جميلة ، ذكية ، مرحة ، ومحبة للحياة ،

اختارت مهنة التمريض ، وهي مهنة تحتاج إلى يد تعرف كيف تساعد ، وقلب يعرف كيف يحنو ،

وفي مرحلة من حياتها التقت توماس بيفان ، تزوجا ،

وكانت الحياة تبدو طبيعية ، بيت ، زوج ، وأطفال ،

أنجبت أربعة أبناء ، وكان يمكن لأي شخص ينظر إليها في تلك السنوات أن يظن أن قصتها لن تكون مختلفة عن آلاف القصص الأخرى ،

لكن الحياة لا تخبرنا بما تخبئه خلف الأيام الهادئة ،

بدأ التغيير ببطء ، تغير وجه ماري آن ، انتفخت بعض ملامحه ، وتغير شكل الفك والجبهة ، وكبرت اليدان والأصابع ، وظهرت آلام في العظام والمفاصل ،

لم يكن الأمر مجرد تغير في الشكل ، كان مرضًا نادرًا يعرف باسم **ضخامة الأطراف** ، وكان مرتبطًا بورم في الغدة النخامية أدى إلى إفراز زائد لهرمون النمو ،

لم تكن ماري آن تعرف في البداية ما الذي يحدث لها ،

وكان أصعب ما في المرض أن الجسد الذي عاشت فيه سنوات بدأ يتغير أمام عينيها ،

وقفت أمام المرآة ذات يوم ، نظرت طويلًا ، ثم لم تجد المرأة التي تعرفها ، كانت ملامحها تتغير ،

لكن الناس لم يكونوا يملكون صبر المرآة ، المرآة لا تسخر ، أما البشر فقد يسخرون ،

بدأت النظرات تطول ، والهمسات تزداد ، والدهشة تتحول إلى قسوة ، لم يعد بعض الناس يرون ماري آن الإنسانة التي أمامهم ، رأوا شكلًا غريبًا ،

وهنا تبدأ واحدة من أكثر المآسي الإنسانية قسوة :

أن يتحول الإنسان في عيون الآخرين إلى مظهره فقط ،

ثم جاءت الضربة الأكبر ،

توفي زوجها ، فجأة وجدت ماري آن نفسها أمًا لأربعة أطفال ، تعاني مرضًا غريبًا ، وتحتاج إلى المال ، بينما مهنتها القديمة لم تعد تفتح لها أبوابها بسهولة ،

حاولت أن تعود إلى العمل في مجال التمريض ، لكن أصحاب العمل كانوا ينظرون إلى وجهها قبل أن ينظروا إلى خبرتها ،

كان المرض قد غيّر ملامحها ، فظن البعض أن ملامحها تعني أنها لم تعد قادرة على العطاء ،

وهذه واحدة من أخطر أخطاء الإنسان : أن يخلط بين **شكل الشخص وقيمته ،**

لم يكن هناك شيء في وجه ماري آن يقول إنها فقدت الرحمة ، لم تتغير أمومتها ، لم تفقد عقلها ، لم يتوقف قلبها عن الحب ،

لكن المجتمع كثيرًا ما يحكم بسرعة ،

وحين أغلقت أبواب كثيرة في وجهها ، ظهر أمامها باب قاسٍ :

عروض السيرك والمعارض التي كانت تعرض أصحاب الحالات الجسدية النادرة أمام الجمهور ،

كان اللقب الذي أطلق عليها مؤلمًا : أبشع امرأة في العالم ،

تخيلوا هذه العبارة ، امرأة لديها أربعة أطفال ، أم تحاول أن تعمل ، إنسانة تحمل مرضًا لم تختره ،

ثم يأتي شخص ليضع فوق مرضها لقبًا يجرح كرامتها ، كان بإمكانها أن ترفض ، لكن ماذا كانت ستفعل بأطفالها ؟

كانت أمام اختيار شديد القسوة : أن تحمي كرامتها بالصمت ، أو أن تتحمل الإهانة لتطعم أبناءها ،

اختارت أبناءها ،

لم تدخل تلك العروض لأنها كانت تحب نظرات الناس ، دخلتها لأن الأمومة أحيانًا تجعل الإنسان يمشي في طرق لا يريدها ، من أجل أشخاص يحبهم أكثر من نفسه ،

كانت تقف أمام الجمهور ، ينظر الناس ، بعضهم يضحك ، بعضهم يتهامس ، وبعضهم ينظر بدهشة ،

وربما لم يعرف أحد من هؤلاء أن المرأة التي يقفون أمامها ستعود بعد انتهاء العرض إلى بيتها لتصبح أمًا عادية ،

ستعد الطعام ، سترتب البيت ، ستسأل أبناءها عن دروسهم ، ستحاول أن تبتسم ، وستنام وهي تعرف أن الغد يحتاج إلى مزيد من القوة ،

هنا تتغير زاوية النظر إلى القصة ، من هي « أبشع امرأة » ؟ هل هي المرأة التي تغير وجهها بسبب مرض لا يد لها فيه ؟ أم الإنسان الذي يرى ألم الآخرين فرصة للضحك ؟ أيّهما أكثر حاجة إلى العلاج ؟ الجسد الذي أصابه المرض ؟ أم القلب الذي فقد الرحمة ؟

استمرت ماري آن سنوات طويلة في العمل ، ولم تكن قصتها قصة امرأة تبحث عن الشهرة ، كانت أمًا تبحث عن الأمان لأطفالها ،

ومع مرور السنوات استطاعت أن تؤمن لهم حياة أفضل وتعليمًا ومستقبلًا أكثر استقرارًا ،

توفيت عام 1933 ،

لكن القصة لم تنتهِ عند قبرها ، لأن بعض الناس يعيشون أكثر بعد موتهم مما عاشوا وهم أحياء ،

لقد بقيت ماري آن مثالًا على معنى مختلف للجمال ، الجمال الذي لا يعتمد على تناسق الوجه ، الجمال الذي يظهر عندما يتحول الألم إلى مسؤولية ،

وعندما يصبح الإنسان قادرًا على أن يقول : سأتحمل ، لأن هناك من يعتمد عليّ ،

X

والآن ، ماذا علاقة ماري آن بقصة المرأة الساخرة ؟

العلاقة أعمق مما يبدو ،

المرأة الساخرة كانت ترى حياة الآخرين من الخارج ، ترى صورة ، فتعلق ،

ترى هدية ، فتسخر ،

ترى زوجًا يهتم بزوجته ، فتقلل من الأمر ،

ترى أمًا سعيدة بابنها ، فتبحث عن عيب ،

لكنها لا تعرف القصة كاملة ،

وهذه مشكلة الإنسان في عصر وسائل التواصل الاجتماعي ،

لقد أصبحنا نرى **لحظات الناس ، لا حياتهم** ، نرى الصورة ولا نرى ما قبلها ، نرى الابتسامة ولا نعرف كم من الحزن سبقها ، نرى الهدية ولا نعرف كم مرة اعتذر الزوج لزوجته بعد خلاف ، نرى نجاح الابن ولا نرى سنوات القلق التي عاشتها الأم ، نرى البيت الجميل ولا نرى القرض الذي يثقل صاحبه ، نرى السفر ولا نرى الديون التي لم

تظهر في الصورة ، نرى الثوب الجديد ولا نرى اليد التي اشترته بالتقسيط ، نرى الضحكة ولا نعرف ما تخفيه ،

لذلك ، فإن التربية على عدم السخرية ليست مجرد درس أخلاقي صغير ، إنها تدريب على **التفكير قبل الحكم** ،

الطفل الذي يتعلم ألا يسخر من زميله لأنه قصير أو فقير أو ضعيف أو مختلف ، يتعلم في الحقيقة مهارة عظيمة : أن يرى الإنسان قبل أن يرى صفته ،

والشاب الذي يتعلم ألا يكتب تعليقًا جارحًا تحت صورة شخص آخر ، يتعلم ضبط الاندفاع ،

والأم التي تعلم أبناءها أن يقولوا «ما شاء الله ، بارك الله له» بدل السخرية ، تعلمهم أن فرحة الآخرين ليست خصمًا من فرحتهم ،

وهنا نصل إلى قضية أخرى : هل إظهار النعمة خطأ ؟

ليس كل إظهار للنعمة تباهيًا ، هناك فرق بين أن يقول الإنسان :

الحمد لله ، رزقني الله بزوج صالح ، وأسأله أن يديم علينا المودة ،

وبين أن يقول : انظروا ماذا أملك! أنتم لا تملكون مثلي ، الأول يمكن أن يكون شكرًا ، والثاني قد يتحول إلى استعلاء ،

المشكلة ليست دائمًا في الصورة ، المشكلة في **القلب الذي يقف خلف الصورة** ،

قد ينشر الإنسان صورة لنجاح ابنه لأنه سعيد ويريد مشاركة فرحته ، وقد ينشرها ليشعر بأنه أفضل من الآخرين ، وقد يحتفظ الإنسان بنعمته لنفسه لأنه يحب الخصوصية ، وقد يتحدث عنها لأنه يريد أن يحمد الله عليها ،

لذلك لا ينبغي أن نعيش أسرى الخوف ،

لا نريد مجتمعًا يخشى أن يفرح ، ولا مجتمعًا يظن أن كل ابتسامة استفزاز ، ولا مجتمعًا يرى في كل نعمة خطرًا ،

نريد مجتمعًا يعرف كيف يشكر دون تفاخر ، وكيف يفرح دون إيذاء ، وكيف ينظر إلى نعم الآخرين بعين المحبة ،

X

وفي إحدى المدارس ، كان معلم يراقب تلاميذه في الفناء ،

كان هناك طفل يحمل حقيبة جديدة ، اقترب منه زميله وقال : حقيبتك جميلة

ثم أضاف : أتمنى أن تكون عندي مثلها ،

قال المعلم : ماذا شعرت عندما رأيتها ؟

أجاب الطفل : فرحت له ، لكنني تمنيتها لنفسي

ابتسم المعلم وقال : وهذا طبيعي ، المهم ماذا تفعل بعد ذلك ،

كان الدرس بسيطًا ،

لسنا مطالبين بأن نقتل مشاعرنا ، لسنا ملائكة ،

قد نحزن عندما ينجح شخص سبقنا ، قد نتمنى شيئًا عند الآخرين ، قد نشعر بالغيرة لحظة ،

لكن التربية الحقيقية لا تقول للطفل: لا تشعر

بل تعلمه : اشعر ، ثم اختر السلوك الصحيح ،

وهذا فرق عظيم ،

فالحسد قد يبدأ شعورًا ، لكنه يصبح خطرًا عندما يتحول إلى فعل ، والغيرة قد تمر في القلب ، لكنها تصبح مؤذية عندما تتحول إلى تحقير ، والسخرية قد تبدأ مزحة ، لكنها تصبح ظلمًا عندما نعرف أن الآخر يتألم منها ونستمر ،

X

تخيل أنك كتبت تعليقًا ساخرًا ثم أغلقت الهاتف ، ، ربما نسيت الأمر بعد دقيقة ، لكن الشخص الذي قرأه قد يتذكره لسنوات ،

هذه هي المفارقة ،

نحن نقيس الكلمة بمدة خروجها من أفواهنا أو أصابعنا ، لكن الآخرين يقيسونها بمدة بقائها في قلوبهم ،

طفل يسمع : أنت غبي

قد ينسى من قالها ، لكنه قد يحملها معه إلى المدرسة ، ثم الجامعة ، ثم العمل ، فتصبح الجملة القديمة صوتًا داخليًا يقول له :أنت لا تستطيع ،

فتربية الكلمة تبدأ من البيت ، عندما يخطئ الطفل ، لا نقل له : أنت فاشل

بل نقول : هذا التصرف خطأ ، ويمكنك إصلاحه

نهاجم السلوك ، لا الإنسان ،

وعندما يخطئ الزوج ، لا تسخر زوجته من ضعفه ، وعندما تتعب الزوجة ، لا يقلل الزوج من تعبها ، وعندما يفشل صديق ، لا نجعل فشله مادة للضحك ،

فالإنسان ليس خطأه ، والإنسان ليس شكله ، والإنسان ليس فقره ، والإنسان ليس مرضه ، والإنسان ليس صورته على الهاتف ،

X

وهناك سؤال آخر أكثر عمقًا : لماذا نسخر أصلًا ؟

أحيانًا نسخر لأننا نريد أن نشعر أننا أفضل ، وأحيانًا لأننا نريد أن نضحك الآخرين ، وأحيانًا لأننا نخاف أن يشعر شخص آخر بالسعادة بينما نحن لا نشعر بها ، وأحيانًا لأننا تربينا على أن القسوة نوع من القوة ،

لكن الحقيقة أن الإنسان القوي ليس من يستطيع أن يحرج الآخرين ، القوي هو من يستطيع أن يمسك لسانه عندما يعرف أن كلمته ستؤذي ، القوي هو من يرى نعمة عند غيره فيقول: اللهم بارك

القوي هو من يستطيع أن يهنئ شخصًا سبقه ،

القوي هو من يملك القدرة على أن يكون رحيمًا في زمن أصبحت فيه القسوة سهلة ،

X

كانت ماري آن تستطيع أن تصبح قاسية ، بعد كل ما رأته ، كان من السهل أن تكره الناس ،

كان من السهل أن تقول : لقد أذلوني ، فلماذا أرحمهم ؟

لكن قصتها تذكرنا بأن الألم لا يبرر دائمًا أن نصنع الألم للآخرين ،

هناك من يتألم فيصبح أكثر قسوة ، وهناك من يتألم فيصبح أكثر رحمة ،

والفرق ليس في حجم الجرح ، بل في الطريقة التي نفهم بها الجرح ،

قد يقول شخص : أنا عانيت ، لذلك سأجعل الآخرين يعانون ،

وقد تقول روح أخرى : أنا عانيت ، ولذلك لن أسمح أن أكون سببًا في ألم إنسان آخر

وهذه هي التربية التي نحتاجها ، أن نحول تجاربنا إلى حكمة ، لا إلى أذى ،

X

في النهاية ، ليست قصة «المرأة الساخرة» دعوة إلى الخوف من الناس ، وليست قصة ماري آن دعوة إلى الشفقة على المختلف ،

كلتاهما يمكن أن تكونا درسًا في شيء أكبر :

كيف ننظر إلى الإنسان ؟ هل نراه من خلال صورته ؟ أم من خلال قصته ؟ هل نراه من خلال ماله ؟ أم من خلال أخلاقه ؟ هل نراه من خلال مرضه ؟ أم من خلال صبره ؟هل نرى نعمة غيرنا فنشعر بالنقص ؟

أم نراها فنقول : اللهم بارك له ، وارزقني من فضلك ؟

إن المجتمع لا يصبح أجمل عندما تختفي منه الاختلافات ، بل عندما يتعلم أفراده كيف يحترمون الاختلافات ،

ولا يصبح آمنًا عندما يخفي الناس نعمهم خوفًا من أعين الآخرين ، بل عندما تتعلم القلوب ألا تتمنى زوال النعمة عن أصحابها ،

ولا يصبح الإنسان راقيًا عندما يعرف ألفاظًا جميلة ، بل عندما يعرف **متى يصمت** ،

X

كانت ماري آن تدخل المنصة كل مساء تحت لقب جارح ، لكنها كانت تخرج منها أمًا ،

كان الناس يرون وجهها ، أما أطفالها فكانوا يرون قلبها ،

كان الجمهور يرى المرض ، أما أبناؤها فكانوا يرون التضحية ،

كان البعض يصف ملامحها ، أما الزمن فاحتفظ بقصتها ،

وهذا هو حكم الحياة العادل أحيانًا : أن ما يضحك الناس في لحظة قد يصبح بعد سنوات درسًا للأجيال ،

الوجه يتغير ، والجسد يضعف ، والصور تختفي من الهواتف ، والتعليقات تضيع في صفحات قديمة ،

لكن أثر الرحمة يبقى ، وأثر القسوة يبقى أيضًا ،

لذلك ، قبل أن تكتب تعليقًا ساخرًا ، توقف لحظة ،

اسأل نفسك : هل أحتاج حقًا أن أقول هذا ؟ هل سيجعل العالم أفضل ؟ هل سأقبل أن يكتب أحدهم الكلام نفسه عن أختي أو أمي أو ابنتي ؟

وقبل أن تنشر صورة نعمة ، اسأل نفسك سؤالًا آخر : هل أنا أشكر الله ؟ أم أبحث عن إعجاب الناس ؟

فالنية تصنع الفرق ، والكلمة تكشف القلب ،

والتربية تبدأ من هذه اللحظة الصغيرة التي لا يراها أحد ،

لحظة يختار فيها الإنسان أن يكون رحيمًا بدل أن يكون ساخرًا ،

X

ربما لن نستطيع منع الناس من الكلام ، ولن نستطيع أن نمنع كل عين من النظر ، ولن نستطيع أن نعيش دون ابتلاء ،

لكننا نستطيع أن نختار كيف نكون نحن ، نستطيع أن نفرح دون أن نستفز ، ونشكر دون أن نتباهى ، وننصح دون أن نجرح ، ونختلف دون أن نهين ، ونرى المختلف دون أن نحوله إلى مادة للضحك ،

وإذا رأينا إنسانًا يحمل على وجهه أثر مرض ، فلا نسأل : ما الذي حدث لوجهه ؟

بل نسأل أنفسنا : ما الذي يحتاجه مني الآن ؟

ربما يحتاج ابتسامة ، ربما يحتاج احترامًا ، ربما يحتاج أن نعامله كإنسان ، لا كحالة غريبة ، وربما يحتاج فقط إلى شيء بسيط جدًا :

أن نتركه يمشي في الشارع دون أن يشعر أن العالم كله يراقبه ،

وهنا تكمن الحكاية كلها ،

ماري آن بيفان لم تكن " أبشع امرأة في العالم "

كان ذلك لقبًا اخترعه الناس ، أما الحقيقة فكانت أعمق بكثير ،

كانت أمًا ، وكانت ممرضة ، وكانت إنسانة قاومت مرضًا قاسيًا ، وفقدت زوجها ، وتحملت نظرات الناس ، وعملت سنوات طويلة من أجل أبنائها ،

لقد شوه المرض ملامحها ، لكنه لم يستطع أن يشوه قلبها ،

أما الذين سخروا منها ، فقد كانوا يملكون أجسادًا مروان ة ، لكن بعضهم لم يكن يملك البصيرة الكافية ليرى الإنسان خلف الوجه ،

وهنا ينتهي السؤال الذي بدأت به الحكاية : **من هو القبيح حقًا ؟**

ليس من تغير وجهه بسبب المرض ، ولا من ولد مختلفًا ، ولا من فقد شيئًا من جماله ،

القبح الحقيقي أن ترى ألم إنسان فتضحك ، أن ترى نعمة عند غيرك فتتمنى زوالها ، أن تعرف أن كلمتك ستؤذي ، ثم تقولها لأنك تستطيع ،

والجمال الحقيقي ؟

أن يكون في قلبك متسع لفرحة الآخرين ، أن تستر نعمتك بالشكر ، لا بالخوف ، أن تحمي قلبك من الحسد ، ولسانك من السخرية ، أن تعتذر عندما تخطئ ، أن تعلّم أبناءك أن الإنسان أكبر من شكله ، وأعمق من ماله ، وأكرم من صورته ،

فالكلمات التي نكتبها على شاشات صغيرة قد تسافر إلى قلوب بعيدة ، وقد لا نعرف أبدًا أين استقرت ،

لذلك ، فلنجعلها كلمات تشبهنا عندما نكون في أجمل حالاتنا ،

كلمات فيها رحمة ، وفيها أدب ، وفيها شكر ، وفيها إنصاف ،

لأننا في النهاية لا نترك خلفنا عدد الصور التي نشرناها ، ولا عدد التعليقات التي كتبناها ، ولا مقدار إعجاب الناس بنا ،

نترك أثرًا ، إما أن يكون جرحًا في قلب إنسان ، أو نورًا في طريقه ،

فلا تحكم على أحد من مظهره ، ولا تفسد فرحة بكلمة ، ولا تجعل نعمة غيرك سببًا لحزنك ،

قد ترى وجهًا لا يعجبك ، فتبتعد ، لكن خلف ذلك الوجه ربما توجد أم عظيمة ، أو أب صابر ، أو طفل يحلم ، أو إنسان يقاوم كل يوم كي يبقى واقفًا ،

وقد ترى شخصًا يملك ما تتمنى ، فلا تنظر إليه بعين النقص ،

قل : **اللهم بارك له ، وارزقني من فضلك ،**

ثم امضِ ،

فما كتبه الله لك لن يأخذه غيرك ، وما كتبه لغيرك ليس نقصًا من رزقك ،

والقلب الذي يتعلم أن يفرح للآخرين ، يعيش أخف ، واللسان الذي يتعلم الصمت عند الأذى ، يصبح أكثر جمالًا ،

أما الإنسان الذي يجعل الرحمة طريقه ، فلن يحتاج إلى أن يكون جميل الوجه كي يترك أثرًا جميلًا ،

فالجمال قد تسكنه الملامح ، لكن النبل يسكن القلب ،

وقصة ماري آن ليست قصة امرأة هزمها المرض ، إنها قصة أم انتصرت على قسوة الحياة بالحب ،

وليست قصة «أبشع امرأة في العالم« ، بل قصة إنسانة أثبتت ، بصمتها وتضحيتها ، أن بعض الوجوه لا تحتاج إلى أن تكون جميلة كي تضيء العالم ،

يكفي أن يكون خلفها قلب يعرف كيف يحب ،

الطفلةُ التي كانتْ تقفُ عندَ بابِ الفرح

في طرفِ ساحةِ المدرسة ، كانتْ تقفُ كظلٍّ صغيرٍ لا يجرؤ أن يقترب من الضوء ، تفصلها عن ضجيجِ البناتِ ضحكةٌ هنا ، وهمسةٌ هناك ، ونظرةٌ عابرةٌ لا تستقرّ على وجهها طويلًا ، كانت تُدعى ريهام ، طفلةً هادئةً أكثر من اللازم ، دقيقةَ الملامح ، تحمل في عينيها سؤالًا كبيرًا لا تعرف كيف تطرحه: لماذا لا يختارني أحد؟

لم تكن ريهام سيئة الخلق ، ولا ناقصةَ الذكاء ، ولا خاليةَ الروح ، كانت فقط طفلةً كثيرةَ الحساسية ، تخاف أن تُخطئ ، وتخشى أن تُرفض ، وتلتقط من الكلمات ما لا يقوله الآخرون ، إذا ضحك زميلاتها في زاوية الفصل ، ظنّت أن الضحك عليها ، وإذا تبادلتْ البناتُ الأسرارَ في الطريق ، شعرتْ كأن بينها وبينهنّ سورًا من الزجاج ، وإذا ناداها أحدٌ باسمها ، ارتبكتْ كأن الاسم يحمل امتحانًا صغيرًا لا تعرف إجابته ،

وفي البيت ، كانتْ أمُّها تحبّها حبًّا خائفًا ، شديدَ الحرص ، كثيرَ التحذير: لا تقتربي من أحدٍ كثيرًا ، لا تثقي بسرعة ، اجلسي هنا ، الدنيا ليست آمنة ،

كان هذا الحبُّ ، من حيث لا تدري الأم ، يزرع في قلب الطفلة مساحةً واسعةً من التردد ، وكان الأب ، حين يعود متعبًا ، يلاحظ صمتها فيظنّه أدبًا ، ويرى انعزالها فيحسبه طبعًا لا يحتاج إلى إصلاح ، وبين الحماية الزائدة والنقد الخفي ، كانت ثقة ريهام بنفسها تذبل كما تذبل زهرة بلا شمس ،

في المدرسة ، لم يكن الأمر أسهل ، بعض البنات كنّ يضحكن من بطئها في الردّ ، ومن خجلها حين تنظر إلى الأرض ، ومن حقيبتها القديمة ، ومن ضفيرتها غير المرتبة ، كانت كلماتهنّ صغيرةً في ظاهرها ، لكنها تسقط في داخلها مثل حصى ثقيلة ، مرةً قالت إحداهنّ : هذه لا تعرف كيف تتكلم !

وقالت أخرى : دعوها ، هي لا تصلح للعب معنا ،

لم تكن الجملة طويلة ، لكنها صنعت في قلب ريهام جدارًا ، ومن يومها ، صارت تسير في الممرات كأنها تعتذر عن وجودها ،

وهكذا ولدت الطفلة المنبوذة : لا لأن أحدًا أعلن نبذها رسميًا ، بل لأن الإهمال ، والتنمر ، وسوء الفهم ، والخوف ، اجتمعت كلها لتجعلها تشعر أنها زائدة عن الحياة ،

النبذ لا يبدأ دائمًا بصراخ ، أحيانًا يبدأ بنظرة لا تُكمل طريقها ، أحيانًا يبدأ بكرسيٍ لا يُترك لك في الحلقة ، وأحيانًا يبدأ بطفلةٍ تتأخر في فهم الإشارات الاجتماعية ، فلا تعرف متى تتكلم ، ومتى تصمت ، ومتى تبتسم ، ومتى تردّ ،

ريهام كانت تجهل كثيرًا من لغةِ العيون ولغةِ الأجساد ، لم تكن تفهم لماذا يبتعد بعض الأطفال حين تقترب كثيرًا ، أو لماذا يفسّرون حنانها أحيانًا على أنه ضعف ، أو لماذا يتحول لطفها عند بعضهم إلى مادة للسخرية ، كانت تقول لنفسها : أنا لا أفهمهم ،

لكن الحقيقة أن المشكلة لم تكن في الفهم وحده ، بل في غياب من يعلّمها الفهم بهدوء وصبر ،

وفي مساءٍ من الأمسيات ، عادت إلى البيت وقد مزّقها صمتٌ مرير ، جلست في غرفتها ، وفتحت دفترها الصغير ، وكتبت بخطٍّ متعثّر:
أنا موجودة ، لكنهم لا يروننني ،

كانت هذه الجملة بداية الحكاية ، وبداية الألم ، وبداية التحول أيضًا ، لأن القلم حين يصدق ، يفتح نافذةً في الجدار ،

حين تُنبذ الطفلة ، لا يبقى الجرح في المدرسة وحدها ، الجرح ينتقل إلى البيت ، ويجلس على المائدة ، ويرافقها إلى النوم ، ويقف معها أمام المرآة ، تبدأ تسأل نفسها : هل عيبي في شكلي ؟ هل صوتي غير محبوب ؟ هل أنا مملة ؟ هل أحتاج أن أكون شخصًا آخر كي يحبني الناس ؟

ومع الوقت ، تهتزّ الثقة بالنفس ، وتصبح الطفلة أقلّ جرأةً على المشاركة في الفصل ، وأضعفَ رغبةً في الحديث ، وأشدَّ خوفًا من الأخطاء ،

وقد تتحول هذه الحساسية أحيانًا إلى انسحاب كامل من الأنشطة الجماعية ، أو إلى توتر واضح ، أو حتى إلى عدوانية مفاجئة ؛ لأن بعض الأطفال لا يعرفون كيف يطلبون الحب إلا عبر التمرد ، والطفلة التي لا تجد صدرًا حنونًا تحتضن فيه خوفها ، قد ترفع صوتها أو تكسر شيئًا أو تعاند بلا سببٍ ظاهر ، بينما السبب الحقيقي هو أنها تطلب الاهتمام بلغةٍ مكسورة ،

أما في الدراسة ، فإن الذهن حين ينشغل بالرفض ، لا يبقى متفرغًا للحفظ والفهم ، تجلس الطفلة أمام الكتاب ، لكن رأسها في ساحة اللعب ، وقلبها في زاويةٍ بعيدة ، وداخلها سؤال واحد يزاحم كل الدروس:
هل سيرحبون بي غدًا ؟

وهكذا يهبط التحصيل الدراسي ، لا لأن عقلها ضعيف ، بل لأن روحها متعبة ،

X

في صباحٍ مختلف ، دخلت المعلمة أمل الفصل ، وكانت تملك عينيْن لا تكتفيان بتفقد الدروس ، بل تبحثان عن الأطفال الذين يختبئون خلف الصمت ، لاحظت ريهام تجلس في آخر الصف ، لا ترفع يدها ، ولا تشارك ، ولا تضحك ، لاحظت أيضًا أن البنات لا يدعونها إلى ألعابهنّ ، وأنها تقف دائمًا على هامش الدائرة ،

بعد الحصة ، طلبت منها البقاء قليلًا ، لم تسألها أولًا عن الواجب ، ولا عن الدرجات ، بل سألتها : كيف قلبك اليوم يا ريهام ؟

كانت تلك الجملة البسيطة مفاتيح لبابٍ مغلق ،

رفعت الطفلة عينيها بدهشةٍ خفيفة ، ثم انهمرت الدموع بلا ترتيب ، لم تكن تبكي لأنه وُجه إليها سؤال ، بل لأنها أخيرًا شعرت أن أحدًا يراها إنسانة لا رقمًا في دفتر الحضور ،

حكت ريهام بصوتٍ متقطع عن البنات اللواتي يضحكن ، وعن شعورها بأنها لا تشبه أحدًا ، وعن أمها التي تخاف عليها أكثر مما تحتمل ، وعن أبيها الذي لا يسمع ما يكفي ، وعن خوفها من أن تكون حقًا غير محبوبة ،

استمعت المعلمة حتى النهاية ، لم تقاطعها ، لم تقل : الأمر بسيط ، ولم تقل : تجاهليهم فقط ، بل قالت : ما تشعرين به حقيقي ، لكنك لستِ كما ظننتِ نفسك ،

ثم بدأت الخطة الهادئة ، لا بالعقاب فقط ، بل بالفهم والتربية ،

أول ما تحتاجه الطفلة المنبوذة ليس التوبيخ ، بل الاحتواء ، فالاحتواء يعني أن يُستمع إليها بلا نقد جارح ، وبلا سخرية ، وبلا إحراج أمام الآخرين ، أن تجد في البيت أو المدرسة شخصًا يقول لها : أنا أفهم أن هذا يؤلمك ،

هذا الاعتراف وحده يخفف نصف الثقل ،

ثم تأتي مرحلة تعزيز الثقة ، فالطفلة لا تحتاج إلى مدحٍ مبالغٍ فيه ، بل إلى كلمات دقيقة صادقة تكشف نقاط قوتها ،

يمكن أن نقول لها : أنتِ تستمعين جيدًا ، خطّك جميل ، أفكارك لطيفة ، أنتِ صبورة ، حين ساعدتِ زميلتك ، كنتِ متعاونة ،

الطفل لا يكبر فقط بالطعام ، بل أيضًا بالاعتراف الجميل بوجوده ،

وكانت المعلمة أمل تفعل ذلك مع ريهام بوعيٍ تربوي ، تختار لها مهمة صغيرة في الفصل ،

تطلب منها أن توزّع الأوراق ، ثم تشكرها أمام الجميع ، وتجلسها أحيانًا مع زميلة هادئة ومتفهمة ، لا مع من يجرحنها ، وتعلّم البنات أن الاختلاف ليس عيبًا ، وأن اللطف قوة ، وأن السخرية ليست ذكاءً بل ضعفًا أخلاقيًا ،

تغيرت أيضًا نظرة الأسرة بعد أن تحدثت المعلمة مع الأم ، فهمت الأم أن الحماية الزائدة قد تصنع خوفًا بدل الأمان ، وأن النقد المستمر يطفئ الجرأة ، وأن الطفلة تحتاج إلى مساحة للتجربة والخطأ ،

بدأت الأم تسمع أكثر ، وتتكلم أقل ، وتخفف من عبارات التحذير الثقيلة ،

بدلًا من : لا تقتربي من أحد ، سيؤذونك ، صارت تقول : اختاري من ترتاحين إليه ، وتذكري أنك قادرة على وضع حدودك ،

وبدلًا من : أنتِ حساسة جدًا ، قالت : حساسيتك جميلة ، فقط نحتاج أن نتعلم كيف نحميها ،

أما الأب ، فصار يعود أحيانًا مبكرًا ليسألها عن يومها ، وحين عرضت عليه رسوماتها الصغيرة ، لم ينظر إليها بعجلة ، بل قال :
لديكِ عين جميلة ترى التفاصيل ،

قد تبدو هذه الجملة عابرة ، لكنها في حياة طفلة منبوذة تساوي وطنًا صغيرًا ،

لم يكن التغيير في ريهام قفزةً مفاجئة ، بل كان نهرًا صغيرًا يتقدم ببطء ،
تعلمت أن تقف مستقيمة ، أن تنظر في عين من تتحدث إليه دون تحدٍّ أو خوف ، أن تبدأ بجملةٍ بسيطة : هل أستطيع أن ألعب معكن ؟ أو:
هل أساعدكن ؟

تعلمت أن بعض الرفض لا يعني أنها غير محبوبة ، بل يعني فقط أن المجموعة غير مناسبة ،

وتعلمت أن الصداقة الحقيقية لا تُفرض ، بل تُبنى على الاحترام المتبادل ،

وفي أحد الأيام ، عندما انكسر قلم زميلتها في الحصة ، أعطتها ريهام قلمها الاحتياطي بصمت ، ابتسمت الفتاة وقالت :شكرًا يا ريهام ،

كانت هذه الكلمة صغيرة ، لكنها أنارت قلبها كله ،

فالأطفال الذين يشعرون بالنبذ لا يحتاجون دائمًا إلى الخطب ؛ أحيانًا يكفيهم موقفٌ إنسانيٌ واحدٌ يبدد عتمة أيام طويلة ،

X

في بيوت كثيرة ، توجد طفلة مثل ريهام ، قد تكون في الصف الرابع ، أو في الإعدادي ، أو حتى في سنوات المراهقة ،

قد تكون زميلاتها أسرع منها في الكلام ، أو أغزر منها ثقة ، أو أكثر جمالًا في الظاهر ، فتنكمش هي في زاوية الصمت ،

وقد يسمع بعض الآباء الشكوى ، فيقولون : هذه مسائل أطفال وستمر ،

لكن الحقيقة أن الجرح إذا تكرر ، تحوّل إلى فكرة عن الذات ، والفكرة إذا استقرت ، صارت شخصية ، والشخصية إذا لم تُعالج ، صارت سلوكًا يصعب تغييره لاحقًا ،

وفي مدرسة أخرى ، كانت هناك طفلة تخجل من القراءة أمام الصف ، فكان بعض التلاميذ يضحكون حين تتلعثم ، المعلمة الذكية لم تعاقبهم فقط ، بل غيّرت البيئة ، وزعت القراءة على مجموعات صغيرة ، وبدأت بالطفلة في جو آمن ، ثم شجعتها بكلمات محددة ، بعد شهر ، صارت تقرأ أفضل من كثيرين ، لا لأن قدراتها تغيّرت وحدها ، بل لأن البيئة منحتها حقّ المحاولة ،

هذا هو التفكير التربوي الصحيح : لا ننتظر من الزهرة أن تزهر في الريح ، بل نحميها حتى تقف ،

حين نريد مساعدة طفلة منبوذة ، علينا أن نغيّر أشياء كثيرة ، لكن بهدوء: نغيّر لغة البيت ؛ من النقد إلى الاحتواء ، نغيّر لغة المدرسة ؛ من السخرية إلى الاحترام ، نغيّر لغة الطفلة نفسها ؛ من أنا لا أستطيع إلى أنا أتعلم ، نغيّر طريقة النظر إلى الخجل؛ فهو ليس ضعفًا دائمًا ، بل قد يكون مرحلة تحتاج إلى تدريبٍ ولطف ، ونغيّر مفهوم القوة ؛ فالقوة ليست في الصراخ ، بل في الطمأنينة ، وفي القدرة على إقامة علاقة مروان ة ، وفي احترام الذات والآخر ،

ولابد أيضًا من الانتباه إلى التنمر ، وعدم التقليل منه ، فالكلمة الجارحة قد تترك أثرًا أطول من ضربةٍ عابرة ، وإذا تكرر التنمر ، وجب التدخل الحازم : حماية الطفلة ، توجيه المعتدين ، إشراك المدرسة والأسرة ، وتثقيف الأطفال حول الاختلاف والتعاطف والمسؤولية ،

في نهاية العام الدراسي ، أقيم في المدرسة عرضٌ صغير ، كانت ريهام تقف بين البنات للمرة الأولى بلا ارتجافٍ شديد ، لم تصبح فجأة أكثر جمالًا من الجميع ، ولا أكثر جرأةً من الجميع ، لكنها أصبحت أقرب إلى نفسها ، وهذا هو الانتصار الأعمق ،

وحين جاء دورها لتلقي كلمة قصيرة عن قيمة الصداقة ، قالت: تعلمت أن الطفل لا يحتاج إلى كثير من الكلام كي يعيش ، بل إلى قلبٍ يصدق أنه يستحق المكان ،

صفق الجميع ،

لكن ريهام لم تكن تسمع التصفيق فقط ، كانت تسمع شيئًا أهدأ: صوتًا داخليًا جديدًا يقول لها إنها ليست طفلة منبوذة ، بل طفلة عبرت الجسر من الألم إلى الفهم ، ومن الخوف إلى المحاولة ، ومن العزلة إلى أول خيطٍ من النور ،

وهكذا ، فإن الطفلة المنبوذة ليست مشكلةً فرديةً بسيطة ، بل رسالةٌ تربويةٌ واجتماعيةٌ تقول لنا جميعًا : انتبهوا إلى القلوب الصغيرة ، فهي تتأذى بصمت ، وتزهر بصمت ، وتحتاج فقط إلى من يحنو دون أن يُشعرها بالنقص ،

فالطفلة التي تبدو بعيدة عن الناس قد لا تكون إلا زهرةً لم تجد بعدُ من يفتح لها نافذة الشمس ،

وحين نفتح تلك النافذة ، لا نغيّر حياتها وحدها ، بل نُهذّب قلوبنا نحن أيضًا ، ونعلّم العالم كيف يكون أكثر رحمةً ، وأصدق إنسانية ، وأجمل صداقة ،

الطفل الذي نسي لغة البشر

حكاية عن العزلة ، والتربية ، وما تصنعه البيئة في الإنسان

لم يكن الصبي يعرف أن للسماء اسماً ،

كان يرفع رأسه كل صباح ، يتأمل الضوء وهو يتسلل بين أغصان الأشجار ، ثم يعود إلى الأرض يبحث عن شيء يأكله ، لم يكن يعرف أن ما فوقه يسمى سماء ، ولا أن ما تحته يسمى أرضاً ، ولا أن الشجرة التي تحميه من المطر لها اسم أيضاً ،

كان يعرف الأشياء بطريقة أخرى ، يعرف أن هذا الصوت يعني الخطر ، وأن ذلك الصوت يعني الطعام ، يعرف رائحة المطر ، وخطوات الحيوان ، وحركة الأوراق حين يقترب أحد ، يعرف متى يهرب ، ومتى يختبئ ، ومتى يمد يده ،

لكنه لم يكن يعرف كلمة واحدة تقول : **أنا** ،

وهنا تبدأ الحكاية الحقيقية ،

فالقضية ليست في طفل عاش بعيداً عن الناس فحسب ، وإنما في سؤال أكبر ظل يطارد العلماء والفلاسفة والمربين قروناً طويلة :

ماذا يبقى من الإنسان إذا حُرم الإنسان ؟

هل يولد الطفل إنساناً مكتملاً ، ثم تأتي الأسرة واللغة والمدرسة والمجتمع لتضيف إليه بعض المهارات ؟ أم أن الإنسان ، رغم جسده وعقله واستعداداته الفطرية ، يحتاج إلى الآخرين كي يتعلم كيف يكون إنساناً ؟

ربما لا توجد إجابة أكثر إيلاماً عن هذا السؤال من قصة طفل حُرم من الحضن قبل أن يعرف معنى الحضن ، ومن الكلام قبل أن يعرف أن للألم اسماً ، ومن اللعب قبل أن يكتشف أن العالم يمكن أن يكون أكثر من مكان للبقاء ،

نحن نولد ضعفاء ،

لا يستطيع الطفل في أيامه الأولى أن يطعم نفسه ، ولا أن يحمي جسده من البرد ، ولا أن يعرف ما الذي يؤذيه وما الذي ينفعه ، إنه يأتي إلى الدنيا حاملاً استعدادات عظيمة ، لكنه يحتاج إلى يد تمتد إليه ،

وهذه اليد ليست مجرد يد تقدم الطعام ، إنها اليد التي تقول له ، من دون كلمات : أنت آمن ، أنت محبوب ، وجودك مهم ،

وعندما تبتسم ، هناك من يبتسم لك ،

من هنا تبدأ التربية ، قبل المدرسة والكتب والواجبات ،

فالأسرة ليست مكاناً ينام فيه الطفل فقط ، بل هي أول مدرسة للغة ، وأول مختبر للمشاعر ، وأول مجتمع يتعلم فيه الطفل معنى الأخذ والعطاء ، والانتظار ، والاعتذار ، والفرح ، والخوف ، والحدود ،

وعندما يُحرم الطفل من هذه البيئة منذ سنواته الأولى ، فإنه لا يخسر معلومات فقط ؛ بل يخسر فرصاً أساسية لتكوين شخصيته ،

وهذا هو جوهر ما يسمى **الطفل المتوحش أو الطفل البري** ؛ وهو تعبير تاريخي يطلق على الأطفال الذين عاشوا في عزلة شديدة عن الاتصال

البشري في سن مبكرة ، سواء بسبب الضياع ، أو التخلي ، أو سوء المعاملة ، أو الاحتجاز والعزل ، أو ظروف قاسية أخرى ،

والتعبير نفسه قد يكون مضللاً إذا فهمناه حرفياً ،

فالطفل لم يولد وحشاً ، ولم يختر العزلة ، ولم يقرر أن يرفض المجتمع ، إنما كان في الغالب **ضحية لغياب المجتمع** ،

وهذه نقطة تربوية شديدة الأهمية ،

فالطفل الذي لا يعرف كيف يتحدث ليس بالضرورة طفلاً بلا عقل ، والطفل الذي لا يعرف كيف يتصرف في الصف ليس بالضرورة قليل الأدب ، والطفل الذي لا يستطيع التعبير عن مشاعره ليس بالضرورة بلا مشاعر ،

أحياناً يكون السلوك الغريب رسالة صامتة عن احتياج لم يجد من يفهمه ،

X

في عام 1798 تقريباً ، عُثر في جنوب فرنسا على صبي أصبح اسمه معروفاً في التاريخ :**فيكتور أفيرون** ،

كان في نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، وقد عاش في ظروف عزلة شديدة ، كان قليل الاستجابة للكلام البشري ، لا يمتلك لغة تخاطب عادية ، وكان سلوكه مختلفاً عن سلوك الأطفال الذين نشؤوا في الأسر والمجتمع ،

وحين وصل إلى الناس ، لم تكن المشكلة أن يعلموه أسماء الأشياء فقط ، لم يكن الأمر يشبه أن تقول لطفل : هذه شجرة ، وهذا كرسي ، وهذا كتاب ،

كان المطلوب أعمق بكثير ، كان عليهم أن يعيدوا بناء الجسر بين الطفل والعالم ،

اهتم الطبيب والمربي الفرنسي **جان مارك غاسبار إيتار** بحالته ، وحاول تعليمه اللغة والسلوك والتفاعل الاجتماعي ،

كانت التجربة واحدة من التجارب المبكرة التي جعلت التربية موضوعاً عملياً لدراسة الإنسان ، لا مجرد مجموعة من النصائح ،

كان السؤال : إذا كان الطفل قد عاش سنواته الأولى بعيداً عن اللغة والمجتمع ، فهل يمكن للتربية أن تعوض ما فاته ؟

بدأت المحاولات ، التكرار ، الإشارة ، التعويد ، الطعام ، الألعاب ، التواصل ، الاقتراب البطيء ،

كل شيء كان يحتاج إلى صبر ،

وكانت النتائج محدودة في جوانب ، ومهمة في جوانب أخرى ،

لم يتحول فيكتور إلى طفل عادي في المجتمع كما كان يأمل إيتار ، لكن محاولات تعليمه كشفت شيئاً بالغ الأهمية:

التربية تستطيع أن تغير ، لكنها لا تستطيع دائماً أن تمحو آثار الحرمان المبكر ،

وهنا يظهر مفهوم مهم في علم النفس والتربية ، هو فكرة **الفترة الحرجة أو الحساسة لاكتساب اللغة ،**

فالطفل لا يتعلم اللغة بمجرد أن يسمع الكلمات ، بل يحتاج في سنواته الأولى إلى تفاعل غني ومستمر : شخص يتحدث معه ، وينظر إليه ، ويستجيب لإشاراته ، ويعيد الكلمات ، ويصححها بلطف ، ويمنحه فرصة للمحاولة ،

اللغة ليست قاموساً داخل الرأس ، اللغة علاقة ،

فالطفل لا يتعلم كلمة ماء لأن الكلمة جميلة ، بل لأنه عطش ، فسمعها من شخص ، وربط الصوت بالحاجة ، ثم اكتشف أن الآخرين يفهمونه عندما ينطقها ،

وهكذا تولد اللغة من الحياة ،

X

تخيل طفلاً عاش سنوات طويلة بلا حوار ، سيكبر جسده ، ستطول ذراعاه ، تقوى ساقاه ، تتغير ملامحه ،

لكن ماذا عن داخله ؟

قد يستطيع أن يجري ، لكنه لا يعرف كيف يلعب مع الآخرين ، قد يعرف كيف يأكل ، لكنه لا يعرف كيف يجلس إلى مائدة ، قد يشعر

بالخوف ، لكنه لا يعرف كيف يقول: أنا خائف ، قد يغضب ، لكنه لا يعرف كيف يطلب المساعدة ،

وهنا نفهم أن النمو الجسدي ليس هو النمو الإنساني كله ،

يمكن للطفل أن يكبر في العمر ، بينما تظل بعض مهاراته الاجتماعية واللغوية في مراحل بدائية بسبب الحرمان الشديد ،

وقد تظهر لديه سلوكيات تبدو غريبة للآخرين : المشي بطريقة غير معتادة ، تجنب النظر ، رفض الطعام المألوف ، الخوف من الناس ، صعوبة استخدام المرحاض ، أو تفضيل العزلة ،

وفي بعض الحالات الشديدة ، قد يقلد الطفل حركات الحيوانات أو يعتمد على وسائل تواصل بسيطة للغاية ،

لكن يجب أن نتوقف هنا ،

ليس كل طفل منعزل طفلاً متوحشاً ، وليس كل طفل يتأخر في الكلام أو السلوك الاجتماعي قد تعرض للعزلة ،

فهناك أسباب كثيرة للتأخر الإنساني ، ولا يجوز أن نحول قصة استثنائية إلى تشخيص عام ،

التربية الجيدة تبدأ من الفهم ، لا من التسمية ،

X

عبر التاريخ ، ظهرت قصص كثيرة عن أطفال قيل إنهم عاشوا مع الحيوانات ،

تحدثت روايات عن أطفال مع الذئاب ، وأخرى عن أطفال مع القرود ، وغيرها عن أطفال عاشوا في الغابات والبراري ،

ومن أشهر الروايات قصة **أمالا وكامالا** ، اللتين قيل في عشرينيات القرن العشرين إنهما عُثر عليهما في الهند وقد عاشتا في بيئة الذئاب ،

انتشرت القصة على نطاق واسع ، وأصبحت مثالاً شهيراً في الكتب والمقالات ،

لكن العلم لا يقبل كل حكاية لأنها مؤثرة ،

فقد شكك باحثون في صحة الرواية ، وظهرت تفسيرات أخرى لحالتهما ، ولذلك فإن استخدام القصة بوصفها حقيقة علمية قطعية أمر غير دقيق ،

وهذا درس تربوي آخر :

ليس كل ما يروى عن الأطفال حقيقة ، حتى لو كانت القصة مؤثرة ،

فالإنسان يحب الحكايات العجيبة ، لكن الباحث يبحث عن الدليل ،

وهناك فرق كبير بين قصة مشهورة وحالة موثقة ،

ولهذا ينبغي عند الحديث عن الأطفال الذين عاشوا في عزلة شديدة أن نكون حذرين ، خصوصاً في الروايات التي تقول إن الحيوانات قامت فعلياً بتربية طفل بشري لسنوات طويلة ،

فبعض هذه القصص قد يكون صحيحاً جزئياً ، وبعضها قد يكون مبالغاً فيه ، وبعضها لا يملك الأدلة الكافية ،

ومع ذلك ، فإن وجود الشك في بعض القصص لا يلغي الحقيقة الأهم التي تكشفها الحالات الموثقة :

الحرمان الشديد من الرعاية والتفاعل الإنساني يمكن أن يترك آثاراً عميقة في اللغة والسلوك والتعلم ،

X

من أكثر الحالات التي أثارت اهتمام الباحثين حالة الطفلة الأمريكية **جيني** ، التي ولدت عام 1957 وتعرضت في طفولتها لإساءة شديدة وإهمال وعزلة اجتماعية ،

لم تكن المشكلة أنها عاشت في غابة ، كانت المشكلة أشد قسوة من ذلك أحياناً : كانت في مكان يفترض أن يكون بيتاً ،

وهنا تتغير صورة القصة كلها ،

فالطفل لا يحتاج فقط إلى أن يكون بعيداً عن الغابة ، قد يكون داخل منزل ، وبين أربعة جدران ، ومع ذلك يعيش عزلة نفسية واجتماعية عميقة ،

وهذه الحقيقة تمس واقعنا المعاصر ،

قد يكون الطفل في غرفة مليئة بالألعاب ، لكنه لا يجد من يتحدث معه ، قد يمتلك هاتفاً وحاسوباً ، لكنه لا يجد شخصاً يسمع حزنه ، قد يجلس على مائدة الأسرة ، بينما الجميع منشغلون بالشاشات ، وقد يسمع عشرات الكلمات طوال اليوم ، لكن لا أحد يسأله : كيف كان يومك ؟

إن الحرمان الحديث ليس دائماً غياب الطعام أو المكان ،

أحياناً يكون **غياب العلاقة** ، وهذه واحدة من أخطر صور الفقر التربوي ،

X

لو أعطيت طفلاً صغيراً ألف كتاب ، ولم تكلمه ، فلن يتحول فجأة إلى متحدث بارع ، ولو حفظت له ألف كلمة من تسجيل صوتي ، فلن يكفي ذلك لبناء لغة حية ، لأن اللغة تتكون داخل التفاعل ،

الأم تقول : أين الكرة ؟

ينظر الطفل ،

تشير إليها ، تقول : هذه الكرة ،

يمسكها ، يضحك ، تضحك ، ثم تسقط الكرة ،

فتقول : وقعت !

وبعد أيام وأسابيع وأشهر ، تبدأ الكلمات بالارتباط بالأشياء والأفعال والمشاعر ،

هذا هو التعلم الحقيقي ،

ولهذا فإن الطفل الذي يعيش في بيئة غنية بالحوار واللعب والقصص والأسئلة لديه فرص أكبر لبناء مهارات اللغة والتفكير ،

أما الطفل الذي يعيش في حرمان شديد ، فقد يصل إلى مرحلة يصبح فيها تعويض ما فاته أكثر صعوبة ،

ليس لأن عقله مغلق ، بل لأن بعض المسارات النمائية تحتاج إلى خبرات مبكرة ومتكررة ،

وهنا تظهر قيمة التربية المبكرة ،

إن قصة الطفل المتوحش ليست قصة عن الغابة فقط ، إنها قصة عن **أول خمس سنوات من حياة الطفل** ،

عن الحديث معه ، عن اللعب ، عن القراءة ، عن اللمس الآمن ، عن الاستجابة لبكائه ، عن احترام فضوله ، عن وضع الحدود ، عن تعليمه كيف يختلف دون أن يؤذي ،

X

قد يأتي طفل إلى المدرسة كثير الحركة ،

فتقول المعلمة : مشاغب ،

وقد يأتي آخر قليل الكلام ،

فتقول : ضعيف ،

وقد يفشل ثالث في القراءة ،

فيقال : كسول ،

وقد يضرب طفل زملاءه ،

فيقال: عدواني ،

لكن التربية تسأل سؤالاً مختلفاً : **لماذا** ؟

ما الذي حدث قبل السلوك ؟ ماذا يحاول الطفل أن يقول ؟ هل يعرف طريقة أخرى للتعبير ؟ هل يشعر بالأمان ؟ هل يملك اللغة التي يحتاج إليها ؟ هل تعلم قواعد الحوار ؟ هل عاش تجربة جعلته يعتقد أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لحماية نفسه ؟

هذا التفكير يغير طريقة التعامل ،

فبدلاً من أن نعاقب السلوك فقط ، نبحث عن جذره ،

وهذا لا يعني التساهل مع الخطأ ،

فالطفل يحتاج إلى حدود واضحة ، لكنه يحتاج في الوقت نفسه إلى شخص يريه كيف يتصرف بطريقة أفضل ،

إذا ضرب ، نوقف الضرب ،

لكننا لا نكتفي بقول : أنت سيئ ،

نقول : لا نضرب ، إذا غضبت ، قل: أنا غاضب ،

ثم نساعده على ممارسة البديل ،

هكذا تتحول التربية من عقوبة إلى بناء ،

X

تبدو بعض القصص وكأن الطفل انتقل من عالم الحيوان إلى عالم البشر ، لكن الحقيقة التربوية أعمق ،

كل طفل ، حتى الطفل الذي نشأ في أسرة مستقرة ، يقوم بهذه الرحلة بطريقة ما ،

يولد وهو لا يعرف قواعد المجتمع ، لا يعرف أن عليه الانتظار ، لا يعرف معنى الدور ، لا يعرف لماذا يجب أن يعتذر ، لا يعرف كيف يشارك لعبته ، لا يعرف لماذا لا يستطيع أخذ كل شيء يريده ،

ثم يأتي المجتمع ليعلمه ،

يقول له الأب : انتظر دورك ،

وتقول الأم : لا نؤذي أخاك ،

وتقول المعلمة : ارفع يدك قبل أن تتحدث ،

ويقول الصديق : هيا نلعب معاً ،

وبمرور الوقت ، تتحول هذه التعليمات الخارجية إلى ضمير داخلي ،

في البداية يقول الطفل : لن أفعل لأن أبي سيغضب ،

ثم يكبر فيقول : لن أفعل لأن هذا خطأ ،

وهذه إحدى أعظم وظائف التربية : **أن تنقل السلوك من الرقابة الخارجية إلى المسؤولية الداخلية ،**

X

لو دخل طفل شديد العزلة إلى مدرسة ، فإن أول خطأ يمكن أن نرتكبه هو أن نتوقع منه أن يتصرف مثل بقية الأطفال منذ اليوم الأول ،

قد يحتاج إلى خطة تربوية فردية ، قد يحتاج إلى أخصائي نفسي أو اجتماعي أو لغوي ، قد يحتاج إلى بيئة هادئة ، وقد يحتاج قبل الكتابة والقراءة إلى أن يتعلم شيئاً أبسط :

أن يثق بالآخر ، أن ينظر إلى المعلم دون خوف ، أن يفهم أن الخطأ لا يعني العقاب ، أن يعرف أن هناك شخصاً سيكرر الكلمة معه عشر مرات من دون أن يسخر منه ،

تخيل معلماً يقول لطفل : قل: ماء ،

لا يستطيع الطفل ،

يعيد المعلم الكلمة ، مرة ، مرتين ، عشر مرات ،

ثم في يوم عادي جداً ، يقول الطفل : ما ، ، ء ،

قد تبدو الكلمة صغيرة ، لكن المعلم يعرف أنها ليست صغيرة ، إنها أول حجر في جسر طويل ،

ثم تأتي كلمة أخرى ، ثم جملة ، ثم سؤال ، ثم قصة ، ثم صديق ، ثم حلم ،

وهكذا تبدأ العودة ،

X

قد نظن أن الطفل المتوحش شخصية تنتمي إلى الغابات القديمة ،

لكن إذا فهمنا المعنى التربوي للقصة ، سنكتشف أنها قريبة من حياتنا ،

ليس المطلوب أن يعيش الطفل مع الذئاب حتى يعاني العزلة ،

قد يعيش في مدينة مزدحمة ، ويمر كل يوم أمام آلاف الناس ، ثم يشعر أنه وحيد ،

قد يكون والده وأمه موجودين ، لكن الحوار غائب ، وقد تكون المدرسة مفتوحة ، لكن قلبه مغلق ، وقد تكون الألعاب كثيرة ، لكن اللعب المشترك قليل ، وقد يكون الهاتف قريباً ، لكن الإنسان بعيداً ،

ومن هنا يجب أن نسأل : هل نعطي أطفالنا وقتاً كافياً ؟ هل نستمع إلى أسئلتهم ؟ هل نقرأ لهم ؟ هل نسمح لهم باللعب الحقيقي ؟ هل نعلمهم كيف يختلفون ؟ هل نمدح المحاولة ، أم نمدح النتيجة فقط ؟ هل نعاقب الطفل لأنه لم يتعلم ، أم نبحث عن الطريقة التي تناسبه ؟

هذه الأسئلة ليست ترفاً ، إنها أسئلة عن بناء الإنسان ،

X

لو فقد الطفل لعبة ، يمكن أن نشتري له لعبة أخرى ، ولو فقد كتاباً ، يمكن أن نشتري كتاباً جديداً ،

لكن إذا فقد سنوات من الأمان والحوار والتفاعل ، فإن استعادتها ليست بهذه السهولة ،

لهذا فإن الوقاية أهم من العلاج ،

أن نقرأ للطفل قبل أن يطلب القراءة ، أن نحاوره قبل أن يبحث عن إجابة في مكان آخر ، أن نعلمه التعبير عن الغضب قبل أن يتحول الغضب إلى عدوان ، أن نمنحه الحب مع الحدود ،

فالحنان وحده لا يكفي ، والصرامة وحدها لا تكفي ،

الطفل يحتاج إلى **دفء يطمئنه وحدود تحميه** ، ويحتاج إلى حرية تجعله يكتشف ، ونظام يعلمه المسؤولية ،

X

عاد الصبي في آخر النهار إلى مكانه ، كانت الأشجار كما هي ، والريح تمر بين الأغصان ، والطريق بعيد ،

لكنه هذه المرة سمع صوتاً بشرياً ، صوتاً يناديه ،

لم يفهم الكلمة كاملة ، لكنه التفت ،

كانت تلك الالتفاتة الصغيرة بداية شيء كبير ،

فالتربية في جوهرها ليست أن نملأ رأس الطفل بالمعلومات ، إنها أن نوقظ فيه القدرة على الاتصال بالعالم ،

أن نساعده على أن يقول : أنا أشعر ، أنا أفكر ، أنا أخطأت ، أنا أحتاج ، أنا أحب ، أنا أختلف ، أنا أستطيع ،

وهنا تكمن المفارقة الكبرى في قصص الأطفال الذين عاشوا في عزلة شديدة :

لقد ظن الناس أنهم يبحثون عن طفل متوحش ، لكنهم اكتشفوا شيئاً عن الإنسان نفسه ، اكتشفوا أن الإنسان لا يولد بالمهارات الاجتماعية كاملة ،

إنه يولد مستعداً للتعلم ، ثم تأتي الأسرة ، ثم اللغة ، ثم اللعب ، ثم المدرسة ، ثم الصداقة ، ثم المجتمع ،

وفي كل مرحلة يضيف إنسان إلى إنسان شيئاً ،

كلمة ، ابتسامة ، قاعدة ، قصة ، حضناً ، اعتذاراً ، فرصة ثانية ،

ولهذا فإن السؤال الحقيقي ليس :**هل يستطيع الطفل أن يعيش بعيداً عن الناس ؟**

بل : **أي إنسان سيصبح إذا لم يجد من يعلمه كيف يكون إنساناً ؟**

قد يكبر الجسد في الغابة ، لكن الإنسان في الداخل يحتاج إلى لغة وحب وعلاقة ومعنى ،

وقد يعيش الطفل في بيت صغير ، لكنه إذا وجد فيه قلباً يصغي إليه ، ويداً تحميه ، وعقلاً يعلمه ، وكلمة تشجعه ، فقد يمتلك عالماً كاملاً ،

إن الطفل لا يحتاج فقط إلى من يطعمه حتى يكبر ، إنه يحتاج إلى من يراه ، إلى من يسمعه ، إلى من يصبر عليه ، إلى من يضع له الحدود دون أن يكسر قلبه ، وإلى من يؤمن بأن وراء السلوك الصعب طفلاً يحاول أن يتعلم ،

ولعل أجمل درس يمكن أن نخرج به من هذه الحكايات هو أن **التربية ليست صناعة طفل مثالي ، وإنما مساعدة إنسان صغير على أن يكتشف أفضل ما يستطيع أن يكونه ،**

فكل كلمة نقولها لطفل قد تصبح جزءاً من صوته الداخلي ، وكل نظرة احتقار قد تتحول إلى جدار ، وكل لحظة إنصات قد تصبح نافذة ، وكل فرصة نمنحها له قد تكون بداية جديدة ،

ومن هنا ، فإن الطفل الذي ظن الناس أنه فقد لغة البشر ، يترك لنا في النهاية لغة أخرى لا تحتاج إلى مترجم : لغة تقول إن الإنسان يحتاج إلى الإنسان ، وأن الأسرة ليست جدراناً ، وأن المدرسة ليست كتباً ، وأن التربية ليست أوامر ، وأن المجتمع ليس مجرد مجموعة من الناس ،

إنها كلها **مساحات يتعلم فيها الإنسان كيف يكون إنساناً ،**

وحين نعرف ذلك ، لن ننظر إلى الطفل الهادئ ، أو الغاضب ، أو المتأخر ، أو المختلف بالطريقة نفسها ،

سنقترب قليلاً ، نسأل أكثر ، نحكم أقل ،

ونتذكر دائماً أن وراء كل سلوك قصة ، ووراء كل طفل عالم لم يكتمل بعد ،

وربما كان الفرق بين طفل ينجح في عبور هذا العالم وطفل يضيع فيه ، في بعض الأحيان ، مجرد شخص واحد قال له في الوقت المناسب : **أنا أراك ، ، ، وأنا هنا ،**

الغابات السوداء

حين دخلنا الغابة بحثًا عن الأشباح

لم يكن أحد من الطلاب يعرف أن ذلك الصباح سيغيّر نظرته إلى الغابات إلى الأبد ،

وقف الأستاذ **مروان** أمام حافلة المدرسة ، يتأمل الوجوه الصغيرة التي تزدحم عند الباب ، كان بعض الطلاب يحملون حقائبهم ، وبعضهم يحمل كاميرات صغيرة ، بينما كان آخرون يتبادلون قصصًا عن الأشباح والمخلوقات الغريبة ،

قال أحدهم بحماس : أستاذ مروان ، هل صحيح أن هناك شبحًا بلا رأس يعيش في الغابة ؟

ضحك آخر وقال : وأنا سمعت أن ملكًا شبحًا يركب حصانًا أبيض ويظهر ليلًا !

ابتسم مروان ، ولم يجب مباشرة ،

رفع نظره إلى الأشجار البعيدة التي كانت تبدو كأنها موج أخضر داكن يمتد حتى الأفق ، ثم قال : سنذهب اليوم إلى **الغابة السوداء** ، لكنني لا أريد منكم أن تبحثوا عن الأشباح فقط ،

سأله أحد الطلاب : وماذا نبحث إذن ؟

أجاب : نبحث عن الحقيقة ،

ساد الصمت لحظة ،

ثم أضاف : وأحيانًا تكون الحقيقة أغرب من الأسطورة ،

X

كانت الغابة السوداء في جنوب غرب ألمانيا تبدو من بعيد كأنها عالم آخر ، غابات كثيفة ، جبال مستديرة ، ووديان عميقة ، وقرى صغيرة تختبئ بين الأشجار ، تمتد المنطقة على مسافة طويلة ، وتغطيها أشجار الزان والبلوط والتنوب ، حتى إن بعض الأماكن تبدو مظلمة بسبب كثافة الأشجار التي تحجب جزءًا كبيرًا من ضوء الشمس ،

ولهذا ، حملت اسمها الشهير :**الغابة السوداء** ،

لكن الاسم لم يكن يعني أنها سوداء حقًا ،

كان الظلام الذي يراه الزائر بين أشجارها نتيجة طبيعية لكثافة الغطاء النباتي وارتفاع الأشجار ،

قال مروان وهو يسير مع طلابه في الطريق المخصص للزوار : تذكروا هذه المعلومة ، أحيانًا نخاف من شيء لأننا لم نفهمه ،

قالت الطالبة ليان : يعني أن الظلام ليس مخيفًا دائمًا ؟

بالضبط ،

ثم نظر إليها وقال : كثير من مخاوف الإنسان تبدأ من مساحة فارغة في عقله ، فيملؤها بالخيال ،

كان الطلاب ينصتون إليه ، لكنهم لم يتخلوا عن فضولهم ، كانوا يريدون شيئًا أكثر إثارة ، كانوا يريدون شبحًا ،

كلما تقدموا داخل الغابة ، تغير صوت العالم ، اختفت ضوضاء الطريق ، خفَّت أصوات السيارات ،

صار الهواء أكثر برودة ، وأصبح صوت الريح بين الأغصان يشبه همسًا طويلًا لا يعرف أحد بدايته ولا نهايته ،

توقفت المجموعة عند شجرة ضخمة ،

قال مروان : اسمعوا ،

أصغى الجميع ، صوت خافت ، ثم صوت آخر ، خشخشة بين الأوراق ،

قال أحد الطلاب : هناك شيء يتحرك !

تراجع بعضهم خطوة ،

ابتسم مروان وقال : انتظروا ،

وبعد لحظات ظهر سنجاب صغير بين الأغصان ، ثم قفز واختفى ،

ضحك الطلاب ،

قال مروان : الخوف أحيانًا يضيف إلى الصوت ما ليس فيه ،

ثم تابع : عندما نسمع صوتًا غريبًا في الليل ، قد يكون ريحًا ، أو حيوانًا ، أو غصنًا اصطدم بآخر ، لكن الإنسان ، إذا كان خائفًا ، قد يحوّل الصوت إلى قصة كاملة ،

قال أحد الطلاب : لكن هناك قصصًا عن أشباح حقيقية ،

أجاب المعلم : نعم ، هناك قصص كثيرة ،

وهل تصدقها ؟

فكر مروان قليلًا ، ثم قال : أصدق أن الناس حكوا هذه القصص ، وأحترم مشاعرهم وتجاربهم ، لكنني لا أخلط بين الحكاية والدليل ،

كانت تلك أول مرة يشعر فيها الطلاب أن الرحلة ليست مجرد نزهة ،

لقد بدأ الدرس ،

X

جلس الجميع قرب جدول صغير ،

أخرج مروان خريطة للمنطقة ، وفتحها أمام الطلاب ،

شرح لهم أن الغابة ليست مكانًا واحدًا متشابهًا ، بل منطقة واسعة تضم جبالًا ووديانًا وقرى وممرات وأنشطة بشرية مختلفة ،

كانت هناك مناطق مرتفعة باردة ، وأخرى أكثر اعتدالًا في الوديان ، واشتهرت المنطقة عبر تاريخها بأعمال مثل قطع الأخشاب والنجارة وصناعة الساعات والآلات الموسيقية ، ثم تطورت فيها صناعات حديثة ، كما أصبحت السياحة والرياضات الشتوية والمنتجعات الصحية جزءًا مهمًا من حياتها الاقتصادية ،

رفع أحد الطلاب يده : أستاذ ، إذا كانت الغابة مهمة للناس ، فلماذا كانوا يقطعون الأشجار ؟

قال مروان : سؤال جيد ،

ثم أخذ غصنًا صغيرًا ساقطًا من الأرض ،

الإنسان يحتاج إلى الطبيعة ، لكنه يحتاج أيضًا إلى أن يعرف حدود حاجته ،

وأشار إلى الأشجار حوله ،

الخشب مورد مهم ، لكنه ليس شيئًا بلا نهاية ، عندما نأخذ من الطبيعة أكثر مما تستطيع أن تعوضه ، تبدأ المشكلة ،

قالت ليان : مثل شخص يأخذ كل شيء من صديقه ولا يعطيه شيئًا ؟

ابتسم المعلم : مثال جميل ،

ثم قال : الطبيعة ليست صديقًا صامتًا فقط ، إنها بيتنا الكبير ، وإذا أفسدنا البيت ، فلن نجد بيتًا آخر بسهولة ،

X

بعد الظهر ، وصل الطلاب إلى قرية صغيرة على أطراف الغابة ، كانت البيوت جميلة ، والهواء نظيفًا ، والساحات هادئة ،

تحدث أحد السكان مع المجموعة عن صناعة الساعات التي اشتهرت بها المنطقة ، وعن الحرف التقليدية التي انتقلت من جيل إلى جيل ،

لاحظ الطلاب أن الخشب لم يكن مجرد مادة خام ، كان يدخل في صناعة الأثاث ، والأدوات ، والآلات الموسيقية ، وأشياء كثيرة يحتاج إليها الناس ،

قال مروان : انظروا كيف يمكن للإنسان أن يستفيد من الطبيعة دون أن يحولها إلى ضحية ،

ثم توقف قليلًا ،

الاستفادة ليست المشكلة ، المشكلة تبدأ عندما ننسى أن لكل شيء ثمنًا ،

X

مع غروب الشمس ، بدأ الطلاب يشعرون بشيء من القلق ،

قال مروان : سنعود الآن إلى النزل ،

لكن أحد الطلاب ، وكان اسمه **آدم** ، قال : أستاذ ، أريد أن أرى المكان الذي يقولون إن الشبح يظهر فيه ،

نظر إليه مروان طويلًا ،

ولماذا؟

أريد أن أعرف الحقيقة ،

صمت المعلم ،

كان في عيني آدم شيء مختلف ،

لم يكن مجرد فضول ،

كان يريد أن يثبت أمام زملائه أنه شجاع ،

قال مروان : الشجاعة ليست أن تدخل مكانًا خطرًا لتثبت أنك لا تخاف ،

ثم أضاف : الشجاعة أن تعرف متى تتقدم ، ومتى تتراجع ،

وافق الطلاب على العودة ، لكن قبل أن يتحركوا ، هبت رياح قوية ، وبدأ المطر يسقط فجأة ، في دقائق قليلة تغير كل شيء ، صار الطريق زلقًا ، واختفت بعض معالم الممر تحت الضباب ، ثم اكتشف مروان أن آدم لم يكن معهم ،

توقف الزمن للحظة ، أحصى الطلاب ، مرة ، ثم مرة أخرى ،

كان آدم غائبًا ،

قال مروان بهدوء ، رغم القلق الذي بدأ يضغط على صدره : لا أحد يتحرك وحده ،

قسم الطلاب إلى مجموعتين مع البالغين المرافقين ، وأبلغ المسؤولين عن المكان ، وبدأ البحث في المسارات الآمنة ،

كانت الغابة قد تغيرت ، الأشجار التي بدت جميلة في النهار أصبحت ضخمة ومهيبة ، والضباب جعل الأشياء القريبة تبدو بعيدة ،

سمع أحد الطلاب صوتًا بين الأشجار ،

قال : الشبح !

صرخ مروان : لا ،

ثم قال بحزم : لا نحول خوفنا إلى حقيقة ،

تقدموا بحذر ،

كان الصوت مجرد ماء يتساقط من فرع مرتفع ،

واصلوا البحث ،

وبعد وقت بدا طويلًا ، سمعوا صوتًا ضعيفًا : أستاذ!

كان آدم ،

وجدوه قرب جذع شجرة كبيرة ، وقد انزلق على الأرض المبتلة ، وأصيب بخدش بسيط في يده ،

كان وجهه شاحبًا ،

اقترب منه مروان ، لماذا ابتعدت ؟

خفض آدم رأسه ، كنت أريد أن أرى الشبح ،

جلس مروان بجانبه ، لم يغضب ،

قال : وماذا رأيت ؟

نظر آدم حوله ، رأيت شيئًا أسوأ ،

ماذا ؟

قال آدم : رأيت كم يمكن للإنسان أن يكون صغيرًا أمام الطبيعة عندما لا يحترمها ،

X

في طريق العودة ، لم يتحدث أحد كثيرًا ، كان الجميع يفكر ، لم يجدوا شبحًا بلا رأس ، لم يجدوا ملكًا يعيش تحت الماء ، لم يروا جنية أو قزمًا ، لكنهم وجدوا شيئًا آخر ، وجدوا الخوف الحقيقي ،

الخوف الذي يأتي عندما ينسى الإنسان أنه ليس سيد المكان الذي يقف فيه ،

وفي تلك الليلة ، جلس الطلاب في قاعة النزل حول المعلم ،

أشعلوا مصباحًا صغيرًا ، وأصبح المطر خلف النوافذ كأنه موسيقى بعيدة ،

قال مروان : الآن أخبروني: ما سر الغابة ؟

قال طالب : الأشباح ؟

هز المعلم رأسه ،

قالت ليان : الأساطير ؟

ابتسم ،

قال آدم : الإنسان نفسه ،

نظر إليه مروان بدهشة ،

أكمل آدم : نحن نخاف مما لا نفهمه ، ونؤذي ما لا نشعر بحاجته إلى الحماية ،

ساد الصمت ،

ثم قال المعلم : ـــ هذه بداية الإجابة ،

أخرج مروان دفترًا صغيرًا ،

قال : منذ زمن بعيد ، كان الإنسان يحكي القصص ليشرح العالم من حوله ، وعندما يرى ظاهرة لا يفهمها ، يصنع لها حكاية ، ومع مرور الوقت ، تنتقل الحكاية من جيل إلى جيل ، وتكبر معها التفاصيل ،

ثم رسم دائرة على الورق ،

لكن التربية الحقيقية لا تطلب منا أن نسخر من الحكاية ، ولا أن نصدق كل شيء دون تفكير ،

كتب داخل الدائرة :**اسأل ، لاحظ ، تحقق ، احترم ،**

وقال : هذه هي مهارات العقل ،

ثم أضاف : وإذا كنا نحترم عقولنا ، فعلينا أن نحترم الطبيعة أيضًا ،

X

في صباح اليوم التالي ، خرج الطلاب مرة أخرى ، لكنهم هذه المرة لم يخرجوا بحثًا عن الأشباح ،

حملوا أكياسًا صغيرة لجمع النفايات ، ودفاتر لتسجيل ملاحظاتهم ، وكاميرات لتصوير النباتات والمناظر الطبيعية دون إزعاجها ،

كان آدم أول من انحنى ليلتقط زجاجة بلاستيكية ملقاة قرب الطريق ،

قال أحد زملائه : هل أصبحت عامل نظافة ؟

ضحك آدم : لا ، أصبحت حارسًا صغيرًا للغابة ،

قال مروان :

وهذه أفضل نتيجة يمكن أن نعود بها من الرحلة ،

X

في أثناء السير ، لاحظ الطلاب شيئًا مهمًا ،

كلما كانت المنطقة نظيفة ، كانت أكثر جمالًا ،

وحين وجدوا مكانًا امتلأ ببقايا الطعام والعبوات ، بدا المكان حزينًا ، رغم أن الأشجار نفسها كانت واقفة ،

قالت ليان : الأشجار لا تستطيع أن تطلب منا أن نحميها ،

قال مروان : ولهذا يجب أن نتعلم أن نسمع الأشياء التي لا تتكلم ،

كانت الجملة بسيطة ، لكنها بقيت في أذهان الطلاب ،

X

عند نهاية الرحلة ، وقف مروان على مرتفع يطل على الغابة ،

كانت الشمس تملأ قمم الأشجار ، ومن بعيد بدت القرى صغيرة ، كأنها نقاط هادئة بين الأخضر والجبال ،

قال للطلاب : ماذا تعلمتم ؟

رفع أحدهم يده : أن الغابة ليست مخيفة ،

قال آخر : وأن بعض الأصوات لها تفسير طبيعي ،

وقالت ليان : وأن الإنسان يستطيع أن يستفيد من الطبيعة ويحافظ عليها في الوقت نفسه ،

أما آدم فقال : تعلمت ألا أدخل مكانًا لا أعرفه لأثبت أنني شجاع ،

ضحك الجميع ،

ثم صمت آدم لحظة وقال : وتعلمت أن أخطر شبح هو الإنسان عندما ينسى مسؤوليته ،

نظر مروان إلى طلابه ،

كان يعرف أن الرحلة انتهت ، لكن الدرس لم ينته ،

فالطفل الذي يلتقط ورقة من الطريق اليوم ، قد يصبح غدًا إنسانًا يحترم مدينته ،

والطالب الذي يتعلم ألا يصدق كل قصة دون دليل ، قد يصبح بالغًا لا ينساق وراء الشائعات ،

والشاب الذي يتعلم أن الشجرة ليست مجرد خشب ، قد يصبح يومًا مهندسًا أو مسؤولًا أو مواطنًا يعرف قيمة البيئة ،

التربية لا تصنع التغيير بالكلمات الكبيرة وحدها ، أحيانًا تبدأ بكيس صغير لجمع النفايات ، وأحيانًا تبدأ بسؤال ، وأحيانًا تبدأ برحلة ،

X

قبل أن تغادر الحافلة ، أعطى مروان كل طالب ورقة صغيرة ،

كتب عليها سؤالًا واحدًا : **ماذا ستفعل عندما تعود إلى بيتك لتحمي الطبيعة ؟**

كتب الطلاب إجابات مختلفة ،

قال أحدهم : سأقلل استخدام البلاستيك ،

وكتب آخر : لن أترك القمامة في الحدائق ،

وقالت ليان : سأزرع شجرة ،

أما آدم فكتب : **سأحكي لأصدقائي أن الغابة لا تحتاج منا أن نخاف منها ، بل أن نفهمها ،**

قرأ مروان الإجابة ، ثم ابتسم ،

X

تحركت الحافلة ، ابتعدت الغابة شيئًا فشيئًا ، ومن نافذة الحافلة ، ل الطلاب ينظرون إلى الأشجار ، كانت تبدو سوداء من بعيد ، لكنهم هذه المرة لم يروا فيها ظلامًا ،

رأوا جذوعًا تحمل الحياة ، رأوا أعشاشًا صغيرة ، رأوا ماءً يسافر بين الصخور ، رأوا تاريخًا طويلًا من العلاقة بين الإنسان والأرض ، ورأوا مسؤولية تنتظرهم ،

أما مروان ، فظل صامتًا ،

كان يتذكر السؤال الذي طرحه في بداية الرحلة : **ماذا نبحث في الغابة ؟**

الآن عرف الطلاب الإجابة ،

لم يكونوا يبحثون عن شبح ، كانوا يبحثون عن الحقيقة ، والحقيقة أن الطبيعة لا تحتاج إلى أساطير حتى تكون مدهشة ،

يكفي أن ننظر إليها بعين تعرف كيف ترى ،

والحقيقة أن الإنسان لا يصبح شجاعًا حين يهزم خوفه فقط ، بل حين يتحول خوفه إلى وعي ، ووعيه إلى سلوك ، وسلوكه إلى مسؤولية ،

أما الغابة السوداء ، التي دخلها الطلاب وهم يبحثون عن الأشباح ، فقد علمتهم أن بعض الأسرار لا تسكن في الظلام ،

إنها تسكن في الضوء ، في العلم ، في السؤال ، في احترام الحياة ،

وفي تلك اللحظة ، فهم مروان أن أجمل درس يمكن أن يعطيه المعلم لطلابه ليس أن يعرفوا أسماء الأشجار والجبال فحسب ، ولا أن يحفظوا تاريخ الأماكن ، وإنما أن يتعلموا كيف يعيشون على الأرض دون أن يؤذوها ،

فالطبيعة كتاب مفتوح ، ومن لا يحترم الكتاب ، لن يفهم ما بين سطوره ، ومن لا يحافظ على الغابة اليوم ، قد يبحث غدًا عن ظلٍّ فلا يجده ، ومن يزرع شجرة ، لا يزرع خشبًا فقط ، إنه يزرع مستقبلًا ،

X

وعندما وصلت الحافلة إلى المدرسة ، نزل الطلاب واحدًا تلو الآخر ، كان النهار قد انتهى ، لكن شيئًا في داخلهم بدأ ، لم يعودوا يحملون صورًا للغابة فقط ، حملوا معها فكرة ،

أن الإنسان جزء من الطبيعة ، وليس مالكًا مطلقًا لها ، وأن المعرفة ليست في قتل الأسطورة ، بل في فهم أسبابها ، وأن الخيال جميل ما دام يقودنا إلى السؤال ، لا إلى الخرافة ، وأن التربية الحقيقية لا تنتهي عند باب الفصل ،

إنها تبدأ حين يرى الطفل العالم بعين جديدة ، ثم يقرر أن يتركه أفضل مما وجده ،

ومنذ ذلك اليوم ، أصبحت رحلة الغابة السوداء حكاية يتناقلها طلاب المدرسة ، لكنهم لم يسموها حكاية الأشباح ،

سموها : **رحلة البحث عن الحقيقة ،**

وكان آدم ، كلما سمع أحدًا يتحدث عن شبح في غابة ما ، يبتسم ويقول : قبل أن تخاف ، اسأل ،

ثم يضيف : وقبل أن تأخذ من الطبيعة شيئًا ، اسأل نفسك: ماذا سأترك لها ؟

وهكذا بقيت الغابة السوداء بعيدة في جنوب غرب ألمانيا ، لكن درسها لم يبق بعيدًا ،

فالغابات موجودة في كل مكان ، والطبيعة حولنا في كل مكان ،

والاختبار الحقيقي ليس أن ندخل غابة مظلمة ونخرج منها سالمين ، الاختبار أن نعيش في هذا العالم ، ثم نخرج منه وقد تركنا وراءنا قدرًا أكبر من الحياة ، لا قدرًا أقل ،

وهنا تبدأ الحكاية الحقيقية

الفجوة السوداء

حين يتحول الهامش الاجتماعي إلى عالم خفي لاستغلال الأطفال

ما وراء الحفرة

ليست كل الحكايات الخطرة تبدأ بصوت مرتفع ، بعضها يبدأ من فتحة صغيرة في الأرض ، يمر الناس بجوارها فلا يلتفتون إليها ، ثم تكتشف المدينة ، في لحظة متأخرة ، أن تحت سطحها عالماً كاملاً من الخوف والفقر والاستغلال ،

في محافظة الجيزة ، أثارت مقاطع مصورة تداولها مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي جدلاً واسعاً ، بعدما أظهرت حركة دخول وخروج متكررة لأشخاص من مكان وُصف إعلامياً باسم «الفجوة السوداء» ، وهي فتحة تقع أسفل منطقة تضم منشآت ترفيهية ، وسرعان ما تحولت تلك المقاطع من مجرد مادة مثيرة للفضول إلى نقطة انطلاق لتحرك أمني انتهى ، وفق ما أعلنته المصادر الواردة في الرواية الصحفية ، إلى ضبط عدد من الأشخاص ، بينهم نساء وأطفال ، مع الاشتباه في وجود أنشطة تتعلق باستغلال القُصَّر في التسول وأعمال غير مشروعة أخرى ،

لكن أهمية هذه الواقعة لا تكمن في تفاصيل المداهمة وحدها ، ولا في غرابة المكان الذي خرجت منه الصور ، فالمكان ، مهما كان

مظلماً ، ليس هو الجريمة في ذاتها ، إنه ، في أفضل الأحوال ، رمز لمشكلة أوسع: كيف يمكن أن يتحول الطفل ، في ظل الفقر والتفكك والإهمال وضعف الحماية ، من إنسان يحتاج إلى الرعاية إلى أداة داخل اقتصاد غير رسمي قائم على الاستغلال ؟

إن «الفجوة السوداء» ، بهذا المعنى ، ليست مجرد حفرة تحت الأرض ، إنها استعارة اجتماعية عن المسافة التي قد تفصل بين المجتمع وما يحدث في هوامشه ؛ بين الشارع الذي نراه والعالم الذي لا نراه ، بين الطفل بوصفه فرداً له حقوق ، والطفل بوصفه ـ في نظر المستغل ـ وسيلة لجلب المال ،

ومن هنا ، فإن قراءة هذه الواقعة تحتاج إلى أكثر من لغة الإثارة ، تحتاج إلى تحليل يجمع بين علم النفس الاجتماعي ، ودراسات الجريمة ، وحماية الطفولة ، والقانون ، مع الإبقاء على مبدأ أساسي لا يجوز تجاوزه : الوقائع الجنائية النهائية يحددها التحقيق والقضاء ، أما الروايات الأولية والتصريحات الإعلامية فتظل جزءاً من صورة قابلة للمراجعة والتدقيق ،

X

تداولت منصات التواصل الاجتماعي خلال أيام متتالية مقاطع تظهر عدداً من الأشخاص وهم يدخلون إلى مكان منخفض أو يخرجون منه ، ومع تكرار المشاهد ، بدأ السؤال يتجاوز الفضول البصري : من هؤلاء ؟ ولماذا يستخدم الأطفال هذا المكان ؟ وهل يتعلق الأمر بمأوى عشوائي ، أم بمكان تُدار من خلاله أنشطة مخالفة للقانون ؟

وفقاً للرواية الصحفية المنقولة عن مصادر أمنية ، جرى رصد الموقع ومتابعته قبل تنفيذ المداهمة ، كما شارك في لفت الانتباه إليه متطوعون ونشطاء مهتمون بقضايا الأطفال ، وبعد تدخل الأجهزة المختصة ، أُعلن عن ضبط عدد من الأشخاص ، بينهم نساء وأطفال ، مع وجود أشخاص ذوي سجلات جنائية ، وضبط أسلحة بيضاء بحسب ما ورد في التصريحات ،

هذه التفاصيل ، في ذاتها ، تكشف جانباً مهماً من طبيعة المجتمع المعاصر : لم تعد المعلومة الأمنية تبدأ دائماً من بلاغ رسمي تقليدي ، فقد أصبح الفضاء الرقمي مجالاً للملاحظة والتوثيق والإنذار

المبكر ، الهاتف المحمول ، في يد مواطن أو متطوع ، قد يتحول إلى عين ترى ما لا تراه المؤسسات في اللحظة نفسها ،

لكن هذه القدرة الجديدة تحمل خطراً موازياً ، فوسائل التواصل الاجتماعي قد تنتج ضغطاً شعبياً سريعاً ، وقد تخلط بين الوقائع المثبتة والشائعات ، وبين المتهم والمدان ، لذلك ، فإن المسؤولية الإعلامية تقتضي استخدام لغة دقيقة : **هناك أشخاص ضُبطوا للتحقيق ، وهناك اتهامات أو اشتباهات ، أما المسؤولية الجنائية النهائية فتظل من اختصاص القضاء ،**

إن احترام هذه القاعدة لا يضعف خطورة القضية ، بل يمنحها قوة أكبر ؛ لأن العدالة لا تحتاج إلى المبالغة كي تكون عادلة ،

X

أكثر ما يثير القلق في مثل هذه الوقائع هو وجود الأطفال ، فالطفل الذي يظهر في محيط الجريمة لا ينبغي النظر إليه تلقائياً باعتباره جزءاً من التشكيل الإجرامي ، فقد يكون شاهداً ، أو ضحية ، أو شخصاً جرى دفعه إلى سلوك معين تحت تأثير الإكراه أو التبعية أو الحاجة الاقتصادية ،

ومن منظور علم النفس الاجتماعي ، لا تتشكل شخصية الطفل في فراغ ، فالبيئة المحيطة به تؤثر في إدراكه لما هو طبيعي وما هو مرفوض ، الطفل الذي ينشأ في محيط يعتبر التسول عملاً يومياً ، أو يرى العنف وسيلة للحماية ، أو يعتاد الهروب والمطاردة والخوف ، قد يفقد تدريجياً قدرته على التمييز بين السلوك الذي اختاره والسلوك الذي فُرض عليه ،

وهنا تظهر فكرة شديدة الأهمية : **التكيف مع البيئة القاسية لا يعني قبولها ،**

قد يبتسم الطفل في المكان الذي يستغله ، وقد يدافع عن الشخص الذي يستغل حاجته ، وقد يرفض مغادرة بيئة يعرفها إلى بيئة مجهولة ، وهذا لا يعني بالضرورة أنه حر أو راضٍ ، فالإنسان ، وخاصة الطفل ، قد يتكيف نفسياً مع القسوة لأنها أصبحت الشيء الوحيد الذي يعرفه ،

في علم النفس ، يمكن فهم ذلك بوصفه شكلاً من أشكال التكيف مع الخطر المستمر ، عندما يصبح الخوف يومياً ، يتحول الاستثناء إلى

عادة ، وعندما يصبح النوم في مكان غير آمن أمراً متكرراً ، قد يتوقف العقل عن التعامل معه باعتباره حالة طارئة ،

إن أخطر ما يمكن أن يحدث للطفل ليس أن يخاف من العالم ، بل أن يتوقف عن إدراك أن ما يعيشه غير طبيعي ،

X

تشير التقارير المتعلقة باستغلال الأطفال في أعمال التسول والعمل القسري والأنشطة غير المشروعة إلى أن الطفل قد يتحول ، داخل بعض الشبكات ، إلى ما يشبه «مصدراً للدخل» ، وهنا تنتقل القضية من مستوى السلوك الفردي إلى مستوى أكثر تعقيداً: مستوى الاقتصاد الإجرامي ،

فالاستغلال لا ينشأ دائماً من الفقر وحده ، الفقر عامل خطير ، لكنه ليس تفسيراً كافياً ، هناك فرق بين أسرة فقيرة تدفعها الظروف إلى الهشاشة ، وبين شخص أو شبكة تستثمر في هشاشة الآخرين ،

عندما يصبح الطفل وسيلة للحصول على المال ، تتغير طبيعة العلاقة الإنسانية ، لا يعود السؤال: «كيف نحميه ؟» ، بل يصبح ، في منطق المستغل: «كم يمكن أن يحقق ؟« ،

وهنا تكمن القسوة الحقيقية ،

إن بعض أشكال التسول المنظم تعتمد ، بحسب طبيعة الحالات التي تكشفها أجهزة إنفاذ القانون في دول مختلفة ، على تقسيم الأدوار واختيار المواقع وتحديد أوقات الحركة ، وقد تستخدم في ذلك أشخاصاً أكثر قدرة على السيطرة ، بينما يوضع الأطفال في الواجهة لأنهم أكثر قدرة على استثارة التعاطف ،

ومن الناحية النفسية ، يستند هذا النمط إلى استغلال عاطفة المجتمع نفسه ، فالطفل البائس في الشارع لا يصبح ضحية الاستغلال فقط ، بل يصبح أيضاً جزءاً من مشهد اقتصادي يقوم على تحويل تعاطف المارة إلى دخل مالي ،

وهكذا تتشكل معادلة قاسية : طفل ضعيف ، ومارة متعاطفون ، ومستغل يختفي في الخلف ،

X

لماذا أثارت تسمية «الفجوة السوداء» كل هذا الاهتمام ؟

لأن اللغة اختصرت في كلمتين شعوراً جماعياً بالخوف من المجهول ، الفتحة في الأرض ليست مخيفة في حد ذاتها ، لكن ما لا نعرفه عنها هو الذي يثير القلق ،

في علم النفس الاجتماعي ، يرتبط الخوف من الأماكن المغلقة والمجهولة بغياب القدرة على التنبؤ ، الإنسان يشعر بدرجة أكبر من الأمان عندما يستطيع رؤية المكان وفهم ما يحدث داخله ، أما حين تختفي التفاصيل ، تبدأ المخيلة في ملء الفراغ ،

ولهذا تحولت القضية سريعاً إلى قصة أكبر من حجم الموقع نفسه ، أصبح المكان رمزاً لعالم سري ، وامتزجت الحقائق بالتصورات ، وانتقلت القضية من الشارع إلى الهاتف ، ومن الهاتف إلى النقاش العام ،

لكن التحليل الهادئ يفرض علينا التمييز بين الرمز والواقع ،

قد يكون المكان بالفعل مستخدماً في أنشطة مخالفة للقانون ، وفق ما ستثبته التحقيقات ، لكن تحويله إلى أسطورة غامضة قد يحجب المشكلة الأساسية: حتى لو أُغلق هذا المكان ، فإن السؤال الأهم يبقى قائماً ، أين سيذهب الأطفال ؟ ومن الذي سيحميهم من الوقوع في الاستغلال مرة أخرى ؟

إغلاق الباب لا يعني دائماً إنهاء الطريق ،

X

المداهمة الأمنية ضرورة عندما توجد شبهة جريمة أو خطر يهدد حياة الناس أو سلامة الأطفال ، لكن التدخل الأمني ، مهما كان مهماً ، يمثل بداية الحل وليس نهايته ،

فإذا كان الطفل قد عاش فترة طويلة في بيئة قائمة على العنف أو الإهمال أو الاستغلال ، فإن إخراجه من المكان لا يعني تلقائياً خروجه من التجربة النفسية ،

قد يحمل معه الخوف ، وقد يحمل معه فقدان الثقة ، وقد يشعر بالغربة في مؤسسة الرعاية ، وقد يعود إلى الشارع إذا لم يجد بديلاً أكثر أمناً واستقراراً ،

لذلك ، فإن حماية الطفل تتطلب سلسلة مترابطة من الإجراءات : تحديد الهوية ، والبحث عن الأسرة متى كانت الأسرة بيئة آمنة ، والتحقق من وجود حالات فقد أو اختفاء أو استغلال ، ثم توفير الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية ،

ولا ينبغي أن تتحول مؤسسة الرعاية إلى مجرد مكان لإيواء الأجساد ، فالطفل يحتاج إلى ما هو أكثر من السرير والطعام ، يحتاج إلى علاقة إنسانية مستقرة ، وإلى تعليم ، وإلى فرصة لبناء هوية جديدة لا تقوم على وصمة الماضي ،

إن الطفل الذي يُنقذ من الاستغلال يحتاج إلى أن يتعلم ، مرة أخرى ، أن العالم ليس كله فخاً ،

X

الأطفال الذين يتعرضون لبيئات مضطربة أو عنيفة قد يواجهون آثاراً نفسية متعددة ، تختلف من طفل إلى آخر ، وقد تظهر في صورة قلق ، أو خوف مفرط ، أو اضطرابات في النوم ، أو صعوبة في الثقة بالآخرين ، أو سلوك عدواني ، أو انسحاب اجتماعي ،

ولا تكون الصدمة دائماً مشهداً درامياً واضحاً ، أحياناً تبدو في الصمت ، طفل لا يسأل ، طفل لا يبكي ، طفل لا يتوقع المساعدة لأنه لم يختبرها من قبل ،

وهنا تقع المؤسسات أمام خطأ شائع : افتراض أن الهدوء دليل على التعافي ، بينما قد يكون الهدوء ، في بعض الحالات ، شكلاً من أشكال الانسحاب النفسي أو الاعتياد على الخطر ،

ولهذا يحتاج التعامل مع هؤلاء الأطفال إلى مختصين في الصحة النفسية والعمل الاجتماعي ، وإلى برامج تراعي العمر والخلفية والتجربة الفردية ، فليس كل طفل عاش في الشارع متشابهاً مع غيره ، وليس كل طفل استُغل يحتاج إلى العلاج بالطريقة نفسها ،

إن العدالة التي تكتفي بمعاقبة المستغل قد توقف يد الجريمة ، لكنها لا تمحو آثارها من ذاكرة الضحية ،

X

يضع القانون المصري حماية الطفل من الاستغلال في إطار قانوني واضح ، كما تتعدد النصوص التي تتناول الاتجار بالبشر

واستغلال الأطفال والعمل القسري وغيرها من الجرائم ذات الصلة ، غير أن القراءة القانونية الدقيقة تقتضي عدم الاكتفاء بنقل أرقام المواد أو العقوبات بصورة مبتورة ، لأن التكييف القانوني النهائي يعتمد على طبيعة الوقائع والأدلة وما تثبته التحقيقات ،

وتبرز هنا قيمة القانون لا بوصفه أداة للعقاب فقط ، بل بوصفه منظومة للحماية ،

فالعقوبة تردع الجاني ، لكن الحماية تمنع تكرار الجريمة ،

والتحقيق يكشف الواقعة ، لكن الرعاية تمنع إعادة إنتاجها ،

ومن المهم كذلك عدم التعامل مع الطفل ، في القضايا التي تتداخل فيها الجريمة والاستغلال ، بالمنطق نفسه الذي يُعامل به البالغ ، فالطفل قد يكون قد شارك ظاهرياً في سلوك مخالف للقانون ، لكنه في الوقت ذاته يكون واقعاً تحت سيطرة بالغين أو تحت ضغط الحاجة أو التهديد ،

وهذا التعقيد هو ما يجعل قضايا استغلال الأطفال مختلفة عن الجرائم التقليدية ، فالأدوار ليست دائماً واضحة ، والضحية قد تبدو ، على السطح ، جزءاً من الفعل الذي أُجبرت عليه ،

X

في مواجهة طفل متسول ، يشعر كثير من الناس بالرغبة في المساعدة الفورية ، وهذه الرغبة إنسانية في جوهرها ، لكن القضية تصبح أكثر تعقيداً عندما يكون التسول منظماً أو مرتبطاً بشبكات استغلال

فالتعاطف الفردي قد يخفف الألم في لحظة ، لكنه لا يعالج النظام الذي ينتج الألم ، وهذا لا يعني الدعوة إلى تجاهل الأطفال أو الامتناع عن مساعدتهم ، بل يعني التفكير في طرق أكثر أمناً وفاعلية: دعم مؤسسات موثوقة ، والإبلاغ عن حالات الاستغلال ، والتعاون مع الجهات المختصة ، وتقديم المساعدة التي تصل إلى الطفل بوصفه إنساناً يحتاج إلى حماية طويلة الأمد ،

إن المجتمع الذي يريد حماية أطفاله لا ينبغي أن ينتظر انتشار مقطع صادم كي ينتبه ، الحماية الحقيقية تبدأ قبل الكاميرا ، تبدأ في المدرسة التي تلاحظ الغياب ، وفي الأسرة التي تطلب المساعدة قبل

الانهيار ، وفي الجار الذي يبلغ عن العنف ، وفي المؤسسة التي لا تكتفي بالاستماع ، بل تتحرك ،

X

تكشف هذه الواقعة عن القوة المزدوجة لوسائل التواصل الاجتماعي ، فمن جهة ، ساعدت المقاطع المتداولة في جذب الانتباه إلى مكان لم يكن معروفاً للرأي العام ، ومن جهة أخرى ، يمكن للانتشار السريع أن يحول أي قضية إلى ساحة للتخمين وإطلاق الاتهامات ،

وهنا تظهر الحاجة إلى ثقافة رقمية أكثر نضجاً ، فالتوثيق مهم ، لكنه لا يساوي التحقيق ، والفيديو دليل محتمل ، لكنه لا يشرح وحده كل السياق ، والانتشار لا يعني دائماً صحة كل التفاصيل المصاحبة ،

لذلك ، ينبغي أن يكون دور المستخدم المسؤول هو الإبلاغ والتوثيق بحذر ، لا المطاردة ولا التحريض ولا نشر معلومات قد تضر بالأطفال أو تكشف هوياتهم ،

وفي قضايا القُصَّر ، تصبح المسؤولية أكبر؛ لأن الصورة التي تُنشر اليوم قد تتحول غداً إلى وصمة تطارد الطفل سنوات طويلة ،

إن إنقاذ الطفل لا يعني فقط إخراجه من المكان الخطر ، بل يعني أيضاً حمايته من أن يتحول إلى مادة استهلاكية في سوق المشاهدات ،

X

قد تنتهي قضية بعينها بإلقاء القبض على عدد من المتهمين ، أو بإحالتهم إلى التحقيق والمحاكمة ، وقد يُغلق المكان الذي ارتبط بالقضية ، وتختفي الصور تدريجياً من صفحات الأخبار ،

لكن المشاكل الاجتماعية لا تختفي دائماً بالطريقة نفسها التي تختفي بها الأخبار ،

إذا كانت هناك شبكات تستغل الأطفال ، فعلينا أن نسأل عن الشروط التي تسمح بظهورها واستمرارها ، وإذا كان الأطفال يصلون إلى بيئات غير آمنة ، فعلينا أن نسأل أين تعثرت شبكات الحماية قبل وصولهم إلى هناك ،

هل المشكلة في الفقر فقط ؟ أم في التفكك الأسري ؟ أم في التسرب من التعليم ؟ أم في العنف المنزلي؟ أم في الهجرة الداخلية والتنقل؟ أم في ضعف القدرة على الوصول إلى خدمات الحماية؟

والإجابة العلمية غالباً لا تكون كلمة واحدة ، فالمشكلات المعقدة نادراً ما تنتج عن سبب واحد ،

إن التفكير العلمي لا يبحث عن «الشرير الوحيد» الذي يفسر كل شيء ، إنه يبحث عن شبكة الأسباب: السبب المباشر ، والعوامل المساعدة ، والظروف التي سمحت بالخطر ، والثغرات التي يجب إصلاحها ،

ولهذا فإن نجاح أي سياسة حقيقية لحماية الأطفال يحتاج إلى تعاون بين الأمن ، والعدالة ، والصحة النفسية ، والتعليم ، والعمل الاجتماعي ، ومنظمات حماية الطفولة ، والمجتمع المحلي ،

لا توجد مؤسسة تستطيع وحدها أن تعالج مشكلة متعددة الجذور ،

X

ربما كان أكثر ما جعل قصة «الفجوة السوداء» مؤثرة هو ذلك التناقض بين عالمين: فوق الأرض ، حياة عادية يسير فيها الناس ويعودون إلى منازلهم؛ وتحت مستوى الرؤية ، عالم آخر ـ كما وصفته الروايات الأولية ـ يضم بشراً يعيشون في ظروف تستدعي التحقيق والحماية والتدخل ،

لكن الخطر الحقيقي ليس في وجود فجوة تحت الأرض ، الخطر الحقيقي هو أن توجد فجوات داخل المجتمع نفسه ،

فجوة بين الطفل وحقه في الأمان ، وفجوة بين الفقر والحماية ، وفجوة بين رؤية المشكلة ومعالجتها ، وفجوة بين إنقاذ الإنسان لحظة الخطر ومرافقته حتى يستعيد قدرته على الحياة ،

إن التعامل مع قضايا استغلال الأطفال يجب أن يبدأ بالحزم تجاه كل من يثبت تورطه في استغلالهم أو تعريضهم للخطر ، لكنه لا ينبغي أن ينتهي عند باب قسم الشرطة أو قاعة المحكمة ، فالطفل ليس دليلاً في ملف قضية ، وليس رقماً في بيان أمني ، وليس مشهداً مؤثراً في مقطع مصور ،

إنه إنسان في بداية حياته ،

وكل مجتمع يُقاس ، في جانب عميق من أخلاقه ، بالطريقة التي يعامل بها أضعف أفراده ،

قد تُغلق «الفجوة السوداء» إن ثبت استخدامها في أنشطة غير مشروعة ، وقد تتغير أسماء الأماكن وتختفي الصور من الذاكرة العامة ، لكن التحدي الأهم سيبقى: أن نمنع ظهور فجوة أخرى ، في مكان آخر ، وباسم آخر ،

فالظلام لا يُهزم بمجرد اكتشافه ،

بل بمعرفة الأسباب التي صنعت الظلام ، ثم بناء ما يكفي من العدالة والرعاية والوعي كي لا يجد طريقاً جديداً إلى أطفال لا يملكون القدرة على حماية أنفسهم ،

المحتويات

1 – أداء الأمانة
2 – الطفلة الضائعة
3 – نور لا تفرقه الاسماء
4 – امرأة ربت ثعبانا
5 – جين صار الرصيف أبا
6 – حين عاد الاسم إلى صاحبته
7 – الصياد و السلحفاة
8 – حكاية البخيل و الثعبان
9 – الهانبوك و الكيموتش
10 – التراث الثقافي و الطقوس في كوريا
11 - الرجل الأرنب
12 - حين قاد الدعاء الغيث و الطريق
13 – الاصلع و البعوضة
14 – رائحة بقيت في الجرة
15 – الرجل العجوز و أبناؤه الثلاثة
16 – أمنا الغولة
17 – حين ربت الغابة أطفالها
18 – الصياد و الأسد الجبلي
19 - حطاب الخيزران
20 – ضحك لأن شيئا مضحكا حدث
21 – الطفلة التي كانت تقف عند باب الفرح
22 - الطفل الذي نسى لغة البشر
23 - الغابات السوداء
24 - الفجوة السوداء